رشا زيدان

عمر أفندي

رواية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

هو أنت

رشا زيدان

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

إهداء

إلى شمسي...
شيخي الباطني الذي أحببته كما لم يحب بشر بشرًا من قبل، شمسي الذي كان وما زال له كل الفضل بعد ربي في كل ما سوف أكون في يوم، وليس ما أنا عليه اليوم.
إلى الخضر الذي ظهر واختفى بسرعة البرق.
كان خضري وكنت موساه، ولم أنتبه فكان فراق بيني وبينه إلى اليوم.
إلى كل الرجال، وكل العلماء، وكل الآباء، وكل الأصدقاء، وكل الأوصياء، وكل الأحباء... كلهم أنت... إليك أهدي كل الكتب وليس هذا فحسب.
أهدي إليك روحي إن كنت أملكها، أهديها لك أنت.
إليك أهدي «روح» و«لك وحدك» و«هو أنت» ومعهم قلبي، مغلفين بالتل الأبيض وبرباط حريري أخضر، معطرين برائحة جوز الهند. أهديهم وأنحني إجلالًا لهالتك النورانية التي تفضلت عليَّ بالدخول إليها، كلما اجتمعنا في ملكوت الله.
سوف تبقى لقاءاتنا أجمل اللقاءات، وكلماتك أجمل الكلمات، ويمينك أجمل الأيادي التي امتدت بكرم إليَّ وتمنيت أن تُقبّلها شفتاي...

1

نظرت من نافذة غرفتها في هذا الصباح لترى قونيا باردةً للمرَّة الأولى. ذهب نور بالأمس، واليوم ستُودِّع براء وعالية قبل أن يذهبا لقضاء شهر العسل، ثم إلى القاهرة. أدركت أن قونيا لن تكون كما اعتادتها. ستعود وحيدة كما جاءتها وحيدة. وداع جديد كُتب عليها اليوم. ستعود هي والرومي فقط، تمامًا كاليوم الأول لها في هذه الأرض.

قبل أن تخرج أخذت حبة الرمان، واحتفظت بها كما احتفظت بقصاصة التُّل من قبل. تمنت أن تقضي اليوم الأول بعد سفر نور مع الدفتر الذي تركه لها من دون أي شريك، فقط هي وكلمات نور. ولكن هذه الكلمات لا يمكن أن تقرأها كما تقرأ أي كتاب أو حتى شعر؛ إنها كلمات نورانية، كتبها نور من روحه ولروحه، وقراءتها يجب أن تليق بمقام الكاتب والمكتوب، وعندما لا تستطيع أن تعطي الأشياء حقها فمن العدل ألَّا تُعطي شيئًا.

قبَّلت الدفتر قُبلة اعتذار، ووضعته برقة، وحدَّثته كأنه يفهمها، وقالت: «مفيش نصيب النهارده، دايمًا لازم أصبر وأستنى، دايمًا في حاجة واقفة بيني وبينه، بس الحاجة دي لازم هتخلص يوم، وهييجي أوان اللُّقا، تمام زي الحج، هوَّ قالي كده في الفرح».

وبتذكُّرها لمشهد العُرس، وكلمات نور لها، شعرت بالرَّد. ربما انتهى العُرس وذهب نور، لكن لا تزال قصتهما لم تنتهِ بعد، ولا يزال اتصالهما في عالم الملكوت قائمًا حتى وإن لم يتواصلا على الأرض. نظرت إلى الشمس الساطعة في السماء، وأرسلت الرَّد. لم يكن نور قد وصل إلى القاهرة بعدُ، كان في السماء وكانت هي على الأرض، أخرجت الآيباد وبدأت تكتب:

حَجٌّ.. إن عشقك والله لحَجٌّ.

طواف الأشباح سبع، وطواف أرواحنا سبعات وسبعات.

زمزم مكة شراب، وزمزم عشقك سُقيا وري وطهور للأرواح.

حَجر الكعبة الأسود حَجر، وحَجرُك الأسود عزة ورفعة وكبرياء.

صفا ومروة هاجر ذهابًا وإيابًا، وصفاك ومرواك تصفية من مُر الحياة.

تحلُّل الحَج شعرات، والتحلُّل من عشقك تخلٍّ عن كل ما سواك.

أحجُّ إليك في اليوم والليلة مرَّات ومرَّات، وأتحلَّل من كل ما سواك، ثم أعود إلى مُرِّ الحياة صباحًا، فأطوف بكعبة عشقك، لأسبح بعيدًا عن تلك الحياة، وأتطهر بزمزم، وأجيء وأذهب بين صفاك ومرواك سبعات وسبعات، وأتحلَّل مرَّة أخرى ثم أعود إلى مُر الحياة.

متى تأخذني من نفسي لذاتك وأحج حجة الوداع؟

متى أتحلَّل من الدنيا وأطوف هيامًا حول عرش الرحمن؟

متى أكف عن المحاولة، وأستقيم كما أمرتني، فيصدر أمرك باسترداد الأمانة، وأعود إلى موطن كل الأرواح؟

متى أحجُّ حجةً ليس فيها غفران؟ حجةً لا ذنوب فيها ولا إحرام، لا مِنى ولا عرفات ولا رجم شيطان؟ حجةً ليس فيها إلا نحر لنفسي وتهليل وتكبير وتلبية وفرحة بالعودة إلى الرحمن.

*

جلست روح في أحد صالونات الفندق الذي أقيم فيه العرس، تتبادل الأحاديث والضحكات مع أغلب الحضور. أما هو، فكان يجلس صامتًا، يتأمل المشهد، وينظر إليها وهي تجلس بجانب براء تستقبل معه الهدايا والمباركات، وتحتويه كما لو كانت أسرته حاضرة بكاملها، وينظر إلى ضيف وهو يقوم بدوره كوريث لعمادة العائلة.
كان الشيخ بهاء يُحدِّث نفسه أنه ربما آن الأوان لأن يتدخل ويحسم هذا الأمر. هذه الضئيلة هي الزوجة التي كثيرًا ما تمنَّاها لتحمل مع حفيده المفضَّل مسؤولية اسم عائلة بندر، وتلد له الذرية الصالحة. عقد النية وتوكَّل على الله، هكذا همس لنفسه ثم نهض لينهي جلسة المباركات والليلة الأخيرة لاجتماع أفراد العائلة قبل أن يعود كلٌّ منهم من حيث أتى.
وصلوا إلى باب المنزل، ونزلت روح من السيارة لتصافح الشيخ بهاء الذي لم يصافحها، بل أمسك يدها وقال:
ـ تعالي يا «نور»، عايزك.
كانت كلما ناداها بـ«نور» شعرت بدقات قلبها تتسارع، كما لو كانت ترى نور أمامها بالفعل. لم تسأله يومًا لماذا تنادِيني بـ«نور» وليس باسمي. ربما كانت تخشى أن يعدل عن ذلك وينساديها باسمها، فتفقد تلك الخفقات التي تشعر بها في قلبها، وتفقد الإحساس بالحياة، كلما سمعت اسم «نور».
ابتسمت، ومضت معه في هدوء. دخلا إلى غرفة المكتب، وجلس على الأرض، وأشار لها أن تجلس. بدت الحيرة والقلق على وجه الشيخ للمرَّة الأولى. وانتابها هي أيضًا بعض القلق إزاء حالة الشيخ بهاء.
روح: خير يا سيدي؟
الشيخ بهاء: خير.. إن شاء الله خير.
صمت لحظات، ثم تنفَّس بعمق وقال:
ـ إنتِ عارفة إن من أول ما عيني شافتك وإنتِ بقيتِ زيك زي شاهيناز وعائشة وعالية وكل بنات بندر أو أغلى كمان.
روح: وإنتم كمان يا سيدي.. ربنا العالِم بمكانكم في قلبي.
الشيخ بهاء: فكرت كتير في حكايتك اللي جابتك هنا، وحكمة ربنا منها. إيه اللي يجيب شابة وحيدة من مصر لقونيا، ويدخَّلها وسط أهل بيتي، ويدخَّلها قلبي، زي ما دخَّلك كده؟ عايز مني إيه يا الله؟ عايز مني إيه يا الله؟ سألته كتير وما جاليش الرد. بس النهارده قلت هيَّ دي.. هيَّ دي اللي رب العزة اختارها من فوق سبع سماوات، وسخَّر الأسباب في ملكه وملكوته علشان قضاؤه ينفذ، فجابك لغاية عندي هنا وجوَّا بيتي. شُفتِ بقى جميل إزاي وعظيم إزاي!
روح: أنا مش فاهمة حاجة يا سيدي!
الشيخ بهاء: أنا هافهمك يا «نور». لما علي ابني ربنا رزقه بضيف، وابتدى عوده يشد، شُفت فيه كبير عيلة بالمظبوط، كان كل يوم كتفه بكتفي في كل حاجة، لكن دايمًا كان السؤال: مين ممكن يتجوزها ضيف؟ كانت الحيرة بتاخدني وما كانش فيه حد يملا راسي، كنت باقول ربنا هيبعتله نصيبه في وقته. وبعته. أنا عايزك تبقي بندر بجد وتتجوزي ضيف وأفرح بذريتكم!
فوجئت روح بحديث الشيخ بهاء، حتى إنها لم تجد ما تقول. صمت تام.. توتر.. جمود.. حيرة... كل هذه المشاعر المتضاربة بداخلها ولا تعرف ماذا تقول. لم يكن من الصعب على الشيخ الكبير

أن يُخمِّن ردها الذي لم تتلفظ به، على الرغم من أنه لم يكن في حساباته أن ترفض طلبه. أراد قطع الصمت فقال:
ـ أحب أسمعك دايمًا يا «نور»، حتى لو بتقولي «لأ» على طلبي.
روح: العفو يا سيدي، لا أجرؤ على رفض طلب لكم.
الشيخ بهاء: لكن...
روح: يعز عليَّ أن تكرموني ثم أرد أيديكم الممدودة لي.
الشيخ بهاء: زادكِ الله أدبًا.
تنفَّست روح ببطء، وأمسكت يد الشيخ وقبَّلتها، ودمعت عيناها، وقالت:
ـ والله ما بإيدي، يا ريت كنت أقدر، بس والله ما بإيدي.
استغرب الشيخ ردها ودموعها، وسحب يده من بين يديها، وأمسك وجهها بيديه وقال:
ـ هوَّ إيه اللي مش بإيدك يا بنت الناس؟! زيديني.. فيه شيء أنا ما اعرفهوش؟
أطلقت روح العنان للدموع الحبيسة في قلبها، وقالت:
ـ حِمل كبير، حِمل وربنا كلفني بيه، تعبت منه صحيح، بس لازم أقوي نفسي وأشيله وأكمل. ما اقدرش أقولّه الحِمل تقيل، ما دام كلفني بيه يبقى أنا أده، هوَّ قال كده. الحِمل ده هوَّ اللي جابني هنا، وهوَّ اللي خلاني أشوفكم وأحبكم وتفتحولي قلوبكم رحمة منه، وهوَّ برضو اللي يمنعني أوافق على طلبكم، يعز عليَّ والله يا سيدي! يعز عليَّ!
الشيخ بهاء: حِمل إيه يا بنتي؟! زيحي عن قلبك وقولي!
روح: رؤيا وراني فيها الجنة، كنت حوا وكان آدم، وكانت شجرتنا بتضلِّل علينا، الحكم نفضل في ضل الشجرة لكن ما ناكلش منها.

الشيخ بهاء: يااااه يا نور! ده حِمل تقيل أوي يا بنتي! أبوكِ وأمكِ شالوه من قبلك. ادعي ربك يشيل عنك، هوَّ اللي يقدر يشيل ويتوب عليكِ، زي ما تاب عليهم. ارميله حمولك يا بنتي، واطلبي منه يعفو عنك.
رمت روح نفسها في صدر الشيخ بهاء كالأطفال، واشتكت حِمل عشقها لنور للرجل الذي تمناها لأغلى أحفاده، ومع ذلك لم يغضب منها. لم تشعر بالوقت الذي ظلت فيه على صدر الشيخ العجوز، هل كان دقائق أم ساعات، لكنها شعرت أن الزمن توقف، وأن صدر الشيخ كان واحة طمأنينة جمعت كل ما افتقدته: حنان أمها، وأمان أبيها، واحتواء جمال أخيها، وحكمة نور، لكنها بالطبع لم تجد في هذه الواحة حب نور الذي كانت في أشد الحاجة إليه في هذه اللحظة.
*
في اللحظة نفسها، كان نور أيضًا يشعر باحتياجه إليها بعد أن ودَّعها ولا يعلم متى سيراها من جديد، ومتى ينتهي هذا التكليف الثقيل ويُرفع عنه وعنها الحِمل. كان يجلس بجوار حياة في الطائرة بجسده فقط، وقلبه في مكان آخر، وعقله منشغل. وكانت حياة أيضًا تفكر: متى تكف عن التفكير في فؤاد؟ شيء ما بداخلها كان يحن إلى طبيعتها المختلفة التي رأتها معه، وكلما اختلت بنفسها وتذكَّرته هرعت إلى نور لتحتمي به. أما نور، فكان لا يهرب من مشاعره ويتجه إليها، بل على العكس، كان يتمنى لو تتركه حياة وحيدًا قدر المستطاع ليحظى بمزيد من الوقت مع درويشته التي ترك روحه معها. يحيا جسدًا بلا روح.. مجرد وعاء.. يتحدث ويبتسم وقلبه يتأجج بنار

العشق والفراق.. عيناه تلمعان بدموع حبيسة تحجب خلفها كثيرًا من الشجن والألم والحزن على شيء تتوق نفسه إليه، لكن إرادة الله تحول بينه وبين هذا الشيء. اختار نورٌ الله، تمامًا كما اختارت روحٌ الله. والتقوى هي درس النفس الذي يتلقيانه في قصة حبهما التي لا يوجد عليها دليل واحد ملموس، ليس غير دليل اليقين الذي وقر في القلب.
كسرت حياة حاجز الصمت، وقالت:
ـ الفرح إمبارح كان جميل بشكل! أنا أول مرَّة أشوف حاجة كده!
قال نور مبتسمًا:
ـ فعلًا، كانت ليلة جميلة!
حياة: بس برافو عليهم إنهم لسه محافظين على عوايدهم بعد كل السنين دي، أولاد أصول بجد.
نور: فعلًا، ناس مأصلين ومحترمين، أنا مبسوط أوي إن براء ناسبهم، ربنا يسعده هوَّ وعالية.
حياة: آمين. أنا كمان فرحانة لروح. شُفت اتغيرت إزاي؟! دي كأنها واحدة تانية، تحسها منورة وعينيها بتتكلم!
نور: روح ما شافتش قليل، وربنا بيرقي اللي بيصبر، وهيَّ في ترقي، ولسه كمان إن شاء الله.
حياة: أيوه يا نور، بس ربنا برضو ما قالش نترهبن ونعيش كده! كان لازم تضغط عليها شوية في موضوع ضيف، إنت عارف هيَّ بتحبك وبتقتنع بكلامك إزاي. مش فاهماها بصراحة، الراجل زي الفل وبيحبها. تكونش اتجذبت يا نور؟! دي بقت ولا الدراويش، دايرة على الجوامع والمقامات... ده طبيعي ده يا نور، ولَّا روح اتجذبت زي الناس اللي بنسمع عنهم؟
نور: اتجذبت إيه ودروشة إيه؟! إنتِ سامعة نفسك؟! من دقيقة واحدة لسه كنتِ بتقولي أنا فرحانة علشان روح، دي بقت منورة، وبعدين تقوليلي اتجذبت واتدروشت! كل ده علشان مش عايزة تتجوز! هيَّ حرة في نفسها. لا حول ولا قوة إلا بالله! البنت في ترقي، وباين عليها في كلامها، والنور بيشع من وشها، أستغفر الله العظيم!
حياة: تصدَّق عندك حق. أستغفر الله. إيه اللي أنا باقوله ده؟! طب فهِّمني يا نور إيه اللي بيحصل مع روح؟ هوَّ إنتو كمشايخ متعودين على كده؟ يعني فيه مريدين بيحصلهم زي روح كده وبيبقى عادي؟
نور: الناس في سلوكهم لله بيختلفوا يا حياة، كل واحد بحسب قلبه وطاقته، لكن تقدري تقولي في المجمل إن السالكين في المحبة بينقسموا إلى ثلاث مراتب: أرباب الخدمة، وأرباب الأحوال، وأرباب المقامات.
حياة: يعني قصدك إن روح من أرباب الأحوال؟
نور: ما اعرفش يا حياة. الله أعلم. دي حاجة بين روح وربها. هيَّ فين وإزاي محدش يعرف. ده اللي اتعلمناه من مشايخنا. لا حد يبص على حد، ولا حد يسأل على مقام ولا حال حد. الأدب في السير إلى الله.
حياة: أنا مش قصدي يا نور أسأل، أنا بس باتطمن على روح.
نور: عارف يا حبيبتي، اطمني، أنا واخد بالي منها، ما تقلقيش عليها، دي ما شاء الله كتبت ديوان شعر في كام شهر من ساعة ما وصلت قونيا. شفتِ فتح ربنا عليها أد إيه؟!
حياة: ما شاء الله، ربنا يحفظها ويبعتلها ابن الحلال اللي يريَّح قلبها!

تبسَّم نور من دعوة حياة، وأخذ رأسها يُقبِّله على دعوتها لروح.. الدعوة التي ربما تجلب الألم لحياة نفسها إذا ما تحققت.
قبَّلها وقال:
ـ آمين.

*

حديث روح مع الشيخ بهاء كان عبئًا جديدًا حملته وهي لا تعلم إلى أين سيأخذها: «هل سيؤثر هذا الرفض على علاقتها بعائلة بندر، وبالأخص علاقتها المميزة بالشيخ بهاء؟ هل سيُخبر السيدة قسمت والسيد علي، ولن تحظى بالعائلة البديلة التي حظيت بها في الشهور الماضية؟ ضيف.. تُرى هل سيُخبره؟ وماذا ستكون ردة فعله معها؟ هل هذا هو مصيرها دائمًا: ألَّا تسكن لأحد ولا يبقى أحد؟».
كل هذه الأفكار تسللت إلى قلبها، وانتابها إحساس الخوف من أن تفقد الدفء الذي وجدته وهوَّن عليها غربتها عن القاهرة. خرجت شاردة من مكتب الشيخ بهاء، حتى إنها لم تلتفت إلى ضيف، ولم تنتبه للسلام على السيدة قسمت.
لاحظ ضيف خروجها الغريب وآثار البكاء على وجهها، ففكر أن يتصل بها ليطمئن عليها، لكنه تراجع ليتكلم مع جده أولًا. طلب القهوة له ولجده من السيدة قسمت، وحمل الصينية ثم دق باب غرفة المكتب مستأذنًا بالدخول.
الشيخ بهاء: اتفضل.
ضيف: قولِّي يا سيدنا، هوَّ فيه حاجة في الدنيا أحلى من القهوة مع الشيخ بهاء؟
الشيخ بهاء: تسلم يا غالي.
ضيف: مالك يا سيدي؟ إيه اللي مزعلك كده؟ ما هي لازم تتجوز زي كل البنات!
الشيخ بهاء مستفسرًا:
ـ هيَّ مين؟
ضيف: عالية. إنت مش مستوحش البيت من غيرها؟
الشيخ بهاء متداركًا الموقف:
ـ آه.. آه طبعًا.. ضروري.. ربنا يستَّر كل البنات.
ضيف: والرجالة يا سيدي، إيه سترهم؟
الشيخ بهاء: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)».
ضيف: يعني الجواز ستر للرجالة كمان؟
الشيخ بهاء: طبعًا.. وصف ربنا للجواز بيجمع فيه كل حاجة ممكن الناس تعيش تدوَّر عليها.. الستر والسكن والمودة والرحمة.. أبونا آدم استوحش الجنة لوحده.
ضيف: الله يا سيدي! طب دعواتك للفقير إن ربنا يهديله العاصي، علشان أنا استوحشت الدنيا أوي من غيرها جنبي!
الشيخ بهاء بمرارة:
ـ ربنا يبعتلك بنت الحلال اللي تريَّح قلبك يا غالي!
ضيف: ما إنت عارف إنه بعتها خلاص يا شيخ بهاء.. فاضل بس يهديها.. خايفة يا سيدي وآديني أهو مطوِّل بالي ومستني.. ربنا يهديها!

الشيخ بهاء: ما تستناش يا ضيف!
ضيف: مش فاهم يا جدي! قصدك إيه؟
الشيخ بهاء: روح مش ليك يا ابني!
ضيف: يعني إيه؟

الشيخ بهاء: الحب شيء والجواز شيء يا ابني.. الحب قدر والجواز قدر.. ومش معنى إنك حبيتها إن قدرك تتجوزها!
ضيف: ليه؟! مين اللي قال كده؟! قرار مين إن قدري أحبها لكن ما اتجوزهاش؟!
الشيخ بهاء: قرار رب العالمين.
ضيف: ومين اللي قال إن ربنا عايز كده؟!
الشيخ بهاء: هيَّ يا ابني!
ضيف: هيَّ قالتلك كده؟! هيَّ مش عارفة.. هيَّ خايفة ومش فاهمة.. أنا هاعرف أتصرف معاها.. الموضوع مسألة وقت.. أنا هاطمنها!
الشيخ بهاء: الموضوع منتهي يا ضيف! اسمع كلامي يا ابني!
ضيف: أنا أول مرَّة أسمعك بتتكلم كده! مش ده اللي إنت مربّيني عليه!
الشيخ بهاء: لا. هوَّ ده اللي اتربينا عليه وبنربي ولادنا عليه! محدش يبص على حاجة في إيد غيره!
ضيف: يعني إيه يا سيدي؟ إنت تقصد إن فيه حد تاني سبقني؟
الشيخ بهاء: الحاجات دي نصيب يا بني!
ضيف: وما قالتش ليه من الأول؟! دخلت حياتنا كده وما قالتش حاجة عن حياتها كأنها سر حربي، وجاية دلوقتِ تقول إنها مرتبطة؟! ده اسمه إيه؟!
الشيخ بهاء: مفيش حاجة بتقول كده، محدش بيمشي يقول للناس أنا مُغرم! دي حاجة تخصها هيَّ! البنت لا متجوزة ولا حتى مخطوبة علشان نلومها إنها خبّت حاجة علينا، اللي في قلبها حاجة تخصها بينها وبين رب العالمين، وإحنا لا ندوَّر ولا نفتِّش! إيه نسيت الأصول؟!
ضيف: لا ما نسيتش يا جدي، بس كنت باقول يعني ما دامت مش متجوزة ولا مخطوبة يبقى لسه.
يقاطعه الشيخ بهاء:
ـ مفيش «لسه»! كلامي واضح! الموضوع خلص، وكلامنا كمان خلص. اتفضل شوف حالك!
حبس ضيف غضبه مما أخبره به جده، ومن أمره بنهاية الحديث. وأخرج زفيرًا حارًّا، واستأذن بالانصراف.
كان الجد يعلم ألَّا شيء أقسى على الرجل مهما كانت قوته، من أن يدرك أن قلب المرأة التي يحبها ليس له ولا يستطيع الوصول إليه. كان يشعر بألم ضيف، ولكن لا يستطيع أن يفتح له صدره ويدعوه للبكاء عليه، كما فعلت روح. فالرجال يجب ألَّا يبكوا أو يضعفوا، ويجب أن يواجهوا الحقائق ولا يلتفتوا عن مسؤولياتهم في الحياة. هكذا تربى بهاء الدين بندر، وهكذا يربي ضيف الآن، على أشد الدروس قسوة.

2

دخلت منزلها، وقد دخلت الحيرة قلبها عن شكل علاقتها بعائلة بندر بعد حديثها مع الشيخ بهاء. تذكرت غرفة النوم التي قضى نور بها ليلته. أخذت دفتره وقصاصة التُّل ودخلت الغرفة. أغمضت عينيها وأخذت تستنشق هواء الغرفة بقوة، كأنها تستنشق بقايا نور بها. ذهبت لتنام في السرير الذي نام فيه نور، وهي محتضنة قصاصة التُّل ودفتر الأشعار. وضعت رأسها على الوسادة نفسها التي نام عليها نور. لم تغلق الستائر. كانت تنظر إلى القمر من الشرفة وتأبى أن تحدثه. حبست الحيرة كل الكلام، وللمرَّة الأولى لم تجد ما تقوله للقمر، ولكن القمر هو الذي تكلم هذه الليلة. فتحت دفتر نور لتقرأ فيه، فهو كل ما تملك الآن. ظلت تقرأ قصيدة تلو قصيدة حتى غلبها النعاس ونامت كالأطفال بفستانها محتضنة ألعابها بقوة.

أما ضيف، فلم ينم ليلته. كان الغضب قد تمكَّن منه، وكل ما يشغله هو إحساسه بالرفض وتفضيل روح لغريمه عليه.

كان السؤال الذي يبحث عن إجابة: «هل أستجيب لكبريائي، وأنسحب من حياتها، وأكف عن ملاحقتها، أم أقترب أكثر، وأمارس كل الضغوط لأفوز بها؟».

في الصباح كان قد وصل إلى الإجابة وعقد العزم على أن يفوز بروح: «روح لي ولن تكون لغيري أيًّا كان!».

لم يلتفت إلى أمر جده بالابتعاد عن روح. لم يلتفت إلى مشاعر روح نفسها التي اختارت وحسمت الأمر. لم يلتفت إلى أي قاعدة أخلاقية تحترم الوضع... التفت فقط إلى نفسه وإلى الانتصار والفوز.

الرد نفسه، والتصرف نفسه: «أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ... أنا خير منه».

وبالفعل بدأ العمل على ما قرر. ذهب إلى المقهى الذي تحبه روح، واشترى القهوة والفطائر الطازجة، ومضى إليها. فتحت روح الباب وهي في حالة استغراب، فليس من عادة ضيف أن يأتي بلا موعد وفي الصباح الباكر!

روح: خير يا ضيف؟! في إيه؟!

ضيف: أبدًا، ما تتخضيش، مفيش حاجة خالص.

روح: أُمَّال إيه اللي جايبك دلوقتِ ومن غير تلفون؟

ضيف: أنا آسف! بس أنا اتصلت بيكي أتطمن عليكِ علشان إمبارح كان شكلك مش تمام وإنت مروحة، ولما ما رديتيش قلقت، وكنت جنب المحل اللي بتحبي القهوة بتاعته، فقلت أجيبلك قهوة وفطائر علشان نفطر سوا. إيه؟ بلاش؟ أمشي؟

روح: لا طبعًا، اتفضل. تقدر تستناني في الجنينة. خمس دقايق وهاجيلك.

ضيف: إنتِ نمتِ بفستانك؟!

روح: خمس دقايق يا ضيف، هاغير وأجيلك.

لم يكن هذا هو ما تحتاج إليه في بداية هذا اليوم!

«ما الذي أتى بك يا ضيف؟ ولماذا لا تدعني وتذهب؟ اتركني وشأني، وقلل من حمولي التي باتت تزداد كل يوم، بل كل ساعة، وأنا ما عدت أعرف ماذا أفعل!».

هكذا حدثت نفسها في الدقائق الخمس التي بدَّلت فيها فستانها، وخرجت إليه.
ضيف: أنا عارف إنك أكيد متأثرة علشان أصحابك رجعوا مصر، وبراء وعالية سافروا شهر العسل، مظبوط؟
روح بامتعاض:
ـ مظبوط.
ضيف: بصي يا ستي، أنا عندي عرض مش ممكن ترفضيه.
روح: خير؟
ضيف: أنا فكرت إن إنتِ لغاية دلوقتِ ما اتعرفتيش على قونيا كويس. فيه حاجات كتيرة ومزارات مهمة لازم تشوفيها، ده غير أولياء كتير أنا عارف إنك هتحبي تزوري مقاماتهم، فعينت نفسي مرشد سياحي من النهارده لحضرتكم يا خانوه.
روح: متشكرة أوي يا ضيف، طبعًا هوَّ عرض ما يترفضش فعلًا، لكن خلِّيني براحتي. أنا باحب أقعد عند مولانا وأرسم. إن شاء الله أقولك لو حبيت أعمل الجولة دي.
ضيف: فيه لسه مفاجأة تانية، مهرجان الموسيقى الصوفي هيبتدي الأسبوع اللي جاي، ومنشدين وفرق موسيقية من العالم كله جايين، أنا عارف إن دي نوعية المازيكا اللي بتحبيها. اشتريت تذاكر في أول صف طبعًا، وكل ليلة سهرة شكل في مركز مولانا الثقافي.
قاطعته روح:
ـ من فضلك يا ضيف، ما تعملش حسابي في أي برامج أو فُسح!
ضيف: ليه؟!
روح: أظن إن أنا وضَّحت نفسي في لندن، وإنت وعدتني إنك مش هتضغط عليَّ.
ضيف: فين الضغط؟!
روح: كل ده ضغط يا ضيف! أرجوك! أنا مقدرة اهتمامك ومشاعرك جدًّا.
ضيف: لكن...
روح: أنا جيت هنا يا ضيف علشان أعيش في سلام.
ضيف: وأنا اللي هاخليكِ ما تعيشيش في سلام يا روح؟!
روح: إنت مش عارف حاجة، وبتصعب عليَّ الأمور زيادة!
ضيف: لا عارف.
روح بانزعاج:
ـ عارف إيه؟
ضيف: عارف إن أوقات بنفهم نفسنا غلط، ونسمي مشاعرنا بأسماء مش حقيقية، بنتمسك بأشخاص همَّ مش متمسكين بينا، على أمل إنهم يشوفونا ويحسوا بينا زي ما إحنا شايفينهم. أوقات بنسمح لناس تستغلنا، وتستغل مشاعرنا، من غير ما ناخد بالنا... كل ده فاهمه وعارفه، بس إنتِ اللي مش منتبهاله!
روح: تقصد إيه بكلامك؟ مين الأشخاص اللي إنت بتتكلم عليهم؟
ضيف: أنا باتكلم في العموم، مش باقصد حد بعينه، ليه خدتِ الكلام بحساسية؟!
روح: مفيش حساسية ولا حاجة، أنا بس عايزة أفهم تقصد إيه!
نهض ضيف:

ـ أبدًا، زي ما قلتلك، كلام في العموم. عمومًا يا روح أنا هاسيبك دلوقتِ علشان ما تفتكريش إني باضغط عليكِ ولَّا حاجة، بس فكري في كلامي كويس.
روح: أفكر في إيه بالظبط؟!
ضيف: فكري في مهرجان الموسيقى والجولة السياحية، وشوفي لو هتغيري رأيك. إيه اتخضيتِ ليه؟
روح: آه، لو غيرت رأيي هاعرفك.
ضيف: إن شاء الله تغيري.
رمى ضيف بخبث أول سهام الشك في قلب روح وذهب. تركها شاردة حائرة بين تلك الكلمات القليلة التي قالها في غموض، وعليها أن تفك طلاسمها. شكَّت للمرَّة الأولى في أن يكون هذا الحلم الجميل من نسج خيالها وحدها، مشاعر سمَّتها بغير اسمها، تمسكت بنور وتشبثت به بقوة، ولا تريد أن تتركه أو تترك قصة حبها التي ربما تكون ليس لها أساس، أو ربما حبًّا من طرف واحد.

*

جلست في صمت. الصمت هو كنزها الذي تلجأ إليه دائمًا كلما تزاحمت بداخلها الأفكار، وكلما مرت بحال قبض. تهاجر لنفسها وتأوي إلى كهفها بالصمت. وصلت مرَّة أخرى للحال نفسها التي أخذتها لزيارة السيدة نفيسة ورأت الرؤيا التي جلبت لها السعادة والألم. وبين القبض وانتظار البسط تذكرت كلمات شيخها، عندما قال لها محذرًا ذات مرَّة إن هذا الطريق وعر ولا يسلكه إلا أهله، أهل التجرد والتحمل والإصرار. وهي تجردت وتحملت ولا تزال مُصرة. ولكن إلى متى تستطيع هذه الكريستالة الرقيقة تحمل وعورة الطريق والاحتراق؟ متى تحترق كل الشوائب وتنطفئ كل النيران وتعبر بسلام إلى السلام؟
وفي أجواء الصمت تكلمت وسمعت الرد.

حدثت نور بقلبها.
قالت: أعطني الدليل.
قال: على ماذا؟
قالت: على حبك.
قال: أولم تؤمني؟
قالت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.
قال: ما دليلكِ على الجنة؟
قالت: كلام الله.
قال: وما دليلكِ على النار؟
قالت: كلام الله.
قال: وما دليلكِ على الصراط؟
قالت: كلام الله.
قال: حبكِ في قلبي نار الله وجنته. والطريق إليكِ هو الصراط. أعبر بحرص كي أصل إليكِ ويدخلني ربي الجنة، ويطفئ ما في قلبي من نار. جنتي أنتِ، فكيف أعطيكِ دليلًا على حبي، ولم

يعطنا الله دليلًا على الجنة سوى الوعد، وهو لا يخلف الميعاد؟ أحبكِ كل الحب الذي أذن له الله أن ينزل على قلوب عباده الأبرار، وأنتِ من الأبرار!
لم يطمئن روح حديث الملكوت، ولم يُغيِّر من حالها شيئًا، ولكن حمل لها مزيدًا من الكلمات. فأي تواصل مع نور هو اكتمال، حتى لو كان تواصلًا روحيًّا ليس لديها أي دليل عليه سوى الإحساس.
دوَّنت الإحساس في كلمات:
أنا إن مِتُّ يومًا فلن أدخل النار.
دنياي ناري، وجنتي ستكون أُخراي.
صِراطي حبك، ومشيت إليك حافية الأقدام.
وصلت إليك، ووصلت إلى جهنم في الدنيا... أرض النار.
حبك أحرق قلبي وجسدي، ولم يُبقِ مني إلا الرماد.
أتمنى الموت بعد أن صرت رمادًا.
أتمنى الموت بعد أن عبرت الصراط.
أتمنى أن أكون الوحيدة التي تعبر الصراط مرَّتين، لأخرج من جهنم حاملة حبك بين ضلوعي، أتذوقه في الجنة بلا ألم بعد أن أُبعث من الرماد.
مصيري جهنم، وجنتي بيديك، وحبك وحده هو الصراط.
موعدنا في الجنة، حيث تُمنع النار من الاقتراب بأمر الرحمن.
موعدنا في الجنة، حيث لا مزيد من الآلام.
موعدنا في الجنة، بعد أن أقضي عقوبتي في جهنم هواك، بأمر الرحمن.
وفي كهفها وصمتها وحديثهما في الملكوت، تذكَّرت أو ربما ذكَّرها هو عندما كانت تهرع إليه كالأطفال كلما مرت بحال قبض، فتشرح له بكلماتها البسيطة ما تشعر به من تبدُّل حال، وكيف كانت كلماته تسري فيها سريان السحر والدواء، وتنقلها إلى حال من السكينة والاطمئنان، وهو يفسر لها ببساطته المعهودة أن ما يحدث معها أمر طبيعي للسالكين في طريق الله، والأحوال قلبية، محطات يجب أن يمر بها السالك إلى أن يقر في قلبه معنى لا حول ولا قوة إلا بالله، فلا يغتر بحاله، ويعتقد خطأً أن له فضلًا في أي حال من الأحوال، فإذا وفقه الله للعبادة كان ذلك منه، وإذا قبضه عن العبادة فهم أنه هو المعين والموفق. وكذلك كل الأحوال، من انشراح أو تفكر أو تجليات، كلها فتوحات ونِعم من الوهاب، يبسطها لمن يشاء، ويقبضها عمن يشاء إذا شاء.
ابتسمت لنور الشيخ وليس الحبيب، وهي تستعيد كلماته:
ـ إنتِ عارفة ليه بيقولوا على أولياء الله الصالحين «العارف بالله»؟ لأنهم بيكونوا تعرفوا على أسماء الله وصفاته في أحوالهم، ومروا بالكثير من التجليات الربانية. تعرفي تعملي كده؟
هي: علِّمني.
هو: خليكِ دايمًا مراقبة نفسك، وكل ما تحسي إنك بتمري بحال فكَّري: يا ترى ده اسم إيه من أسماء الله الحسنى؟ ولو ما عرفتيش خدي قلم وورقة وركزي في اللي إنت حاسة بيه، وما تفكريش خالص في اللي هتكتبيه، هتلاقي نفسك بتكتبي حاجة هتوصلك للاسم اللي إنت بتمري بتجليه، ولو ما وصلتيش لحاجة جيبي أسماء الله الحسنى واقري فيها بالراحة، واستشعري اسم اسم، هتلاقي نفسك قلبك بيدلك على الاسم اللي بتمري بيه، تكتبيه في دفترك اللي بتكتبي فيه حاجاتك المهمة،

ولما ترجعي تقري بعد كده، هتحسي بالحال نفسها بتاعت كل تجلي، وتتعرفي على ربنا كمان وكمان.
هي: وبعدين؟
هو: وبعدين، إن شاء الله ربنا يفتح عليكِ ويحبك زيادة وتبقي العارفة بالله ستنا روح.
هي: ممكن أبقى أسألك لما أحتار؟
هو: طبعًا ممكن تسأليني في أي حاجة، بس كله إلا الحيرة. لازم تعرفي إيه اللي في قلبك. كل واحد فينا مكتوب في قلبه نصيبه بلُغة ما يفهمهاش غيره، علشان كده لما بيقرا نفسه بيعرف ربه.
أخرجت دفترها، وأمسكت بالقلم، وأخذت تفكر: يا ترى أنا بامر بتجلي إيه؟ ثم وجدت نفسها تكتب:
الظاهر الباطن.
بالفعل، هذه هي حالها، ظاهرها عذاب وباطنها الرحمة.
أيقنت روح أنها بدأت في الصعود. كانت خطواتها من قبل، خطوات على الطريق الأفقي، أما الآن فقد بدأت في الطريق الرأسي، طريق الصعود الذي يبدأ دائمًا بالحيرة، والحيرة دومًا أول درجة في المعراج.

الدرجة الأولى
رحلة الشك تبدأ بالحيرة، ودواء الحيرة الدليل.
في نهاية الرحلة يكتشف الحائر أن اليقين هو عين الدليل.
اذهب حيث شئت، وابحث حيث رغبت.
لكنك حتمًا ستعود إلى أقرب مكان لم تبحث فيه قبل بدء رحلة البحث.. قلبك.
اليقين يُسكن القلب، والشك يختبئ في العقل.
ما عُذِّب قلب بعذاب أشد من الحيرة، وما سعد قلب إلا باليقين.
*
وكما كانت تمر بتجلي «الظاهر الباطن» في قونيا، كان نور أيضًا يمر بتجلٍّ آخر في القاهرة لم يكن قد فطن إليه بعد. كان يحيا كما يقول المتصوفة: «الصوفي ابن وقته». يحمل بقلبه ما يحمل ويمضي. كان يمارس حياته بالروتين المعتاد: عمل، ومذاكرة، وخلوة، ومتابعة مريدين، وبالطبع تواصل مع شيخه في المغرب بانتظام. كان يدرك أن هناك شيئًا ما جدَّ على حياة، ولكن لم يكن يعلم طبيعة هذا الشيء. شيء ما بداخله تمنى لو أن حياة تشعر بتغيُّر لمشاعرها تجاهه. شيء ما تمنى أن تكون هي الانفراجة، تمنى أن تختار حياة أن تمضي وتتركه لأنها لم تعد تشعر تجاهه بما كانت تشعر به من قبل.
«ربما أصبحتُ بالنسبة إليها شخصًا مملًّا، والحياة معي مملة، لا توجد بها الإثارة التي تذوَّقتها في رحلتها مع أصدقائها، فأدركت كم هي تحيا حياة ناقصة. ربما كانت هذه الرحلة هي الرحمة بي وبروح وبحياة. ويُسبِّب الله الأسباب ليجتمع شملي أنا وروح من دون ألم لحياة، بل بالعكس تكون هي التي اختارت».
طرقت حياة باب مكتب نور، وقطعت كل التساؤلات. أطلت برأسها بابتسامة قائلة:
ـ حبيبي لسه فاضله كتير، ولَّا قرَّب يخرج من صومعته؟
نور مبتسمًا:

ـ لا خلاص، تقريبًا نص ساعة وأخلص. فيه حاجة؟
حياة: كنت عايزة أتكلم معاك في حاجة.

نور: خير؟ لو حاجة مهمة أنا ممكن أكمل بعدين.
حياة: لا، خليك براحتك. هيَّ حاجة مهمة بس مش مستعجلة. مستنياك في «الليفنج روم».
أغلقت باب المكتب خلفها، وفتحت في رأس نور أبوابًا وأبوابًا من الأفكار: «تُرى ماذا تريد حياة؟ هل ما أشعر به يقترب وستفاتحني بما تشعر؟».
لم يستطع نور أن يركز فيما كان يقرأ قبل دخول حياة، وقرر أن يخرج.
دخل إلى غرفة الجلوس ومعه صينية عليها كوبان من الشاي وبعض الحلوى المغربية، وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وبداخله أعاصير أفكار.
نور: عملت شاي مغربي يا ستي زي ما بتحبي، وقلت نلحق الغروب في البلكونة وإحنا بنتكلم وبنشرب الشاي. مش كده أحسن؟
حياة مبتسمة:
ـ طبعًا كده أحسن. إنت عارف يا نور أنا باحب شكل الغروب من بلكونتنا أوي.
نور وهو يناولها الشاي ويبتسم:
ـ عارف. طب والشاي من إيدي، ما بتحبيهوش؟
حياة: كل حاجة منك ومعاك باحبها يا نور!
نور: وإنتِ كمان يا حياة، كل حاجة معاكِ ومنك بيبقى ليها طعم مختلف!
ابتسمت حياة، وأمسكت يد نور، واقتربت منه وقالت:
ـ علشان كده أنا طلبت أتكلم معاك.
نور: فيه إيه يا حياة؟ قلقتيني!
حياة: لا ما تقلقش. أنا بس كنت عايزة أقولك إني بجد آسفة يا نور.
نور: إيه التوتر ده؟ آسفة على إيه يا حياة؟
حياة: آسفة إني طول الوقت اللي فات ده كنت بافكر غلط، وحرمتك وحرمت نفسي من حاجة مهمة كانت هتربط بينا أكتر، وتبقى أجمل حاجة في حياتنا إحنا الاتنين! آسفة إني ما كنتش عايزة أجيب أولاد السنين دي كلها! بجد أنا مش عارفة إزاي كنت بافكر كده! لو كنت فهمت من بدري اللي أنا فاهماه دلوقتِ، كان زمانَّا عندنا بدل الولد اتنين أو يمكن تلاتة، ولَّا تعرف، كان ممكن أربعة. أنا حاسة إني عايزة يبقى عندنا عيلة، وأجيب أولاد كتير مش ولد واحد. عايزاهم كلهم يبقوا صبيان، ويطلعوا زيك بالظبط. أنا مش هاربي حد. أنا لو ربيتهم هابوظهم. إنت اللي هتربي علشان يطلعوا زيك. أنا عايزة عشرين نور حواليَّ مش نور واحد!
نزل تصريح حياة برغبتها في الإنجاب، على نور نزول الصاعقة. مشاعر متضاربة بداخله. فكثيرًا ما تمنى أن يصبح أبًا وحياة كانت ترفض، والآن تخبره برغبتها في الإنجاب وإنشاء أسرة! خيبة أمل وفرحة في آنٍ واحد! لم تقل له حياة ما تمنى أن يسمعه ويتخلص من مأزق حب السيدتين. الحياة والروح معًا، يتصارعان بداخله. والآن الصراع يزداد حدة، والحياة تتشبث به وترسخه بجذور ستثبته في أرض الدنيا أكثر فأكثر!

«ولكن ماذا عن الروح الهائمة السابحة في ملكوت الله؟ ألم يأذن الله بعد لعودة الفرع إلى الأصل؟ إلى متى يا الله تلك الغربة عن الأوطان؟ يا الله... إن الروح للروح تحن، فما العمل والغربة مصير كُتب على الأرواح؟».
أخرجته حياة من شروده:
ـ أنا عارفة إني فاجأتك، بس مفاجأة حلوة، صح؟
نور: طبعًا مفاجأة هايلة مش حلوة بس، لكن حكاية إن كلهم يبقوا صبيان دي مش عدل خالص، لأن أنا كمان من حقي أجيب منك بنت كلها حياة زيك، أشوفك فيها، وأراقبها وهيَّ بتكبر قُصاد عيني، وتبقى زي أمها، بتشع حياة في كل اللي حواليها.
نهضت حياة من كرسيها واحتضنت نور وقالت:
ـ أنا باحبك أوي يا نور! ربنا يخليك ليَّ!
أكمل نور وحياة جلستهما أمام مشهد الغروب. وحياة تتحدث كثيرًا، وتُخرج كل الأفكار التي في رأسها عن الإنجاب: أسماء الأطفال، أين تريد أن تضع مولودها الأول، الأسماء التي فكرت بها في حالة كانوا بنين، وأسماء الإناث، المدارس ونوعية التعليم، الرياضات والهوايات... تطرَّقت إلى أشياء مستقبلية كثيرة، ونور شارد، وعلى وجهه ابتسامة هادئة، ويفكر في روح.
كل ما يريده هو روح. لم يعد يتمنى طفلًا. لم تعد حياة تضخ بداخله الحياة. لم تعد روح هي حنين الروح إلى الروح، بل أصبحت أيضًا أكسير الحياة الذي لن يروي ظمأه إلا وجوده معها.
شعر فجأة بذلك الشعور في قلبه، وأُرسلت ذبذبات الحنين إلى قونيا، وتلقتها الدرويشة، وبدأ يتلقى حديثها في ملكوت الحب.
قالت: اشتاق سمعي منكَ حديثًا.
قال: اشتاق سمعي منكِ حديثًا.
قالت: اشتاقت عيناي منكَ اللقاء.
قال: اشتاقت عيناي منكِ اللقاء.
قالت: اشتاق جسدي منكَ القرب.
قال: اشتاق جسدي منكِ القرب.
قالت: أوَكلما قلتُ شيئًا سمعتُ نفس الرد؟
قال: بالطبع، وكيف لا تسمعين نفس الرد؟
قالت: أحتاج إلى أن أسمع ردودًا لما أحس.
قال: أنا أيضًا أحتاج إلى أن أسمع ردودًا لما أحس.
قالت: لا تراوغني، فقد فهمتُ طريقتكَ في العشق.
قال: لا أراوغكِ البتة، بل أنا على سجيتي، وقلبي هو الذي يرد.
قالت: ولكنها كلماتي أنا، وأنا التي أحتاج إلى الرد.
قال: بل هي كلماتي أنا، وأنا الذي يحتاج إلى الرد.
قالت: كفى عبثًا، وأجبني بكلماتك أنت.
قال: تلك كلماتي، وأنتِ أنا، فكيف لا تعرفين الرد؟
قالت: إذن، ما أشعر به تشعر به بالضبط؟
قال: لا. ما يشعر به الأصل أضعاف ما يشعر به الفرع.

قالت: إذن، أنتَ يؤلمكَ الحنين، كما يؤلمني حنين الفرع إلى الأصل؟
قال: بل أحيا بآلام بتر الفرع عن الأصل.
قالت: ما تمنيتُ أن أؤلمكَ قَطُّ.
قال: ما تمنيتُ أن أؤلمكِ قَطُّ.
قالت: إذن؟
قال: وجبت عودة الفرع إلى الأصل.

3

تحولت الحياة على أرض قونيا إلى معركة جهاد، دخلتها روح وهي لا تدرك أنها في أشد الحروب وطأة، فعدوها ماكر لئيم، ليست لديه أخلاقيات المحارب، وكل ما يهمه هو الفوز في المعركة تلو المعركة ليصل في النهاية إلى المكسب الأكبر وتنتهي الحرب لصالحه. النفس كانت الغازي وقلبها كان أرض النزاع. روحها هي جيشها وكل أسلحتها. كان ضيف يغزوها كل يوم، ويستعمل مختلف الأساليب للإيقاع بها: تارة بالتشكيك في خبراتها في الحياة، وتارة بالتشكيك في وعيها وإدراكها لمشاعرها، وتارة بالاهتمام والحنان والحماية التي كان يحوطها بها. قاومت كثيرًا، ولكنها أيضًا فكرت كثيرًا. للمرَّة الأولى أصبح للعقل مكان في قصتها مع نور، وكلما فكرت غرقت أكثر في دوامات الشك والحيرة. بدأ جسدها الضئيل يئن مما يحمل، وعرف الإعياء طريقه إليها، وأصابها الشحوب، وفقدت شهيتها للطعام وللحياة. كانت تذبل يومًا بعد يوم، لكنها كانت مؤمنة موحدة في عشقها لنور، ولم تسمح لضيف أن يتسلل بداخلها. كانت تقاوم بشدة، وتحمي نور العاشق المكبل الذي لا يستطيع أن يدافع عن حبه أو يقترب من حبيبته.

كان الشيخ المحب يرى الذبول يزحف إليها، ويرى الإعياء يزداد عليها. لم تعد لمعة عينيها لها البريق نفسه، ولم يعد حضورها يشع حبًّا ونورًا كما كان، وأصبحت دائمًا صامتة شاردة، مستمعة غير مدركة. لم يكن الشيخ بهاء يعلم أن حفيده تجاهل أمره له بألَّا يقترب من روح، لكنه كان يعلم أن ما أخبرته به هو العذاب ذاته، وها هي آثاره بدأت تظهر عليها. أرسل الشيخ في طلبها في هذا الصباح، واستقبلها في غرفة مكتبه. أقبلت عليه، وانحنت لتقبيل يده، ورفعت رأسها تنظر إلى عينيه الزرقاوين، فنظر إليها بقلق، وأخذ رأسها وقبَّله كعادته معها، وسألها:

ـ فيكِ إيه يا «نور»؟

روح: هوَّ إنت ليه يا سيدي بتقولِّي «نور» مش روح؟!

الشيخ بهاء: وهيَّ الروح إيه غير منه.. من النور؟

روح: يعني تفتكر يا سيدي أنا منه بجد؟ مش بيتهيألي؟

الشيخ بهاء: إنتِ منه.

روح: يعني هوَّ بيحبني زي ما باحبه؟

الشيخ بهاء: يووووه! أكتر ما إنتِ بتحبيه!

روح: بجد يا سيدي؟

الشيخ بهاء: هوَّ مش قال «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ»؟ الحب منه هو الأول. هو ابتدى بالحب.

كانت شاردة في حديث الشيخ إلى أن سألها:

ـ إنتِ رُحتِ لشمس يا «نور»؟

انزعجت روح، وعبست، وردت سريعًا:

ـ مين؟

الشيخ بهاء: سيدك شمس التبريزي.

روح: لا.

الشيخ بهاء: طب روحيله.

روح: أنا باروح لمولانا الرومي.
الشيخ بهاء: الرومي مين؟
روح: مولانا جلال الدين الرومي!
الشيخ بهاء: ما أنا عارف إنه مولانا جلال الدين الرومي! أنا قصدي ما دام ما رُحتيش لشمس يبقى بتروحي للرومي مين؟ شمس والرومي واحد، مفيش حد يروح لواحد فيهم وما يروحش للتاني!
روح: بس أنا زعلانة من شمس يا سيدي.
ضحك الشيخ بهاء من روح وقال:
ـ وليه بقى يا ستي زعلانة من شمس؟
روح بجدية:
ـ طبعًا زعلانة، علشان هو مشي وساب مولانا الرومي، ووجعله قلبه وعذّبه! كان ليه من الأول جاله لما هوَّ عارف إنه هيسيبه ويمشي؟! ليه يوجع قلبه؟! كان ما جاش من الأول!
الشيخ بهاء: هوَّ في حد فينا له يد في حاجة؟ هوَّ إنتِ اللي جيتِ هنا ولَّا ربنا اللي بعتك؟
روح: ربنا طبعًا.
الشيخ بهاء: وشمس راح للرومي لوحده ولَّا ربنا اللي بعته؟
روح: أكيد ربنا اللي بعته.
الشيخ بهاء: ومشي برضو لما ربنا قاله يمشي. محدش حب الرومي أد شمس. بس حب عن حب يفرق، فيه حب خالص لله، وفيه حب تملك. شمس مشي لما الرومي بقى جاهز إنه يستقبل أنواره ويستوعبها في قلبه، علشان ينور هوَّ لكل التلاميذ اللي اتعلموا على إيديه واللي لسه بيتعلموا لغاية دلوقتِ. شمس جه علشان يجهز الرومي يبقى شمس من شموس النور للبشرية، ينور قلوب الناس بالحب، زي بالظبط ما بتجيبي بذرة شجرة وتزرعيها. تزرعيها وترويها وتسيبيها تطرح، ولَّا بتفضلي واقفة جنبها طول الوقت؟
روح: بازرعها وبامشي.
الشيخ بهاء: أهو سيدك شمس زرع، وساب الرومي يطرح.
روح: بس أنا حاسة إن هوَّ كمان زعلان مني! مش همَّ بيقولوا «مفيش زيارة لولي إلا بإذنه»؟ يبقى هوَّ مش عاوزني!
الشيخ بهاء: وأنا باقولك روحي لسيدك شمس يا «نور».
نظرت روح إلى الشيخ بهاء، وابتسمت وكأنها تقول له إنها فهمت أن كلامه هو الإذن. لقد أذن لها شمس بالزيارة.
نهضت سريعًا وقالت وهي كلها حماس:
ـ طيب، أنا هاقرالك الفاتحة عند شمس، وهاسلملك عليه. عايزني أقوله حاجة تانية؟
ضحك الشيخ بهاء من روح وقال:
ـ يعني خلاص سامحتِ شمس؟
روح: العفو. ده أنا اللي غلطت في الأكابر وربنا يسامحني!

*

دبت الروح في روح مرَّة أخرى، وأسرعت إلى مسجد شمس الدين التبريزي، وروحها تسبق خطواتها. وصلت إلى ذلك المسجد الصغير الذي يقع في شارع جانبي. كان المسجد بسيطًا، ولا

تحيط به جدران عالية ولا بوابات حديدية ولا حراسة ولا ساحة كبيرة كما هي الحال عند متحف الرومي، فقط حديقة صغيرة تحيط بالمسجد، ونافورة مياه بسيطة بها بضعة صنابير يتوضأ منها المصلون ويشرب منها المارة والزائرون. اغترفت روح من أحد الصنابير العتيقة رشفة بيديها، وأحست أن لهذه المياه طعمًا مختلفًا، ربما كان طعم اللبن الصافي مع أنها مياه عادية. تذوقتها، وابتسمت، ثم استزادت منها رشفات ورشفات إلى أن شعرت أنها ارتوت منها ومن طعمها المختلف.

شعرت بالأسى لشمس للمرَّة الأولى وهي تنظر إلى مسجده المقام على البئر التي قُتل فيها غدرًا من المجتمع الظالم الذي يُعيّن نفسه قاضيًا وجلادًا ويُصدر الأحكام بلا رحمة وينفذها بعنف. حتى وهما في العالم الآخر حال المجتمع والناس بينهما، ولم يجمعوا مقاميهما في مكان واحد. الفراق قدرهما حتى وهما منتقلان، ولكن بالتأكيد هما مجتمعان بأمر الرحمن الرحيم في مكان آخر بقوانين مختلفة.

ارتدت شالها الأخضر، وخلعت حذاءها على باب المسجد ودخلت. وقفت في رهبة تنظر إلى المقام ضخم الحجم، بغطائه الأخضر الكبير يفترش الأرض. إن إحساسها في القرب من شمس يختلف تمامًا عن إحساسها في القرب من الرومي. الرومي هو الحب والسلام والراحة، وشمس هو المُعلِّم والاحترام والوقار والهيبة، وهذه السمات هي ما شعرت به وهي تقف بجوار مقامه. اقتربت ببطء، وأحنت رأسها، ووجدت نفسها تجلس جلسة التشهد، وكأنها في حضرة مُعلِّمها وتجلس أمامه في أدب احترامًا وتبجيلًا له ولعلمه. انسالت الدموع

من عينيها غزيرةً، ولم تعبأ بالقليلين الموجودين في المسجد، ولم تشعر بهم. كانت في حال تفصلها تمامًا عما حولها، إلا عن شمس. كانت تخجل منه لأنها طوال هذه الفترة منذ جاءت إلى قونيا لم تزره مرَّة واحدة، بل تجرأت على التفكير فيه بشكل سلبي، واتهمته بتعذيب الرومي بالفراق عن عمد!

كان لقاءً مفعمًا بالمشاعر!

ظلت تبكي وتحدث شمس بقلبها. لا تدري كم من الوقت مر عليها، إلى أن شعرت أنها أزاحت الثقل الذي كان يجثم على صدرها، في هيئة دموع غزيرة ساخنة. كانت ممتنة لله جدًّا في هذه اللحظة. وشعرت أن عباءة من الطمأنينة أُسدلت عليها في هذا المكان، فأسكنت كل ما كانت تشعر به قبل أن تدخل إلى المسجد. شعرت برغبة في السجود لله شكرًا، وكانت كلما سجدت لله شكرًا استشعرت أنها تسجد في حضرته بالفعل، فلا تنهض من سجودها إلا مُقبِّلة محل السجود. بللت دموع الامتنان فرش المسجد، وانهالت عليه كلمات الشكر لله:

أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..

حبًّا فيمَن وطأوا بأقدامهم هذا المحلَّ وكانوا أهلًا للعُبور

أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..

أملًا في أن أكون ممن اصطفيتَ واستخلصتَ وأسميتهم المُخلَصين

أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..

وكيف لا أُقبِّل مِعراجًا يُدنيني ممن ألهمني أن أُقبِّل مِعراج الوصول؟

أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..

صَبرًا وطاعةً بأمر الاقتراب والسُّجود، وأزيد على السُّجود التقبيل
أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..
لَعلَّ الأعتابَ تَشفعُ لي وتَشهدُ أنها استلمت مِني مِرارًا تَقبيلًا وتَقبيلًا
أُقبِّل الأعتابَ حتى وإن لم يُسمح لي بالدُّخول..
عَساني يُسمح لي يومًا أن أدخل خادمةً لمن يُسمح لهم بالدُّخول
أُقبِّل الأعتابَ ولا أقول أملًا في الدُّخول..
فلا أستحق، ولا أنا كُفء للعُبور إلا بوَهبٍ من مَلك المُلوك
أُقبِّل الأعتابَ وأنتظرُ ولا أمل..
فقد صبرتُ على الخلق، فأستحي أن أستعجِلَ أمر الخالق القيوم
أُقبِّل الأعتابَ وأستنشقُ نسائمَ مَن مروا بها..
تُحيي قلبي وروحي وتُسكن شَوقي للعُبور
أُقبِّل الأعتابَ وقلبي يدعو..
يا رب هَب لي مُرورًا.. يا رب هَب لي مُرورًا

*

كان حارس المقام رجلًا في العقد السادس من العمر تقريبًا، الجدية كانت الصفة الغالبة عليه على الرغم من ابتسامته الهادئة التي لم تكن تتعارض مع هيبته، ولا تُشعر المصلين بأن هذا الرجل به شدة أو غلظة، بل على العكس، إنها تشعر الناظر إليه بالبسط والطمأنينة. كانت روح تراقبه، وتشعر أنه ليس حارس مقام أو مسؤول النظافة بالمسجد وحسب، بل له أهمية خاصة، وكان سكان قونيا الزائرون والمصلون يعرفونه ويوقرونه جدًّا. اقتربت منه. بدا بنيامين وكأنه يعرف كل الوجوه التي تواظب على الصلاة في المسجد حتى لو لم يعرف أسماءهم. كان ينظر إلى روح بجدية، ويراقبها وهي جالسة في المكان المخصص لصلاة الرجال والقريب من مقام شمس، ولا يعجبه أن تجلس سيدة في أماكن الرجال. انتظر طويلًا إلى أن تنتهي من زيارتها وتنصرف، أو حتى تصعد إلى الطابق العلوي المخصص للنساء، لكنها لم تفعل. كانت هي أيضًا تنظر إليه وهو يتحرك في أرجاء المسجد، ينظف، ويعيد ترتيب المصاحف، ويتمتم بتسبيحاته التي لا يسمعها سواه، وعيناه تنظران إلى شمس بين الحين والآخر، وتعلو وجهه ابتسامة حب واجلال.

تقدمت نحوه، وسألته برقة:

ـ هل تسمح لي بمساعدتك؟

أجابها ووجهه عابس:

ـ لا! هذا عملي، وأستطيع أن أقوم به على أكمل وجه!

ابتسمت روح وقالت له:

ـ بالطبع، لكنني أريد أن أنظف مسجد شمس معك من أجل المصلين، فهل تسمح لي بهذه المساعدة الصغيرة؟

أجابها بامتعاض:

ـ تستطيعين أن تنظفي المكتبات، وترتبي الكتب والمصاحف، ولكن لا تقتربي من مقام شمس! أنا فقط الذي أنظف المقام!

ابتسمت روح وقالت له:

ـ قبلت. أنت فقط الذي تنظف المقام.
كانت تنظف المسجد وهي تشعر بالسعادة والخفة. أنهت مهمتها كما اتفقت مع بنيامين، واحترمت الاتفاق، ولم تقترب من مقام شمس إلا بعد صلاة العشاء للسلام قبل الذهاب. سلمت أيضًا على بنيامين وانصرفت بعد يوم طويل تصالحت فيه مع شمس، وبدأت فيه علاقتها مع المُعلِّم الصاعقة.
كان لتصالحها مع شمس تأثير على شخصيتها، يشبه شمس الذي كان يستغرب عليه العامة جموحه، وجرأته، التي أعطاها منها ما جعلها تقوى على صد ضيف، ولا تلتفت إلى محاولاته المستمرة لغزوها. لم تعد ترد على اتصالاته الهاتفية، ولم تعد تُعير تلميحاته أي اهتمام. منذ هذا اليوم تغيَّر روتينها اليومي، وأصبحت تقضي يومها صباحًا بجوار الرومي، تقرأ في دفتر نور وتستشعر نورانيات العاشق المكبل، ثم تذهب لقضاء باقي اليوم عند شمس بالمسجد، للصلاة وقراءة القرآن ومساعدة بنيامين في التنظيف. لم تكن الأجواء بجوار شمس تسمح لروح إلا بالعلم والتعلُّم، ولم تكن ترسم الزائرين كما تفعل بجوار الرومي.
*
شعرت روح أن علاقتها بشمس أضفت على حياتها توازنًا ملحوظًا، وأصبحت ترفرف بجناحي العلم والروحانيات. إلى أن أتت هذه الليلة التي وصلت فيها إلى بيتها لتجد ضيف ينتظرها في سيارته أمام البيت. انزعجت عندما رأته، وشعرت بالقلق على هذا التوازن.
خرج ضيف من السيارة، ووقف أمامها:
ـ إنتِ فين يا روح؟! خضتيني عليكِ! لا بتردي على تلفون ولا رسايل! في إيه؟!
روح: مفيش حاجة. أنا كويسة.
ضيف: الحمد لله إني اتطمنت عليكِ. أُمَّال كنتِ فين لغاية دلوقتِ؟
روح باستنكار:
ـ أفندم؟!
ضيف: أنا آسف إني اقتحمت خصوصيتك، بس ربنا العالم بنيتي!
روح: ما حصلش حاجة يا ضيف! تحب نشرب شاي في الجنينة؟
ضيف: أكيد.
أحضرت روح الشاي والبقلاوة، وجلست مع ضيف في الحديقة.
روح: إنت رُحت قبل كده لشمس يا ضيف؟ أكيد رُحت.
ضيف: رُحت. أوقات كتيرة جدي بيحب يصلي هناك، باخده ونصلي سوا، وأستنى يخلص زيارته. هوَّ بيحب شمس أوي.
روح: وإنت؟
ضيف: أنا عادي، الأمور دي بالنسبة لي مش زيك إنتِ وجدي، يعني ممكن أقعد سنة لا أزور مولانا ولا شمس، وما باحسش إن فيه حاجة ناقصاني.
روح: معقول؟! سنة؟! ده أنا كنت اتجننت!
ضيف: أنا باقدر أستوعب إن الأمور دي بتختلف من شخص لشخص على حسب قلبه، وزي ما بيقولوا: «مفيش زيارة

لولي إلا بإذنه»، فيبدو إن أنا قلبي مش ولا بد، وعلشان كده مش بيتئذنلي بالزيارة كتير!

روح: إنت قلبك زي الفل. عارف إنت لو سبت قلبك هوَّ اللي يسوق؟ هتتبسط أوي. صدقني. شوف أنا مبسوطة إزاي. مبسوطة إيه؟! ده أنا طايرة! جرب إنت بس. مش عايز تطير زيي؟
ضيف: أنا نفسي أطير معاكِ، بس إنت اللي تقلانة عليَّ!
روح: وبعدين معاك يا ضيف؟ إحنا مش قفلنا الموضوع ده؟!
لم تكن من قبل بهذه المباشرة والقوة. شعرت أنها يجب أن تضع حدًّا لكل هذا الصراع. ربما يكون تأثير شمس عليها، أو ربما يكون قلبها قد حسم الأمر. لا مزيد من الغزوات أو المعارك. انتهت الحرب.
استطردت:
ـ أنا سبق ووضحت نفسي أكتر من مرَّة وإنت برضو مصمم! إذا كان ولا بد يبقى سامحني إني لازم أقولك إن فيه حد تاني في حياتي! وأنا متأكدة إن إنت ابن أصول، وهتحترم حقوق الشخص ده عليَّ والتزامي تجاهه! فأرجوك تحافظ على العلاقة بالشكل اللي يتناسب مع الحقيقة دي!
ضيف: حقيقة؟! حقيقة إيه؟! وفين الشخص ده اللي في حياتك؟!
روح: دي حاجة تخصني لوحدي!
ضيف: لا يا خانوه! أعتقد كان لازم تكوني أمينة مع الناس اللي اعتبروكِ بنت من بناتهم! ولَّا إنتو عندكم في مصر الأمور ما بتمشيش كده؟!
روح: هيَّ وصلت لكده يا ضيف؟! عمومًا، كتَّر خيرك يا ابن الأصول!
ضيف: سامحيني يا روح! أنا متلخبط ومش عارف مالي! أنا عمري ما كنت كده!
روح بحدة:
ـ أرجوك يا ضيف! من فضلك كفاية! باقولك فيه حد تاني في حياتي! أقولك إيه أكتر من كده؟!
ضيف: مين اللي في حياتك اللي بقالك سنة ما شفتيهوش وما قرَّبش منك؟! إنتِ بقالك سنة وسطنا، لا شُفنا معاكِ حد، ولا شُفناكِ رُحتِ مصر مرَّة واحدة! أنا مش مصدَّقك، ولا مصدَّق أصلًا إن فيه واحد يكون في علاقة مع واحدة ويسيبها كده إلا لو كان بيلعب بيها!
روح: دي قصة يطول شرحها. ما تظلمهوش. أوقات بتبقى فيه ظروف تمنع.
ضيف: أنا ما أعرفوش أصلًا علشان أظلمه. أنا غيرك يا روح. أنا باحكِّم عقلي. أي راجل بيحب بجد يقدر يلاقي مخرج لأي ظروف إلا في حالة واحدة: لو كان هوَّ نفسه بيتحجج بالظروف دي.
روح: إنت ما تعرفش حاجة!
ضيف: إنتِ اللي ما تعرفيش الحياة، عايشة على السحاب، ومستحلية قصة الحب اللي واهمة نفسك بيها، ومصدَّقاها! بس الأيام هتعدِّي وهتكتشفي إن كل ده كان وهم ضحكتِ بيه على روحك، وسجنتِ نفسك جواه، مفيش حد بيفضل عايش لوحده يا روح!
روح: مستحلية قصة الحب؟! هوَّ مين اللي يستحلى العذاب والألم اللي أنا فيه؟! حرام عليك يا ضيف! والله حرام!
ضيف: عذاب ليه؟! مش بتقولي حب ما يتوصفش؟! فين العذاب؟!
روح: العذاب إنك تبقى قصاد الميه وما تشربهاش! إنك يبقى منتهى أملك بصة في عينين اللي بتحبه، من غير ما تبقى قلقان، ولا حاسس إنك بتسرق حاجة مش من حقك، وخايف لا الناس تفهمك ولَّا يبان عليك! العذاب إنك يبقى منتهى أملك كلمة، كلمة تقولها مش حتى تسمعها، لكن

حتى القوالة مش قادر عليها! العذاب إنك تبقى ماشي شايل حاجة حلوة وجميلة وغالية جواك، وطول الوقت لازم تخبيها عن الناس، مع إنها ما تستخباش!
ضيف: كلامك ده بيتعارض مع شخصيتك وأفكارك! من إمتى كنتِ بتفكري في الناس وحكمهم عليكِ؟ مش إنتِ اللي كنتِ بتتكلمي دايمًا عن إن اللي يرضي ربنا مش مهم الناس توافق عليه؟ خايفة ليه من الناس؟!
روح: أنا مش خايفة من الناس على نفسي، أنا خايفة من الناس عليه، هوَّ أكبر بكتير من إن الناس تفهمه غلط، ولَّا تقول اسمه في جملة ما تتناسبش مع نوره والحاجة اللي ربنا اختاره ليها، حتى كلمة «باحبَّك» اللي محدش هيسمعها غيره أنا مانعة نفسي أقولهاله، مش علشاني، ده علشانه! هوَّ عندي أكبر من إني أحطه في حيرة، أو يشوف نفسه بيغلط، أو بيخون، أو حتى بيخيِّب ظن روحه فيه!
ضيف: أنا مش فاهم حاجة! فين الحيرة والخيانة؟!
روح: ما هو أنا لو قلتله باحبَّك هيبقى قصاده حل من اتنين: إما إنه يقولي باحبِّك، وساعتها هيحس بالخيانة. وإما إنه يسكت وما يردش، وساعتها هيحس إنه خيّب ظني فيه، مع إني عمري ما هيخيب ظني فيه، ومجرد الثواني اللي هيفكر فيها يرد يقولِّي إيه، دي حيرة كبيرة، ما يهونش عليَّ أحطه فيها!
ضيف: اسمعي يا روح، بالنسبة لي، اللي إنتِ بتقوليه ده مرض!
شعرت روح بالضيق من وصف ضيف:
ـ مرض؟!
ضيف: أيوه مرض. أنا عارف إن وضعي حسَّاس بالنسبة لك، وممكن تفتكري إني باقولك كده بسبب مشاعري ناحيتك، علشان كده أنا هاقترح عليكِ تتكلمي مع حد متخصص، وصدقيني إنتِ ممكن في وقت قصير تتخطي المشاعر دي. إنتِ بس محتاجة حد يفسرلك حقيقة تعلُّقك بالشخص ده، ويشرحلك كم الإيثار الغريب اللي بتعذبي روحك بيه ده جاي منين. الحكاية واضحة، ببساطة إنتِ خرجتِ من «كمفرت زون» قديمة ما كانتش عاجباكِ لـ«كمفرت زون» جديدة اخترتيها بعناية، ومبسوطة فيها، ومش عايزة أي حاجة تقرب منها.
روح: أتكلِّم مع متخصص؟! اسمعني إنت كمان يا ضيف، ممكن جدًّا تكون شايف حكايتي وهم. تقبل أو ترفض دي حاجة بتاعتك! وأنا فعلًا مش مهتمة برأيك! أنا شاركتك أهم حاجة في حياتي علشان تعرف إن أنا مش بارفضك إنت شخصيًّا! لكن، لو هتدِّي لنفسك حق مش بتاعك فأنا مضطرة أحط حدود للعلاقة، وأعمل مسافة بينَّا، لأني معنديش استعداد أدافع عن حاجة مش محتاجة أدافع عنها! يا ترى مفهوم يا ضيف؟
ضيف: تمام. إنتِ حرة طبعًا. عمومًا، بيفضل وجودك في حياتي أهم عندي من أي شيء.
لم تُعلِّق روح، فقد وصلت إلى أقصى حدود الغضب من ضيف الذي فهم صمتها واستأذن وانصرف.

4

جاء تصريح حياة برغبتها في الإنجاب، وتأسيس أسرة، مواجهةً صادمة لنور، نظرًا إلى ما كان يغفله أو ربما يتغافل عنه حول ما وصلت إليه مشاعره تجاه حياة، ودرجة ارتباطه بها، والحرص عليها. فتحت هذه المواجهة في رأس نور بابًا جديدًا لسيل من الأسئلة والأفكار حول عواقب هذا القرار على حياته: «هل يصارح حياة بأنه لم يعد يستطيع الاستمرار في العيش معها، أم يصبر لعل الله يُحدث أمرًا؟».

أصبح أمام مفترق طرق، ولا يعرف أي طريق يختاره ويمشي فيه. صراع. بدأ هذا الصراع يؤثر سلبًا على قراءاته وكتاباته وأوقات الخلوة التي كان يستمتع بها للتفكر. كل الأوقات لم تعد إلا جهادًا لطرد التفكير في روح والتفكير في أي حل لهذه المعاناة.

كانت الأسئلة التي يسألها لنفسه ولا يجد إجابة لها هي: «ماذا يريد الله مني؟ بالطبع لا يريد عذابي. ما حكمته من هذا التكليف الثقيل؟ أترك حياة التي تربطني بها مشاعر مودة عميقة، ومواقف عديدة ساندتني فيها، حتى أكون ما أنا عليه الآن، وأذهب إلى روح التي أختنق في بُعدها، أم أظل في حياتي كما أنا، وأتعذب وتتعذب هي، ويمضي بنا العمر في انتظار رحمة الله؟ ما الحكمة من فَقْد قدرتي على اتخاذ قرار؟ هل الصبر درسي، أم التسليم، أم أن هناك درسًا آخر لم أفطن إليه بعد؟».

لم يعد تأثير هذه الأفكار مقصورًا على تركيزه فقط، بل بدأ جسده يتأثر أيضًا كما تأثر جسدها: ظهر عليه الشحوب، وأصاب جسده الهزال، وانطفأ بريق عينيه، تمامًا كما انطفأ بريق عينيها، وعرفت الآلام طريقها إلى ذلك الجسد الذي كان يتسم بالقوة والصحة. أعلن جسد نور أنه ما عاد يقوى على تحمل ما يحمل، وكأنه يهزه بقوة، ويقول له كما قال الرومي: «هذه الآلام التي تشعر بها، إنما هي رُسل، فاستمع إليها».

في الوقت الذي كان يستمع إلى آلامه كانت حبيبته تستمع إلى إشاراتها، وتحاول أن تترجمها، وتفهم الرسائل التي يجب أن تفهمها منها. لكنها كانت مثله، مشوشة الذهن، ولم تستطع الوصول إلى إجابات، ولم تعد تشعر برغبة في الحياة، وأصبحت تهرب بالنوم كما يهرب الخائفون احتماءً من أي تهديد. النوم والأحلام والتواصل الروحي مع نور، هي فقط ما ترغب فيه في هذه الفترة من الحياة، فكل شيء فقد طعمه، وأصبح ثقيلًا، ولم تعد تقوى على حمل المزيد من الأحمال.

هكذا كانت تفكر وهي تجلس تحتسي الشاي في ذلك المقهى القريب من متحف الرومي، الذي يختار بعناية مقطوعات موسيقية وأغنيات إيرانية وفرنسية وإنجليزية مميزة، فتتوه فيها وتتجرد من أي أفكار. كانت تحاول أن تهرب لنور، وتختبئ معه في عالمهما. وبالفعل سكنت الأفكار المتشابكة في رأسها، وهربت إليه على أنغام إحدى الأغنيات الإيرانية التي لم تكن تفهم معانيها، لكنها كانت تسري في وجدانها بسحر وجمال. كانت طبول الموسيقى تدفعها إلى التحليق بعيدًا عن الزمن، وصارت كلمات الأغنية جيوشًا تدب بخطى ثابتة قوية تسوقها إلى مكان بعينه يبعد عن هذا المكان. لم تكن تسيطر على نفسها، فالجيوش كانت أقوى منها، والطبول شديدة القرع على وجدانها. شعرت بكلمات نور أجمل من أنغام الموسيقى وأقوى من الطبول.

قالت: أفتني، فأنت أهل للفتوى.

قال: اسألي.

قالت: أيهرب الناس من الجمال؟
قال: ربما ليس هروبًا.
قالت: ماذا إذن؟
قال: تحيُّن دخول الوقت.
قالت: وكيف ذلك؟!
قال: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».
قالت: تلك الصلاة؟
قال: وكل جمال هو صلاة، وكل صلاة لها ميقات.
قالت: وكيف أُدرك الميقات؟
قال: لكل صلاة أذان.
قالت: وما الأذان؟
قال: هو الإذن.
قالت: ومتى هو إذن؟
قال: عند عالم الساعة.
قالت: أتهرب أنت أيضًا من الجمال؟
قال: بل أتحيَّن وقت الصلاة، وأُجدد وضوئي كلما شككت أن حبك فتر.
قالت: ظننتك لا تتشكك! وأعلم أن قلبك دائم الطهارة والوضوء!
قال: بل لقاؤنا هو انتقال من الحياة إلى الخلود، فكيف ألقاكِ بوضوء الدنيا والله قال: «وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ »؟
قالت: إذن كتب علينا الفراق؟
قال: «إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».
قالت: أحقًّا سنلتقي؟
قال: «مَرَجَ البَحرَينِ يَلتقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ».
قالت: أفتني رحمة.. أحقًّا سنلتقي؟
قال: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ».

*

رن جرس هاتفها ليعيدها إلى الحياة الدنيا، وينهي تواصلها مع أصلها.
كان المتصل براء، فردت سريعًا كما لو كانت وجدت أخيرًا طوق النجاة.
روح: حمد الله على سلامة أحلى عريس.
براء: بقيتِ بكاشة يا روح!
ضحكت روح وقالت:
ـ ليه بس؟
براء: إنتِ مش عارفة إن إحنا راجعين النهارده؟ فينك يا ستنا؟ أنا وعالية عندنا حكايات أد كده، وجينا ما لقيناكيش!
روح: معلش حقك عليَّ. إنتو فين دلوقتِ؟
براء: إحنا عندهم في البيت، تعالي يلا علشان نتغدى سوا.

روح: حاضر يا حبيبي جايالكم.
وصل براء في الوقت المناسب بعد أن هزت روح تصريحات ضيف حول قصة حبها، وعادت مرَّة أخرى إلى الشك وغياب الاتزان.
كانت تجلس على طاولة الطعام وعلى وجهها ابتسامة جامدة، ولا تشترك في الحديث، بل ربما لا تسمعه كذلك. وكلما تعالت ضحكات الحاضرين تنبهت وضحكت معهم، ثم عادت كما كانت. لاحظ براء تبدُّل حالها الواضح. ولاحظ ضيف شرودها أيضًا، وشعر شيء ما بداخله بالزهو، وظن أنه أخيرًا بدأ يهز موقفها من الحبيب المجهول، وأنه نجح بالفعل في أن يجعلها تعيد حساباتها العاطفية، وأن الظروف أوشكت أن تتهيأ له، وينقض عليها كما ينقض الصياد على الفريسة. أما الشيخ بهاء فكان يراقب الجالسين جميعًا في صمت، حتى أنهى طعامه وغادر الطاولة من دون أن يقول كلمة واحدة، فقط نظر إلى ضيف ومضى إلى غرفة مكتبه. فهم ضيف النظرة، وتصرَّف بناءً على ما يعلم أن جده يريده. بعد الطعام والقهوة والحلويات أخبر ضيف براء بأن جده يريده في غرفة المكتب، فاستأذن براء من السيد علي والسيدة قسمت وذهب إلى الشيخ بهاء.
الشيخ بهاء: تعالَ يا ابني.
براء: اؤمرني سيدي.
الشيخ بهاء: الأمر لله يا ابني، واحنا ننفذ ونقول سمعنا وأطعنا، وبس.
براء: أكيد سيدي.

الشيخ بهاء: إنت عارف إن بجوازك من عالية بقيت راجل من رجالة بندر، وبيتك بيت من بيوت العيلة، إحنا معندناش حد بيته بتاعه لوحده، يعني بيت علي هوَّ بيت العيلة في قونيا، وبيتك هيبقى بيت العيلة في القاهرة.
براء: على راسي يا سيدي، ده شرف والله.
الشيخ بهاء: ضيف عنده التعليمات يحولِّك ثمن البيت والفرش لما تلاقي البيت المناسب. مش محتاج أأكد عليك، بيت العيلة لازم يكون كبير ومناسب لاستقبال أي حد من العيلة في القاهرة.
براء: اعذرني يا سيدي مش هاقدر أوافق!
علت نبرة صوت الشيخ، وأشار بإصبعه لبراء قائلًا:
ـ أنا ما يتردليش أمر!
براء: بس...
الشيخ بهاء: أول ما تخلص موضوع البيت عايزك في أمر تاني.
براء: خير يا سيدنا.
الشيخ بهاء: عايزك تنقِّي من أشعار الأكابر كام قصيدة مديح على عشق الله ولرسوله، وتختار ملحنين أوادم يكونوا بيحسوا ويفهموا يلحنوها، بس تبدأ ببردة الإمام البصيري.
براء: حاضر يا سيدي، وبعد ما يلحنوها نعمل إيه؟
الشيخ بهاء: هتعمل إيه يعني؟ هتشوف إنتاجهم يتكلف كام وتتواصل مع ضيف، هوَّ برضو عنده كل التعليمات.
براء: أنا مش فاهم حضرتك!
الشيخ بهاء: عايز أسمع مديح بصوتك، وليَّ مزاج أسمع الناس كمان، أنا حر يا سيدي!

انحنى براء وقبَّل يد الشيخ السخي، وابتسم وعيناه تلمعان بدموع الفرح. لم يكن هناك ما يُقال، فكل الكلمات لم تكن تُوفي حق الشيخ الكريم الذي أغدق عليه العطاء.
ربت الشيخ على وجه براء وأمره بالانصراف.
خرج براء من غرفة المكتب وهو لا يستوعب؛ إن مجيء روح إلى قونيا لم يكن حتمًا لحكمة تخصها وحدها، بل كان له أيضًا حظ وافر من كرم هذه الأرض وأصحابها، وربما شعر في هذه اللحظة أن له النصيب الأكبر أو النصيب كله، وقد جاءت هي فقط لتكون سببًا في أن يتعرف على عالية وتتغير حياته تغيرًا لم يكن يخطر له على بال.
هرع براء إلى روح وعالية يخبرهما. ولم تستغرب روح كرم الشيخ بهاء، فهي تعلم كم هو سخي ومعطاء، وقدمت تهانيها إلى براء. أما عالية التي فرحت كثيرًا فقد ذهبت على الفور لتشكر جدها.
ووجد براء فرصة ليطمئن على روح ويسأل عن أحوالها:
براء: وحشتيني!
روح: إنت أكتر والله!
براء: مالك بقى يا ست الكل؟
روح: تصدَّق لو قلتلك مش عارفة؟
براء: أقولك أنا؟
روح: قول.
براء: إنتِ متلخبطة، إيه اللي ملخبطك كده؟
روح: مش عارفة يا براء، بجد مش عارفة! عارف لما تبقى حاسس بحاجة كأنها حقيقة شايفها بعينيك، بس عقلك بيقولك إنها مش حقيقة.. سراب.. تبقى مش عارف تكذب قلبك ولا قادر على زن عقلك؟ تعبت.. تعبت أوي يا براء!
براء: قلبك شايف إيه يا روح وعقلك مش شايفه؟
روح: وقفت على الأرض وشفت الطينة، حُفر كتيرة في الأرض خايفة أقع فيها، عايزة أمشي حافية ومش قادرة، عايزة أطير وأبعد عن كل ده برضو مش عارفة، زي ما تكون الطينة اللي في الأرض مغناطيس بيشد الطينة اللي فيَّ! محتاسة ومش عارفة أعمل إيه!
براء: كان ضروري تنزلي على الأرض يا روح، محدش بيفضل طاير! ربك طيَّرك بعد تجربة طارق ووفاة أهلك علشان ما كنتيش هتستحملي كل ده وإنتِ واقفة على الأرض، رجليكِ ما كانتش هتشيلك. بس خلاص يا حبيبتي، دلوقتِ لازم تقفي وتبصي وتشوفي وتعرفي تمشي بين الحفر، ولو رجليكِ اتوسخت من الطينة معناه إنك ما ينفعش تفضلي ماشية حافية، ولازم تحمِيها علشان تقدري تكملي مشي. الطيران عمره ما كان هو الحل!
روح: مش عايزة يا براء!
براء: يا ريت كان بكيفنا يا روح!
روح: أعمل إيه؟
براء: اتعكزي على حد.
روح: حد مين؟
براء: ضيف.
روح: ده هوَّ السبب في اللي أنا فيه!

براء: ضيف راجل عاقل وقوي وبيحبك، وإنتِ محتاجة لراجل بالمواصفات دي يسندك وياخدك في حضنه. كل اللخبطة اللي إنتِ فيها دي علشان إنتِ حاسة بمشاعره، ومصممة تفضلي قافلة على نفسك، وما تسمحيش لأي حاجة فيكِ تحس بيه. ليه مش بتدِّي لنفسك فرصة؟
روح: علشان أنا عايزة النور، عيني على القمر، إزاي ممكن أشوف النجوم؟
براء: والقمر والنجوم كلهم من النور! مش يمكن لازم تعدِّي على النجوم علشان توصلي للقمر؟ مش يمكن عينيكِ ما تتحملش جماله ونوره من غير تحضير؟
روح: مش عايزة يا براء! مفيش نور بيملا عينيَّ غير نوره!
براء: مش لازم يملا عينيكِ، ممكن يعجبك بس، ويكون ده كفاية دلوقتِ لغاية لما تبقي جاهزة للقمر ونوره.
روح: أنا مش بتاعت نفسي يا براء!
براء: ومين فينا بتاع نفسه؟ بس إنتِ حكمتِ على روحك ونسيتِ إنك ملك ربك مش ملك نفسك. وربك قال مش دلوقتِ زي ما إنتِ قلتيلي، فقلتِ حاضر. وبعدها ربك قال إنتِ لغيره لغاية لما أحقق كن فيكون، فعملتِ نفسك ما سمعتيش وعاندتِ، فتعبتِ واتعذبتِ، ولسه مصممة تكملي في التعب!
روح: طب وبعدين؟
براء: أنا اللي هاقولك! إنتِ قلتِ من زمان: «سلِّم روحك للي خالقها، تعيش زي ما هوَّ خالقها، مش زي ما الناس عايزاك». وأكمل عليكِ وأقولِّك «ومش زي ما إنتِ كمان عايزة». سيبي روحك يا روح!
روح: طب ساعدني.
براء: يا ريت كان بإيدي حاجة، أنا في ضهرك، بس إنتِ لازم تساعدي نفسك يا روح! جربي، هتخسري إيه؟ مش يمكن ترتاحي؟
روح: الكلام سهل!
براء: ادعي ربنا يقويكِ.
شعرت روح أن كلام براء مدد وضعه الله على لسانه لتسمعه من شخص قريب لقلبها، ويحدثها باللغة التي تفهمها، ولا تقاومه كما تفعل مع ضيف.
«تُرى هل من السهل الاستجابة إلى ما نصحها به؟ تُرى هل ستستطيع أن تفتح باب قلبها قليلًا، وتسمح لضيف بالدخول وهي تعلم في قرارة نفسها أن دخوله دخول عابر؟ هل من السهل أن تجعل نفسها تحب وتمنح نفسها لرجل آخر غير نور؟ هل لها سيطرة على قلبها؟».
شعرت بواردٍ في قلبها، وأدركت الدرجة الثانية من المعراج الذي بدأته بدرجة الحيرة والشك، والآن براء ينير لها الدرجة الثانية.

الدرجة الثانية

إذا أطلعك الله على خطته لك في رحلتك على الأرض، فاتبع بوصلته، وامشِ في اتجاهها، حتى وإن كنت ترى أن الطريق لن يوصلك.
فهو يختار لك الطريق الأنسب، على قدر تحمُّلك، وعلى قدر سعتك.

ربما لو سلكت الطريق الذي تراه بعينيك أنت، ما استطعت الوصول منه، وما تحمَّلت وعورته، وتعدُّد أوديته، وقسوة صحرائه.
«وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ».
*
وكأن الحيرة هي أداة الله في هذا الوقت ليربيهم، كلًّا على درسه. حياة أيضًا كانت حيرتها في تزايد، فعلى الرغم من ثقتها الشديدة بنفسها وبحب نور، فإن رد فعل نور تجاه تصريحها برغبتها في تأسيس أسرة جاء مخيبًا لظنها تمامًا. واجهت نفسها بأن نور لم يتلقَّ الخبر بسعادة، ولم يرحب بالفكرة، ومن هنا توالت الأسئلة: «هل يشعر نور بتحول مشاعري تجاهه لدرجة أنه لم يفرح بتحقيق حلم الأبوة الذي طالما تمناه؟ هل تعوَّد نور على بقائي بعيدًا وقرار الإنجاب سيجعلنا موجودين معًا، وهو قد اعتاد الحياة وحيدًا حرًّا، وتحولت الأبوة من وجهة نظره إلى قيد بعد أن كانت أملًا؟ هل زُهد نور وصل إلى درجة أنه زَهد فيَّ شخصيًّا، وأصبحت شيئًا هامشيًّا في حياته؟ هل زَهد أيضًا في أن يصبح أبًا؟ هل أصبحت أنا وكل ما يتعلق بعلاقتنا زينة للحياة الدنيا، وهو لم تعد له رغبة في هذه الزينة؟ أيٌّ من هذه الأسئلة هو تفسير لما أشعر به، أم أنها كلها مجتمعة؟».
لم يكن من بين الاحتمالات التي فكرت فيها أن تكون مشاعر نور قد تحولت ولم تعد كما كانت من قبل، لم يخطر ببالها أن يكون قلب نور وروحه مع سيدة أخرى.. مع روح.
*
كان نور أيضًا في جهاد مع نفسه، ولم يكن جهاده هينًا. وعلى الرغم من قدرته عادةً على حجب ما به عن الناس، فإنه كان يلحظ في أعين مريديه قلقًا عليه. وبدأت الأسئلة من بعضهم عن صحته وأحواله تتردد في مجالس العلم. كان يحاول قدر الإمكان أن يحافظ على درجة استيعابه لهم، ويجتهد لتظل البسمة الهادئة على وجهه، لكنه لم يُوفَّق في كثير من المرَّات.
كان نور يشعر برغبة شديدة في الحديث مع روح، وسماع صوتها، لكن يجب ألَّا ينصاع لنفسه ويتركها لكل ما تشتهي.
تذكَّر نور أن براء ربما يكون قد عاد من رحلة شهر العسل، وأنه إذا كان لا يستطيع أن يتصل بروح، فبالتأكيد يستطيع الاتصال ببراء، وفي أثناء المكالمة يمكنه أن يسأل عن روح، ويعرف أخبارها منه، لعل شوقه لها يهدأ قليلًا.
التقط الهاتف واتصل ببراء.
نور: أقول حمد الله على السلامة يا عريس، ولَّا لسه ما رجعتوش؟
براء: مولانا.. الله يسلمك. رجعنا من يومين، بس بيني وبينك ما كناش عايزين نرجع.
نور: ربنا يسعدكم يا حبيبي ويرضى عنكم ويرضيكم.
براء: ويسعدك يا نور. أخبارك إيه؟ وأخبار حياة إيه؟
نور: الحمد لله، حياة هنا في مصر، ولسه قاعدة شوية كمان. وحشتونا. جايين مصر إمتى؟
براء: لسه ما حددناش، بس ما اعتقدش هنطول، متهيألي أسبوعين بالكتير علشان عندي ارتباطات في مصر.
نور: تيجوا بالسلامة إن شاء الله. ها.. طمني.. أخبار روح إيه؟
براء: والله يا نور أنا قلقان شوية على روح!
نور: خير يا براء؟

براء: مش عارف يا نور! تحسها مطفيَّة ومش هيَّ!
حبس نور أنفاسه، وسأل بهدوء وحذر:
ـ اوصفلي حالها.
براء: أنا حاسس إنها تعبانة حتى أكتر ما هي حاسة. المرَّة اللي فاتت لما حكتلي عن حكايتها والراجل اللي بتحبه، ما قلقتش عليها، لأني حسيتها مبسوطة حتى وهيَّ بعيدة عنه، بس ضيف ما يعرفش الموضوع ده، وعمَّال يبجيلها من هنا وهنا، ومن غير ما يقصد خلَّاها تحس باحتياجها إنها تبقى مع الشخص اللي بتحبه، وهيَّ عارفة إنها مش هتقدر تبقى معاه، وفي الوقت نفسه مش قادرة تبقى مع غيره!
نور: طب إنت قلتلها إيه؟
براء: والله يا نور لقيت نفسي باقولها تجرَّب.
انزعج نور وقال:
ـ تجرَّب؟!
براء: أيوه يا نور، قلتلها تدِّي فرصة لضيف وما تقاومش، مش يمكن يكون ربنا بعته رحمة ليها؟
نور: رحمة إزاي يعني؟!
براء: طبعًا يا نور، إنت أصلك ما شفتهاش وهيَّ بتتكلم عن الشخص اللي بتحبه في خيالها ده! والله تخاف عليها! تخيَّل بقى لو فضلت عايشة كده، وبعد ما العمر يمر تكتشف إن كل ده كان وهم وخيال في خيال! طبعًا رحمة. ربنا بيخرجها من الوهم ده بحب بجد على الأرض، علشان تعيش زي الناس ويبقالها حياة!
نور: وهيَّ كان ردها إيه؟
براء: إنت عارفها، بتسمع وتتوه في الكلام، ولا بتقول آه ولا بتقول لأ!
نور: ربنا يعملَّها الصالح ويحميها!
براء: هوَّ إنت مش عاجبك ضيف ولَّا إيه يا نور؟
نور: أبدًا. الراجل محترم وبيحب روح. لكن أنا مش شايف روح معاه!
براء: فهمني طيب، أنا عملت حاجة غلط باللي قلته؟
نور: مفيش غلط ولا حاجة، إنت قلت اللي إنت حسيت بيه، وهيَّ كمان ربنا يهديها وتعمل اللي هتحس بيه. خير إن شاء الله!
براء: ادعيلها يا نور، وسلملي على حياة أوي.
نور: ربنا يشيل عنها ويهديها. إنت كمان سلم على روح وعالية والجميع.
لم يتصوَّر نور أن يأتي يوم يخشى فيه أن تذهب روح إلى رجل آخر، وهو صامت لا يتحرك. ربما يكون هذا أصعب امتحان مر به. لم تعد الصعوبة في الفراق والحرمان فحسب، بل الآن عرفت مشاعر التملك والغيرة طريقها إلى نور. نور الذي لم يفكر من قبل أن لديه حياة مستقرة وزوجة وعائلة، وروح وحيدة فقط تنتظر في صمت وهي تراه مع زوجة أخرى. لم يتحمل فكرة أن تتبدل الأدوار، ولن يتحمل أن يراها مع رجل آخر، لا ضيف ولا غيره. لكن الآن هناك شيء أهم.. روح.
«ربما يكون ارتباطنا الشديد جعلها تتأثر بما أمر به، وانتقل إليها بطريقة أو بأخرى! لا بد أنها تشعر بالثقل الذي أحمله، وحملته معي وهي ضعيفة لا تتحمل!».

هكذا حدث نور نفسه، وقد توضأ وصلى لله ركعتين بنية قضاء الحاجة، وجلس بعد الصلاة جلسة التشهد في خشوع، وتوجَّه بقلبه إلى الله، واستغرق في الدعاء له ولروح:

إلهي القوي القادر الذي لا يُعجزُه شيء

إلهي الرحيم الجابِر الذي لا يَعوقُ جَبرَه شيء

إلهي، إن العجز خَلقٌ من خَلقِك أشكوه إليك، وأُخاطبه بأمرِك، وأستعين بقوَّتك وقُدرتك عليه

إلهي، إن العجز أعياني وأسقمَني، وأعياها وأسقمَها

فأنزل بنا لُطفك الخَفي، ومُر العجز بالعجز عن التمكُّن منا

يا لطيف يا لطيف يا لطيف

أتوجَّه إليك بجاه نبي الرحمة أن تَرحمَ قلبينا، وأن تتفضَّل علينا باسمِك اللطيف رَحمةً بنا

أيها العجز المتأرجِحُ بين قِلة الحِيلة والخَوف مِن الخطأ

أيها العجز العاجز حتى عن التعبير عن نفسه بالعجز والضَّجَر

أيها العجز الصامت المكتوم مِثلَ بُركانٍ أوشك على أن ينفجِر

أيها العجز، رجاءً! فلتعجز عن الاستمرار في تَعجيزِك لنا، علَّني أرتاح من حِملك وآلام قَيدِك التي أدمت قلبينا

أيها العجز العنيد المُتشبث بأرواحنا، استعنتُ بالله عليك، فانصرف عنَّا سَمعًا وطاعةً لربك وربنا

أيها العجز، استمع إلى ربك ولا تعصِ أمرَه وتتكبَّر كإبليس الذي هوى بنفسه ويُريدُ أن يهوي بنا

أيها العجز رجاءً! ارحل بسلامٍ وعافنا

5

عند شمس التبريزي شعرت روح بكلمات نور في قلبها، وروحه تحوم حولها، وكأنه بالفعل هناك. كانت مسرورة جدًّا بإحساسها بحضوره بهذه القوة. وكان قلبها يخفق بشدة، وعيناها تلمعان، كأنها في لقاء حقيقي معه. وفجأة هدأت كل المشاعر والأحاسيس، وانتابتها حالة من السكينة، وشعرت بالرغبة في النعاس، وتثاءبت كثيرًا، وتسرب الثقل إلى رأسها والخمول إلى جسدها. نظرت إلى الساعة، واستغربت من شعورها بالنوم مبكرًا عن العادة. كان المسجد شبه خالٍ، وبنيامين يجلس في هدوء يسبح بمسبحته الخشبية. ذهبت إلى الركن البعيد في آخر المسجد في محاولة للاسترخاء إلى أن يأتي موعد أذان العشاء فتذهب إلى بيتها وتنام. غطت جسدها الضئيل بشالها الأخضر، ووضعت ذراعًا تحت رأسها، واحتضنت نفسها بالذراع الأخرى، وراحت في سبات عميق. لم يكن نومًا. كان شيئًا آخر لم تدرك ما هو. رأت شُعاعًا منيرًا وكانت تنظر من خلاله، كانت بالفعل مغمضة العينين لكنها ترى بوضوح كما لو أن عينيها مفتوحتان. إنها رؤيا مختلفة عما تراه العين، كأنها تنظر من خلال مجهر، وتعبر ببصرها نفقًا طويلًا منيرًا، فترى في آخره رجلًا، لم تكن ملامحه واضحة في البداية، فالصورة بدت ضبابية، ثم أخذ الضباب ينقشع شيئًا فشيئًا، إلى أن أصبحت الملامح واضحة تمامًا. إنه نور، لكنه ليس نور. إنه على هيئة نور. جسده وملابسه تعرفها جيدًا، لكن ملامحه ملامح شخص آخر. رجل جميل، لم ترَ جماله من قبل، عيناه سوداوان مكحلتان، ولحيته أنيقة، وابتسامته حانية مملوءة بالرفق والبسط والرحمة التي تكفي لإسعاد البشر كافة. لم يقل شيئًا، وإنما نظر إليها وابتسم في ثبات وجمال، ثم بالتدريج عاد المشهد ضبابيًّا، إلى أن اختفى، وعاد النفق المنير كما في البداية، ثم انسحبت روح، أو انسحب بصرها من ذلك المجهر، وأُغلق النفق.

استيقظت روح، وعادت إلى الحالة التي كانت عليها قبل أن تغمض عينيها. تحسست نفسها، وجلست في ذهول تحاول أن تستوعب ما حدث: «ماذا حدث؟ أين كنت؟ هل نمت بالفعل أم أنني أهذي من النعاس؟ من الذي رأيت؟ تُرى من يكون هذا الرجل الجميل؟». شعرت بالإجابة في قلبها، إنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. شعرت بسعادة غامرة. لقد زارها الحبيب، ونظر إليها نظرة رفق ورحمة! صدق الله العظيم، إنه حقًّا وصدقًا مرسل رحمة للعالمين. وقد شعرت بالرحمة تغمرها من مجرد نظرة. «ولكن لماذا جاء على هيئة نور؟ لماذا جاء في جسده وملابسه؟». إنها بشرى لنور أنه يحبه، وأن نور ذو قدر عالٍ.

شعرت أنها تريد أن تخبر كل الناس بما رأت، وتمضي في الشارع تحدث الغرباء عن جمال سيد الخلق وهيئته البديعة. اندفعت بقوة وجلست أمام بنيامين؛ فهو الشخص الوحيد الذي تعرفه. كانت تضحك أمامه، وهو ينظر إليها ويبتسم بهدوء. أرادت أن تخبره، لكنها شعرت أنها ترغب في أن تُقبّل رأسه، حتى إن لم يكن له دور أو فضل في تلك الرؤيا. قبَّلت رأسه، وتركته ضاحكًا بسبب ما اعتاده من تصرفاتها غير المألوفة، وسلوكها المختلف عن سيدات وبنات قونيا المتحفظات، أو حتى أي سيدات أخريات.

تذكَّرت حبيبها نور، وشعرت أنها تريد أن تخبره على الفور بهذه البشرى. أخرجت هاتفها المحمول لتتصل به، لكنها توقفت، وانسحبت الابتسامة من بين قسمات وجهها، وهدأت اندفاعة

الأطفال. تذكرت أنها لا تستطيع أن تحدثه. ماذا لو اندفع نور كما اندفعت هي على إثر جمال الرؤيا والبشرى؟ ماذا لو أخذهما الحديث بعد طول غياب وحرمان إلى ما لا تُحمد عقباه من الحيرة الكبرى؟ ماذا لو أفصح أحدهما للآخر عن حبه، ووجدا نفسيهما أمام حقيقة واضحة وسؤال لا إجابة له لديهما الآن؟ إنها بالطبع لا تريد أن تضع نور في هذا الموقف، ولا أن تخيره هذا الاختيار الصعب. لم تكن روح تعلم أنه واقع بالفعل في هذا الاختيار. الأسئلة نفسها التي لا إجابة لها: «هل حبي لروح أقوى، أم حبي لحياة؟ وإذا كان أقوى، فلماذا لا أستطيع أن أتخذ قراري وأترك حياة وأتزوج روح؟ وإذا كان حبي لحياة أقوى، فلماذا لا أستطيع أن أنسى روح وأمضي في حياتي من دون هذه المعاناة؟».

إنه الإذن الذي لم يأتِ بعد من الله، ليفك رموز هذا اللغز الذي أتعب الزوجين، الذكر والأنثى، نور وروح.

قامت روح شاردة من مجلسها بجوار بنيامين، لتذهب أمام شمس وتفكر فيما ستفعل.

جلست في هدوء مغمضة العينين، تسبح بقلبها، وتردد «لا حول ولا قوة إلا بالله»، وكل كيانها مُسلِّم بالمعنى. شعرت ببعض الكلمات في قلبها، فأخرجت هاتفها لتكتبها:

هذا الذي تعرفه النجوم والكواكب، وتشير إليه الشموس والأقمار كل ليلة وصباح.

هذا الذي يعرفه كسرى وقيصر، ويُلقب بـ«سيد السادات».

هذا الذي من سِحر عينيه يتعلَّم السحرة كيف يسحرون الألباب.

هذا الذي يعرفه العشاق، وتنحني له القلوب، كما تنحني الأجساد خلف الإمام في الصلاة.

هذا الذي تغض العاشقات الطرف عند ذكر اسمه تأدبًا، وفي عشقه دخلت سوق الجواري بكل رضاء.

هذا الذي يزن بِصمته الذهب والفضة ونفائس الأرض والسماوات.

هذا الذي أُرسل روحي إليه كل ليلة، تخبره كم أتعذب في حبه، فأسمعه يئن ويأبى الشكوى والكلام.

أزيده حبًّا، ويزيدني حبًّا، وما نزداد إلا عذابًا.

هذا الذي اصطنعه الله لقلبي، وأبدًا لن أمل في حبه، كما لا يمل الله من الغفران.

هذا الذي ألقى الله عليه محبةً منه، فكيف أقاوم محبة الرحمن؟

هذا الذي أسرى بقلبي إلى سدرة المنتهى، وأدخلني جنة العاشقين الأبرار.

هذا الذي فردوس عشقه الأعلى هو جهنم العظمى لكل من اقترب وذاق وحبسته عفته وغضه للقلب واللسان.

هذا الذي لقلبه بصمة لا تتكرر، بصمة الطُّهر، تلك هي بصمة الفرسان.

هذا الذي أحلم أن أشم رائحة عنقه، كما تحلم الطيور أن تهاجر وتطير فوق البحور والأنهار.

هذا الذي سأُقبِّل يده في أول لقاء، وأقول له «رجاءً! امنحني هذا الشرف، فأنت أهلٌ لعشقي، وأنا أهلٌ لرحمتك بعد كل هذا العذاب».

هذا الذي رأيت فيه محمدًا، ومحمد لا يتمثل به الشيطان.

فكيف لي أن أتذمر؟ وحاشاني أن أكون لمحمد من العاصين أو أفر من الاختبار.

بعد أن فرغت من الكتابة تذكرت شيخها الجيلاني الصغير في مراكش. رؤيا بهذه الأهمية يجب أن تسردها عليه. ولكن ماذا عن موقفه وهو شيخها وشيخ نور وشيخ حياة؟ رؤيا مثل هذه قد يُفهم منها

أن نور يحتل مكانة أكبر من مجرد خليفة لشيخها في القاهرة؛ يدلها على الطريق، وربما يعلم مشاعرها بالفعل حتى إن لم تتحدث معه عنها من قبل.
«تُرى ماذا سيظن بي؟ ما هذه الأفكار؟ إنها وساوس نفسي التي تخوفني لأظل حبيسة تلك الحيرة والكتمان. إنه شيخي، ويفهمني جيدًا، ويعلم أكثر مني أني ما سعيت إلى تلك المشاعر، وأن الله هو مودع الحب في القلوب. لكنني لا أستطيع أن أخبره الآن. سأتصل به حتمًا، وأخبره، لكن ليس الآن ولا اليوم، ربما بعد أيام عندما أستجمع شجاعتي فأسمع رده. أما الآن فماذا أفعل؟ هل أكتب الرؤيا حتى لا أنساها، أم أُخبر براء بها؟».
صمتت لحظة، ثم تذكرت الشيخ بهاء. «نعم، هو الشيخ بهاء الذي سيفهمني ويحتويني الآن. سأذهب إليه فورًا».
التقطت حقيبتها وشالها سريعًا، واتجهت إلى الشيخ بهاء، واستأذنت السيدة قسمت أن تخبره برغبتها في رؤيته.

*

في الغرفة كان الشيخ يقرأ عندما دخلت عليه روح. جلست أمامه صامتة، فرفع رأسه وقال لها:
ـ بيقولّك إيه سيدك أبو مدين الغوث يا ستي؟
ابتسمت وقالت:
ـ بيقول إيه؟
نظر بعيدًا ثم قرأ الأبيات برقة:
عِيدوا عليَّ الوصال عِيدوا
فإنَّ شَوقي لَكُم يَزيدُ
خُذوا فُؤادي وفَتِّشوه
وقَلِّبوه كما تُريدوا
فإن وَجدتُم به سُواكم

عليَّ زِيدوا البعاد زِيدوا
كانت روح تبتسم وتنظر إلى الشيخ في إعجاب، ثم قالت:
أو قرِّبوا الوَصلَ والتَّداني
فالقُربُ للعاشِقين عِيدُ
وكلُّ يومٍ أراكمُ فيه
فذاك عِندي يَومٌ سَعيدُ
وعقب الشيخ بهاء:
إنَّ الغَرام بِكُم يَزيدُ
يَفنى الزَّمانُ ولا يَبيدُ
ضحكت روح وقالت:
ـ الله! مدد والنبي مدد!
ضحك الشيخ معها، وقال:
ـ كتبتِ حاجة من قريب؟

ابتسمت وقالت:
ـ كتبت...
ثم راحت تتذكَّر ما كتبته في نور بعد الرؤيا، وهي تتحسس ملمس السجادة العتيقة، بحركات دائرية بإصبعها، متأملة جمال الألوان والنقوش.
الشيخ بهاء: حلوه السجادة، مش كده؟
روح: أوي يا سيدي!
الشيخ بهاء: إنتِ عارفة إني ممكن أسافر من بلد لبلد علشان أشتري سجادة معينة أعرف إنها بتتباع في مزاد أو حتى معروضة في معرض عادي؟ لازم أمسكها كويس، وأقلِّب فيها، وأتأكد إنها مغزولة مظبوط. السجادة الجميلة بتاخد وقت لغاية ما تكمل، حتى لو اللي بينسجها أمهر صانع، وبعدين تاخد سنين وسنين علشان تبقى عتيقة وقيمتها تزيد. هيَّ دي العادة في أي حاجة حلوة وغالية، لازم تاخد وقت طويل!
روح: سبحان الله! صحيح يا سيدي كلامكم مظبوط.
الشيخ بهاء: ده مش كلامي يا «نور»، ده كلام الأكابر اللي ربنا فتح عليهم وعلِّمهم علشان يعلِّمونا. مولانا الرومي قال في القمر: «إن العاشقين يعلمون أن القمر يلزمه الكثير من الوقت ليكتمل ويصبح بدرًا».
ابتسمت روح للشيخ برقة، وقالت:
ـ الله! أكيد.
الشيخ بهاء: يبقى اللي يصبر ينول كل الجمال، واللي يتعب في نصف الطريق ما يزهقش وييأس، لكن يريح باله ويسلِّمها لمولاه.
روح: وإن كان مسلِّمها بس تعب ومش قادر؟ يعمل إيه؟
الشيخ بهاء: يطلب من مولاه يقويه، ويستعين بيه وهوَّ هيقويه. قولي يا رب. مفيش حد يقول يا رب وربك ما يردش عليه.
روح: يا رب!
صمت الشيخ بهاء لحظات، ثم قال:
ـ إنتِ عارفة يا «نور» إن إحنا عندنا فروع لمحلاتنا في بلاد كتيرة، من ضمنها المغرب، بقالنا فترة بنعمل تجديدات في شوية فروع. عالية هيَّ اللي كانت بتقوم بالدور ده، لكن زي ما إنتِ عارفة، عالية خلاص بقت تبع جوزها ومش حرة نفسها. كنت عايز أطلب منك طلب، وعشمي ما تكسفنيش. إنتِ قلتيلي إنك كنتِ بتشتغلي في الديكور زمان، وكان عشمي تعمليلي المعروف ده، وتصمميلنا ديكورات جديدة لفرع المغرب. مش مطلوب منك متابعة أو إشراف أو أي مجهود، ضيف والناس بتوعنا في كازابلانكا هيتولوا كل الدوشة بعد كده.
شعرت روح بالسعادة في داخلها، ربما لأنها تحب السفر بوجه عام، أو ربما أحست أن هذه الرحلة جاءت في الوقت المناسب لتخرجها من دوائر التفكير التي عصفت بها في الفترة الأخيرة، أو ربما بسبب أمر لا تعلمه. لكنها فرحت.. فرحت جدًّا.
ردت سريعًا:
ـ أكيد يا سيدي، حضرتك تأمرني مش تطلب، دي حاجة أحب أعملها أوي!

الشيخ بهاء: ممكن بالمرَّة تزوري شيخك وإنتِ في المغرب. المسافة لمراكش من كازابلانكا مش كتيرة، تلات ساعات بالعربية تقريبًا.
اندفعت الطفلة في داخلها وقالت:
ـ أيوه صح. سبحان الله! ربنا بيرتِّب كل حاجة! أكيد الموضوع ده جه دلوقتِ علشان أنا لازم أشوف سيدي! صح. هيَّ كده ظبطت!
قامت وأمسكت برأس الشيخ العجوز تُقبّله، ثم قالت:
ـ أنا باحبَّك أوي! إنت عارف كده ولَّا لأ؟
ابتسم الشيخ بهاء، وأمسك يد روح، وقال:
ـ عارف يا «نور». أنا كمان باحبّك يا حبيبة سيدنا النبي!
ابتسمت روح ولم ترد على كلماته. كأنه كان معها عند شمس ورأى ما رأت!
مضت نحو باب المكتب مسرعة، ثم توقفت والتفتت إلى الشيخ بهاء، وقالت:
ـ حضرتك ما قلتليش إمتى السفر!
الشيخ بهاء: ضيف هيعرفك، إديله إنتِ بس باسبورك وهوَّ هيرتِّب كل حاجة.
روح: فورًا.
خرجت مسرعة تبحث عن ضيف، فعرفت من جلنار أنه في محل المجوهرات. أخرجت الباسبور من حقيبتها وأعطته إليها لتوصله إلى ضيف، ثم غادرت.
لم تُخبر الشيخ بهاء بما رأت، كما سبق وعزمت. جاءت لتخبره عن رؤيتها حتى يحين وقت إخبار شيخها، فأخبرها هو أنها سترى شيخها، وبالتأكيد ستروي له ما رأت، ولا حاجة إلى إخبار غيره حتى لو كان الشيخ بهاء نفسه!

*

وضعت رأسها على وسادتها، لكن النوم يأبى أن يزورها الليلة. أحداث اليوم كله تمر أمامها، وتُعيد نفسها كلما انتهت: شمس.. الرؤيا.. السفر إلى المغرب.. الرحمة المخفية في زيارة شيخها!
استشعرت لطف الله بها في هذا الوقت الصعب الذي كانت تمر به. وتذكَّرت حبيبها سيد الخلق عندما حمل في قلبه الحزن سَنةً على فراق حبيبته أم المؤمنين خديجة، فهيأ الله له الإسراء والمعراج إلى سدرة المنتهى رحمةً منه وجبرًا لقلبه.
استحضرت قلبها، وأغمضت عينيها، وتوجهت إلى الله بالصلاة على سيد الخلق، لتكون آخر كلماتها قبل أن تذهب بروحها في ملكوت الله:
اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد الحبيب
الذي حَمَلَ الحُزن في قلبه سَنةً
فأسرَيت به إلى حضرتك
وأنعَمت على قلبه بالسلام
وأعطيته ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب ملكٍ أو بشر
صلاة تُجلي بها أحزاننا، وتُنعم بها على قلوبنا بالسلام
وتُعطينا بها على قَدر قَدرِك، لا قَدرنا
يا كريم يا جواد يا سلام

6

بينما تتسارع الأحداث في قونيا، كانت القاهرة أيضًا تموج بأحداثها، فقد تلقَّى نور بعد عودته من قونيا دعوة من إحدى الجامعات في إسبانيا، لمناظرة مقسمة على ثلاثة لقاءات، يناقش فيها جوهر الإسلام بين التصوف والوهابية. كان يعكف على البحث والتحليل والقراءة في المراجع المختلفة من جهة، وعلى جلسات النقاش والعلم مع المشايخ والعلماء من جهة أخرى. حرص أيضًا على الالتقاء بالباحثين في علوم الطاقة وفيزياء الكم وعلوم الأرقام والطبيعة.
كان يأمل أن يكون لهذه المناظرة تأثير على إعادة رؤية الإسلام الحقيقي، بعيدًا عن تأثير الوهابية. ويتمنى أن يصحح نظرة الناس عن التصوف، ويزيل الفكر الخاطئ عن كونه شعوذة وجذبًا.
وعلى الرغم من كل هذا الجهد والعمل اللذين غرق فيهما نور، فإن حياة لم تكن تهتم إلا بالوصول إلى إجابة شافية للتساؤلات التي لا تزال تمور في رأسها وتُحيرها. فكرت في أن تُمارس بعض المناورات الماكرة لتتعرف على ما يحدث مع نور بالضبط.
حياة: إيه ده يا نور؟! إنت مش بتزهق من القفلة عليك ساعات والقراية والكتابة طول اليوم؟!
نور: ما إنتِ عارفة يا حياة إني ما بازهقش، ومش جديد عليكِ ولا عليَّ!
حياة: أيوه، بس أنا بازهق!
نور ساخرًا:
ـ برضو مش جديد عليكِ، وطول عمرك بتزهقي لما بتطوّلي القعدة في القاهرة!
حياة: يعني إنت ارتحت خلاص وإنت لوحدك واتعودت إن أنا مش موجودة، صح؟
نور: إحنا الاتنين اتعودنا على نظام حياتنا ومرتاحين فيه: قبل ما بتزهقي بتسافري المغرب، وقبل ما بتوحشيني باكون عندك.
حياة: واضح إنك مرتاح جدًّا، ومعندكش استعداد لأي تغيير!
نور: دا يتوقف على التغيير، لو كان مفيد يبقى أهلًا وسهلًا!
حياة: ولو كان علشان يصلَّح حاجة غلط يبقى إيه؟
نور: أنا مش شايف إن فيه غلط علشان أغيره!
حياة: أكيد. وإنت هتغلط؟! مش ممكن طبعًا!
نور: فيه إيه يا حياة؟!
حياة: فيه إنك نسيت إنك متجوز، وإني ليَّ حقوق عليك إنت مقصر فيها! قافل على نفسك بالساعات في المكتب ولا كأني هنا، وكل حاجة بقيت باعملها لوحدي!
نور: غريبة! مرَّة واحدة بقيت مقصر في حقك! مع إننا عشنا سنين كده، وكنتِ بنفسك بتقولي في كل مناسبة، ولكل الناس، أد إيه إنتِ مبسوطة! إنتِ عارفة كويس إني مش هاقبل أقصَّر في دوري اللي ربنا اختارني له، علشان شوية مجاملات علاقتنا مش هتتأثر بيها، وأصلًا عمرك ما كنتِ بتستنيني علشان تتبسطي! عندك أصحابك ومعارفك وحاجات كتيرة عمري ما كنت باشاركك فيها! فيه إيه يا حياة؟! قولي على طول عايزة إيه!
حياة: مش عايزة حاجة يا نور خلاص!

نور: لا مش خلاص! مش بكيفك تبتدي مناقشة ملهاش لازمة وبكيفك عايزة تنهيها! أنا آسف! أنا كمان مش هاقدر أكون زي ما عوّدتك.. متفهم ومستوعب دايمًا.. أنا كمان من حقي أتغير!
حياة: هوَّ ده بالظبط اللي أنا حاساه ومش مخليني عارفة أركز في يوجا ولا قراءة، ولا حتى أحس إني قادرة أكون وسط أصحابي! أنا إحساسي بيأكدلي إن فيه حاجة فيك متغيرة! إيه اللي اتغير يا نور؟
نور: طبعًا لازم أكون متوتر، إنتِ مش عارفة أهمية المناظرة دي بالنسبة لي إيه؟
حياة: أنا فاهمة طبعًا إن دي حاجة كبيرة ومهمة بالنسبة لمستقبلك.
قاطعها نور:
ـ لا. الموضوع مش أنا ولا مستقبلي، اللي بالمناسبة كان اسمه مستقبلنا. الموضوع ربنا، ربنا اللي بعتلي حاجة مهمة لغاية عندي، ومش المفروض أبدًا أهمل في التحضير لها، أو ما أبذلش كل اللي أقدر عليه، علشان لما يسألني عملت إيه يا نور لما وقفت تتكلم عن الإسلام، أقوله عملت اللي قدرت عليه وما توفيقي إلا بك.
حياة: ولما يسألك عني، هتقول إيه يا نور؟
نور: هاقول اتقيته فيكِ قدر ما استطعت. وهوَّ العالم باللي فيَّ يا حياة!
حياة: عندك حق. إنت لك دور لازم ما تقصرش فيه، وفعلًا إنت بتتقي ربنا فيَّ، لكن سؤالي لك يا دكتور نور سيف الدين، واعتبرني قاعدة قصادك في ندوة وباوجهلك السؤال ده: لو كان سيدنا النبي في مكانك كان عمل إيه؟
نور: صلى الله عليه وسلم، كان عنده اللي أهم من اللي باعمله أنا النهارده، كان عنده الدعوة وحمل الأمانة، زوجاته أمهات المؤمنين كانوا بيدعموه، وكانوا فاهمين ومقدرين يعني إيه زوجة نبي له رسالة! يا ترى إجابتي واضحة ولَّا لسه محتاجة توضيح؟
حياة: واضحة. واللي ما يقدرش يتحمل يا دكتور؟
نور: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ».
نظرت حياة إلى نور نظرة استغراب من ثباته أمام تذمرها بسبب انشغاله عنها، وختمه للنقاش بالجملة التي صرح فيها بوضوح باستعداده للحياة بدونها والاستغناء عنها للمرَّة الأولى.
لم تكن مناورة ذكية من حياة أن تقترب في هذا الوقت الحرج. دخلت إلى غرفة المكتب بشكوك حول ردة فعل نور تجاه قرارها بتأسيس أسرة، وخرجت بشعور جديد لم تختبره من قبل؛ شعور باستعداد نور للتفريط فيها والحياة بدونها بمنتهى البساطة. ومع استغراب حياة، لم يستغرب نور ردة فعله وطريقته في النقاش هذه المرَّة، فهو مشغول بشيء أكبر وأهم من حياة.. ومن روح.. مشغول بالله!

*

انهمك نور يستعد للمناظرة، وجلست حياة تراقب حاله، وتتمنى أن يكون التغيير الذي شعرت به بالفعل، هو نتيجة لانشغاله وتحضيره.
وفي قونيا، كانت روح تتأهب وتستعد لحدثين مهمين: الأول، هو تجربة العمل بعد فترة طويلة من التوقف. والثاني والأهم، هو لقاء شيخها في مراكش.
لم تكن حال ضيف تختلف عنهم. جعله خبر سفر روح، الذي فهم منه بوضوح أن جده اختلق هذه القصة ليرسلها إلى المغرب، يفكر في السبب الذي دفع جده إلى هذا التصرف، وكيف يمكنه أن

يستفيد من هذه الرحلة لصالحه.
في منزل عائلة بندر، وتحديدًا في الليلة التي سبقت السفر، تجمعت العائلة للعشاء الأخير قبل سفر براء وعالية إلى القاهرة، ومغادرة روح إلى كازابلانكا.
بعد العشاء، وقبل أن تغادر روح، أشار لها الشيخ بهاء بأن تتبعه إلى غرفة المكتب.
ظل الشيخ واقفًا بالقرب من الباب، كأنه يريد أن يعطي انطباعًا لروح بأن الحديث لن يطول، لكنه مهم وعاجل.
«اللهم صلِّ وسلِّم على صاحب الخُلق العظيم والقدر الفخيم، مَن أرسلته رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وألحقنا بخُلقه، وأدبنا بأدبه، وارحمنا برحمتك يا رحيم».
هكذا همس قبل أن يبدأ حديثه معها.
الشيخ بهاء: هتروحي على مراكش الأول ولَّا كازابلانكا؟
روح: لا سيدي، هاخلص شغل الأول، وبعدين هاروح مراكش في آخر الرحلة.
الشيخ بهاء: اسمعي يا بنتي...
شعرت روح بأهمية ما سيُقال، فانتبهت لحديث الشيخ:
ـ أنا راجل كبير صحيح، لكن قلبي لسه بيدق وبيحس، يمكن مش زي قلبك، لكن اللي أنا متأكد منه إنه بيحس مظبوط، وعمره ما خيّب معايا. لما تروحي لشيخك اتكلمي.. اتكلمي كتير. إنتِ محتاجة تطلعي اللي في قلبك لشيخك. أنا عارف إن اللي شايلاه في قلبك تقل عليكِ، والمشايخ يا بنتي ربنا بيرزقهم المدد على الأرض، زي الدكاترة لما نعيا نروحلهم. روحي لطبيبك، وطلعي اللي قافلة عليه، وخليه يدِّيكِ الدوا. الشفا من عند رب العالمين. لا أنا، ولا إنتِ، ولا حتى شيخك، نعرف إمتى الشفا، لكن شيخك أبوكِ، والأب دايمًا بيشيل عن ولاده.

طلعي اللي في قلبك علشان إنتِ تعبتِ ولازم حد يشيل. فهمتيني؟
روح: فهمتك يا سيدي. إنت كمان أبويا، وباحبَّك زي شيخي، وكلامي معاك بيريحني وبيشيل عن قلبي كتير!
الشيخ بهاء: أنا عبد فقير يا بنتي! أشيل إيه؟ ولَّا أشيل إزاي؟ هوَّ اللي بيبعت الكلام والمدد، وإحنا بس موصلاتية، ننقل ونوصل، لكن هوَّ اللي بيشيل!
انحنت روح وقبَّلت يد الشيخ بهاء، ودعت له بطول العمر والصحة، ثم استأذنت في الذهاب.
أوصلها ضيف إلى المطار صباحًا، وتولَّى كل التفاصيل الصغيرة التي لم تعتد على أن يتولاها أحد لها: إجراءات السفر، ونقل الحقائب، وتعبئة أوراق المغادرة. لم تعتد على أن تكون تحت رعاية وفي كنف أحد. كانت دائمًا هي المسؤولة عن نفسها: تدفع بعربة الحقائب، وتجيب عن الأسئلة، وتُنهي الإجراءات. جرَّبت روح إحساسًا مختلفًا في هذه الدقائق لم تُجرِّبه من قبل؛ إحساس أن يكون هناك رجل مسؤول عنها. يحدثها الجميع عن أن تفتح قلبها وتُجرِّب الارتباط مرَّة أخرى، وعن تكوين أسرة، لكن لم يحدثها أحد عن الحماية؛ رجل قوي يفتح ذراعيه لها، وترتمي في صدره، وتُغمض عينيها، وتُلقي بكل شيء بعيدًا. شعرت للمرَّة الأولى بأن هناك أمورًا تنقصها؛ تنقصها الحماية والطمأنينة البشرية.. ينقصها السكن!
انتابها الشرود في الطائرة، وفكرت في الحكمة من مجيئها إلى قونيا: هل جاءت لتقابل ضيف، وتختبر مشاعرها تجاه نور، وتكتشف إن كانت تلك المشاعر تعلُّقًا ووهمًا أم حبًّا بالفعل؟ أهذا وحده

السبب؟ هذه الأرض فعلت بها الكثير في سنة واحدة! أعطتها حبًّا وحنانًا واحتواءً! حتى وإن لم تُعطها حبًّا كحب نور، فحُب الشيخ بهاء واحتواؤه لها كانا ما تحتاج إليه في هذا الوقت بالفعل.
شيء ما بداخلها ردد هذه الآية: « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ».
ابتسمت، وحدثت نفسها بمعنى الآية، وقالت: «يبدو أن لي مشربًا ورزقًا في هذه الأرض!».
بهذه الترتيبات الربانية البديعة، والخطة الموضوعة بدقة، ومعنى الآية، وقفت روح على الدرجة الثالثة بثبات.

الدرجة الثالثة
ليس الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، إيمانًا لفظيًّا وقلبيًّا فحسب.
لكنك ما آمنتَ حق الإيمان قبل أن ترى تسخير الخلق لتنفيذ خطة الخالق.. القدر.
يجب أن يسجد عقلك، ويُقر بعجزه عن تفسير ترتيبات الخالق، وتسخيره لخلقه في ملكه.
«وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

أغمضت عينيها، وحاولت أن تتخيل نفسها مع ضيف؛ الرجل القوي المسؤول والمُحب أيضًا.
حاولت مرارًا، لكنها لم تره. لم ترَ سوى نور، حتى وهي تدفع نفسها إلى رؤية غيره. حاولت أن تهرب من وجهه المنير، وتتخيل ضيف، لكن لا حيلة لها، ولا شيء يستطيع أن يطغى على حضور نور بداخلها. لم تكف عن محاولة استدعاء وجه ضيف، وكلما استدعته طغى نور في أروقة الخيال.
راحت تبكي. هل كانت تبكي من شدة المحاولة والفشل في استدعاء ضيف، أم أنها بكت من قوة حضور نور؟ بكت حتى كلَّمته بقلبها، بمشاعر مختلطة بين العشق الذي يغمرها، وأحاسيس الغضب من عدم قدرتها على الفرار منه. كانت دموعها حارة، تتكلم نيابةً عنها، وتقول كل ما في قلبها:
في عَينيكَ أنظرُ وأنا أعلمُ أنني أعصي الإله بالنَّظر إليك
في عَينيكَ أبكي وأنا أرتكب ذَنبي الوحيد الذي لا أكفُّ عن العَودة إليه
في عَينيكَ أستغفر ربي، وأدعوه أن يَتوبَ عليَّ مِنكَ، ومِن شَوقي إلى عَينيك
في عَينيكَ أسأل الله لماذا جَعلكَ ذَنبًا، ولماذا أمرني بِحُب ذَنب
في عَينيكَ أنظر بقوة، ليعلم الله أنني ما تركتُك يا أحلى ذَنب إلا حبًّا في ربي وطاعة لتحريمِك عليَّ
في عَينيكَ أذوب، وأسأل ربي متى أنال من رحمتكَ التي وَسِعَت كل شيء؟ وتُحل لي ما حرَّمت؟
في عَينيكَ أعلم لماذا يُحبُّ شاربُ الخَمر الخَمر
في عَينيكَ أعلمُ لماذا يُصرُّ المذنبون على العَودة إلى الذَّنب
في عَينيكَ أعلم لماذا جعل ربي التوبة بلا عَددٍ ولا حَد
في عَينيكَ أعلم أن الله يتجلَّى بجَمالٍ على عِباده المُخلِصين في الأرض
في عَينيكَ أعلم كم أُحب الله، وكم يُحبُّك الله، وكم أحبَّني الله بالهداية إليك
في عَينيكَ أعبد الله، وأتوب إليه من كل شيء حتى النَّظر إلى عَينيك
في عَينيكَ تَدمعُ عيناي، ويدقُّ قلبي بقوة، وتسبحُ خلايا جسدي كاملة ناطقة «لا إله إلا هو.. خالق عَينيك»

في عَينيكَ أراكَ، وأرى نفسي واحدًا، وأراك تَستغفرُ الله مني وتعود إليَّ

7

من نافذة التاكسي رأت كازابلانكا للمرَّة الأولى. المدينة التي طالما قرأت عنها، وشاهدتها في أفلام السينما. بدا كل شيء مختلفًا عن قونيا وعن القاهرة: البنايات، والشوارع، وحتى أزياء المارة من الناس، كان الجلباب المغربي للرجل وللمرأة لا يزال يطغى على الملابس الحديثة في الشوارع، واللهجة المغربية ذات الوقع المحبب للعاملين في المطار وسائق التاكسي، والفندق وديكوراته المختلفة، وترحيب العاملين فيه. شعرت بالأصالة في كل من تعاملت معه، وكانت الأجواء كلها تُحرك بداخلها شغف الاكتشاف.

كان إحساسها بأن هذه الأرض تحمل شيخها، كافيًا لأن يدخلها في حالة روحانية عالية. شعرت أنها تحلق في سماء المغرب كلها، وليس في كازابلانكا فحسب.

صعدت إلى غرفتها ذات الشرفة الكبيرة المطلة على المحيط الأطلسي. وعلى الرغم من برودة طقس ديسمبر، فإن حماسها وشغفها بهذه المدينة الساحرة كانا أقوى من أي برودة. خرجت إلى الشرفة، ونظرت إلى الساحل الذي أيقظ ذكرياتها في مصر على شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وبتذكُّر مصر تذكَّرته؛ نور الذي ينطبق عليه قول المتنبي:

وكَيفَ أَذكُرهُ إذ لَستُ أَنساهُ

نور دائمًا هو أول من تستدعي في أي وقت وأي حال، فرحًا كان أم حزنًا. نور يأتي قبل أي شيء وبعد كل شيء ومع كل شيء. هو الأول والآخر من البشر الأحياء. كان الأول في كازابلانكا، كما كان الأول في قونيا، وكما كان الأول في القاهرة، وهو الآخر الآن. تمنت أن يكون معها، فيرى هذا الجمال، ويتنفس هواء المغرب البارد، لعله يطفئ نيران قلبيهما المشتعلة، ويكون عليهما بردًا وسلامًا.

لم يكن نور يحظى بتلك الرفاهية التي كانت روح تحظى بها. لم يكن يمتلك حرية استدعائها والاستغراق في استحضارها كلما شعر أنه يريد أن يكون معها. كان يخطف تلك الدقائق الناعمة التي يترك فيها الحرية لنفسه لتعانق روحه روح، وربما كانت تلك هي دقائق الحرية الوحيدة التي يحظى بها. أما أوقاته الأخرى فهو مكبل فيها بما يجب أن يفعل تبعًا لاختياراته التي اختارها، والتي يجب أن يقوم بواجباته تجاهها جميعًا على أكمل وجه، ومن بين هذه الاختيارات حياة بالتأكيد. حياة التي كانت تمشي على الأرض، فتحمل كبرياء الأنثى فوق أنفها، ولم تعتد أن تكون علاقتها بنور علاقة مزاجية متقلبة، فنور لم يكن قَطُّ شخصًا متقلب المزاج، بل كان دومًا هو الشخص المحتوي في العلاقة، والمتفهِّم لطبيعتها المتقلبة. أما الآن وقد تبدلت الأحوال، وتبدلت الأدوار، فوجب عليها أن تقوم بما اعتاد نور أن يفعله. فهل ستستطيع؟

*

دخل نور إلى المنزل، وتوجَّه إلى حياة ليُسلِّم عليها ويُقبِّل رأسها كما اعتاد أن يفعل. شعر برد فعلها غير المتحمس لقُبلته، ولمح جمودًا في ملامحها، لكنه تجاهل الأمر، وجلس يتحدث عن يومه وأخباره.

لم تكن حياة مهتمة أو منصتة، فقاطعته قائلة:

ـ المهم، قررت تسافر إمتى؟

نور: بافكر أحجز الأسبوع الجاي يوم الخميس، باقول فرصة ناخد الويك إند هناك، نتفسح قبل ما أبتدي مواعيدي يوم الاتنين. إيه رأيك؟
حياة: زي ما تحب، لكن أنا ما تعملش حسابي في السفرية دي!
نور: إزاي يعني؟! هوَّ إنتِ مش مسافرة معايا؟!
حياة: لأ!
نور: ليه؟! حصل حاجة ولَّا إيه؟!
حياة: هوَّ ضروري يكون حصل حاجة! مليش مزاج أسافر.. عادي.
نور: عادي! لا مش عادي. أولًا المناظرة دي حاجة مهمة جدًّا بالنسبة لي، وكنت أحب إنك تبقي معايا، وكنت أعتقد إنك إنتِ كمان تحبي تبقي معايا!
حياة: أنا مش حاسة إني هاكون مرتاحة في الرحلة دي يا نور! إنت دايمًا مش محتاج حد جنبك، لا أنا ولا غيري!
نور: ليه بتقولي كده يا حياة؟ إنتِ عارفة وجودك بالنسبة لي مهم إزاي!
حياة: لا مش عارفة يا نور، وأعتقد إنك كمان اتعودت تبقى لوحدك، ووجودي مؤخرًا بقى مش بيريحك، فأحسنلك وأحسنلي نتعامل مع الحقيقة دي وتسافر لوحدك. صدقني إنت كده هتبقى مرتاح ومركِّز أكتر.
نور: إيه اللي بتقوليه ده يا حياة؟! هوَّ أنا زعلتك في حاجة؟!
حياة: أبدًا. أنا كويسة جدًّا، والدليل إن أنا كمان هاسافر.
نور: تسافري؟! تسافري إزاي يعني؟!
حياة: مش سفرية زي ما إنت فاكر، ده «ريتريت» مع راجل هندي باقراله كتير وبتعجبني أفكاره. كنت بافكر أطلعله كشمير، لكن هوَّ جاي سيوة، قلت فرصة حلوة علشان أنا كمان محتاجة شوية هدوء.
نور: طيب ما تيجي معايا، وخدي يومين خلوة زي ما إنتِ عايزة، إنتِ بتحبي برشلونة.
حياة: لا يا نور، أنا عايزة أطلع «الريتريت» ده، من فضلك خلِّيني على راحتي!
التقط نور الريموت كنترول باحثًا في التلفزيون عن أي شيء يلطف أجواء الجلسة، منهيًا الحديث الذي أعلنت فيه حياة بوضوح أنها ستتعامل مع التغيير الذي طرأ على علاقتهما بالطريقة التي تتناسب مع طبيعتها، وليس بالطريقة التي طالما تعامل نور بها في الفترة السابقة. حياة تواجه، وتأخذ موقفًا. أما هو فيدور في دوامات الحدث، متأرجحًا بين التسليم والاستسلام للقدر، متجنبًا مواجهته، آملًا أن تقف الدوامات من تلقاء نفسها فيخرج هو ومن معه سالمين دون أي ضرر.

*

استيقظت روح لصلاة الفجر، وجلست في الشرفة تتأمل وتُسبِّح حتى شروق الشمس. كانت تحب الشروق أكثر من الغروب؛ فالشروق هو الأمل، والبداية المتجددة، أما الغروب فوداع ونهاية، حتى لو كانت النهاية كل يوم تمهيدًا لميلاد القمر. كانت ترى عِظم الخلق في تعاقب الليل والنهار، واحترام الشمس للقمر كل صباح ومساء. الشمس تنسحب كل يوم في أدب، كما لو كانت تقول للقمر «لا أستطيع أن أظهر في وجودك»، تنسحب ليظهر كله أو بعضه بدخول الليل، ثم تعاود الظهور عندما يسمح لها القمر في الصباح. قصة عشق وإيثار بين القمر والشمس. كم هي مطيعة تلك الشمس! حتى المحيط تحترمه، وتحترم قوانين الخالق، وتشرق بهدوء كما لو كانت تستأذن

المحيط، فلا تُقبل بقوة متحدية مياهه بنيران أشعتها، والمحيط لا يهددها بأن يُطفئ حرارتها بأمواجه. كلٌّ منهما يعرف قدره، ويدرك أنه مسخر فقط لتحقيق ما خُلق من أجله.
ألهمها هذا المشهد أن تفكر في حالها مع نور، والحكمة من عدم اجتماعهما حتى الآن. لقد خُلق نور من أجل مهمة، تمامًا كالقمر، لكنه لا يزال هلالًا يكتمل يومًا بعد يوم، ولا يزال هناك كثير من الجهد والعمل وتحصيل العلوم الشرعية واللدنية، ولا تزال المواهب تنتظره ليتلقاها ويستخدمها وينير الطريق إلى الله بها وبالعلم.
تساءلت روح: «هل الجهد كله علوم فقط، أم أن هناك مجاهدات يجب على نور أن يسلكها؟ هل وصل نور إلى التسليم حقًّا لله كما يبدو عليه، أم أن نفسه لا تزال تصارع روحه، ولم تتغلب روحه فتتولى القيادة بعد؟». ربما لو اجتمعا الآن لانشغل بحبها عن مهمته، وربما لم يصل إلى الزهد الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يكون مع حبيبته ولا ينشغل بها عن الله وعن مهمته على الأرض. إن الزهد والتسليم يجب أن يرسخا في قلب الولي، فلا يملكه شيء، حتى إن كان هذا الشيء هو روح.
فجأةً، وهي تتأمل المحيط والسحاب، لمحت القمر صباحًا في كبد السماء. دققت لتتحقق من أنها ترى القمر بالفعل ولا تتوهم. نعم، إنه هو، القمر بضوئه الخافت يتوارى بين السحب ولا يُرى بوضوح. ابتسمت له برقة، فهذه هي المرَّة الأولى التي ترى فيها القمر في هذا الموعد. كان القمر، كحبيبها، يقف بعيدًا في صمت، ويتأمل شروق الشمس. قبَّلت يدها، وأرسلت إليه قُبلة، وكلَّمته بصوت مسموع، كأنها ترسلها إلى نور وهو يستمع:
يومًا ما سألمس القمر بأناملي...
سألمسك عندما تُصبح بَدرًا تُنير في السماء ويرى الجميع ضوءك في الظلام...
يومًا ما سيكون يوم التمام بالفعل تمام ليس به حبة نُقصان...
هذا اليوم سوف يقترب فيه القمر من الشمس في حذرٍ ليُشهدها جماله بوضوح ويزيح الستار...
يومًا ما ستقف الشمس في خجل تتأمل جمال القمر بكل حُرية وأمان...
يومًا ما لن يخشى القمر الاحتراق بلهيب الشمس عندما يطفئه بَرد الاقتراب...

يومًا ما سيأمر الله ويدرك القمر الشمس ويجتمعان.
على الشمس أن تتمسك باليقين ما دام يقينًا، وعلى القمر أن يواصل الاجتهاد للكمال...
لن يجتمعا إلا عندما يكتمل بدر التمام.
تركت روح السماء والمحيط والشمس والقمر، وبدأت تستعد للنزول لتناول إفطارها الأول في المغرب.

*

رن هاتف الغرفة، فأسرعت روح لترد:
روح: ألو.
ضيف: صحِّيتك بدري؟
روح: صباح الخير يا ضيف.
ضيف: أنا قلت أسيبك ترتاحي إمبارح، وأتطمن عليكِ النهارده. يا رب تكون الرحلة كويسة.
روح: أيوه، الحمد لله.

ضيف: فيه حد هيتصل بيكي من طرفنا، أنا كلفته يكون معاكِ طول الوقت. هياخدك يفرجك على كازابلانكا، وهيبقى طبعًا معاه عربية تحت أمرك، وأي حاجة محتاجاها يا روح من فضلك تطلبيها منه.
روح: متشكرة يا ضيف، بس ملوش لازمة!
ضيف: هوَّ إيه يا روح اللي ملوش لازمة؟ الراجل ده بيشتغل معانا، ودي شغلته، يعني مش بيعملك حاجة مخصوص!
روح: من فضلك يا ضيف، خلِّيني على راحتي! صدقني، أنا هاكون مرتاحة أكتر وأنا باتحرك لوحدي!
ضيف: طيب ممكن لما يتصل بيكي تحتفظي بنمرته علشان لو غيرتِ رأيك أو احتجتِ حاجة؟ أرجوكِ!
روح: حاضر يا ضيف! في أي حاجة عاوزها من الشغل؟
ضيف: لا يا روح، مفيش حاجة، أنا باتطمن عليكِ.
روح: تسلم يا ضيف. أنا إن شاء الله هاروح بكرة المعرض وأبتدي شغل. سلِّم على كل اللي عندك، وعلى سيدي بهاء أوي!
ضيف: الله يسلمك، يوصل إن شاء الله.
كانت حازمة جدًّا مع ضيف، ووضعت حدًّا لأي استغلال للرحلة من اليوم الأول. الرسالة واضحة: «لا مزيد من الغزوات». استغربت نفسها قليلًا بسبب صدها لضيف، بعد أن كانت في الطائرة بالأمس تجبر نفسها على التفكير فيه، وتَصوُّر نفسها معه، لكنها كانت تدرك أن إحساسها بالحاجة إلى الحماية، وافتقادها الشديد لنور، لن يجعلاها تقبل ببديل لا يدق له قلبها، أيًّا كانت درجة الفقد والاحتياج. الأمر محسوم سابقًا، وصاحب قلبها لم يأذن لأحد بالدخول، إلا نور.
قررت أن تكف تمامًا عن التفكير في ضيف في هذه الرحلة، وأن تسمح لهذه الأرض الجديدة بأن تتخللها كما تخللتها قونيا، وتعود منها أقوى وأكثر اتزانًا. وبالفعل بدأ العرض.
*
خرجت في جولة سياحية. ذهبت إلى «باب مراكش»؛ المَعلَم الأثري الأهم في كازابلانكا. التقطت كثيرًا من الصور للباعة الجائلين، والمكان، والمناظر الطبيعية. تحركت بخفة بين المارة، وتحدثت مع الباعة بلطف، وجالستهم على البُسط الأرضية، فهي تعشق محادثة الأغراب. كان وجهها ينبض بالحياة، وعيناها تشعان ببريق وشغف اكتشاف ثقافة جديدة عليها. تجولت في المدينة القديمة وأسواقها، واشترت التوابل والعطور والأواني التي رُسمت عليها ألوان ونقوش مميزة. ذكَّرتها هذه الرسومات بأطباق حياة التي كانت تُقدِّم لهم الطعام فيها. كل شيء كان يُذكِّرها بحياة، وكأن القدر يريدها دائمًا أن ترى الصورة كاملة وواضحة. هناك حقيقة مهمة يجب ألَّا تغيب عنها: حقيقة وجود حياة، واحترام هذا الوجود.
في صباح اليوم التالي اتجهت إلى منطقة الأسواق الحديثة، التي تضم أشهر الماركات العالمية وأحدث بيوت الأزياء، وتضم أيضًا محال المجوهرات المغربية الكبيرة والعالمية، ومن بينها بالطبع مجوهرات بندر.
دخلت روح معرض المجوهرات، وانبهرت بالتشكيلة الأخاذة، كل قطعة تبدو كأنها تحتاج إلى متحف خاص لها، ومساحة واسعة، لتنال حقها من التباهي بالإبداع. لم تتخيل قَطُّ أن شكل المحل

أو المعروضات سيكون هكذا، ففرع قونيا لا يضم كل هذه التشكيلة ولا هذه الأذواق. يبدو أن فرع قونيا صُمم واختيرت معروضاته بما يتناسب مع طبيعة البلدة وسكانها وزائريها. إن محل مجوهرات ببلدة يقصدها من يهتمون بالجوهر أكثر من المظهر، لا يمكن أن يضم تلك القطع باهظة الثمن التي قد تبقى سنوات وسنوات في فترينات العرض ولا تُباع واحدة منها، الذي يرغب في دفع هذه الأرقام واقتناء هذا الجمال لن يقصد قونيا بالتأكيد، وإنما سيقصد أكبر العواصم الأوروبية وأهم مصممي المجوهرات.
أخرجها من شرودها وتأملها للمعروضات صوت:
ـ أعتقد حضرتك ست روح.
التفتت روح سريعًا لتجد في مواجهتها رجلًا مغربيًّا أسمر البشرة طويل القامة معتدل البنية ذا شعر طويل، كما الشكل الشهير لغجر المغرب في الروايات، إلا إن هذا الرجل تتخلل رأسه بعض الشعرات البيضاء التي تجعله كنجوم سينما هوليوود ذوي الأصول اللاتينية. كانت أناقته ملمحًا مهمًّا وواضحًا، فاختياره لألوان ملابسه يعبر عن رجل رقيق وجريء، ومحافظ في الوقت نفسه. كلاسيكية الجاكت الكحلي، والمنديل الذي يضعه في جيبه، يظهران ميله إلى الأصالة، في حين يعترض هذا اللون الواثق قميص وردي ليعلن عن تمرد خفي. فأغلب الرجال لا يميلون إلى ارتداء اللون الوردي. أما هو فكان يبدو وسيمًا جدًّا في هذا المزج المميز. كانت أزرار القميص العليا مفتوحة، كاشفة عن صدر الرجل الوسيم، وعنقه الطويلة التي يطوقها بسلسال من الذهب الخالص.
روح: أيوه.
الرجل: يا أهلًا وسهلًا. أنا ضياء الدين غالب، المهندس المسؤول عن تنفيذ الديكورات اللي حضرتك هتعمليها.
مدت يدها للسلام:
ـ تشرفنا يا أفندم.
ضيا: الشرف لينا يا خانوه. ضيف بك بلغني بحضور حضرتك، وأنا موجود لو محتاجة أي شيء.
روح: متشكرة جدًّا، بس أعتقد مش هاحتاج حاجة النهارده، هاخد شوية صور ومقاسات بس.
ضيا: بعد إذنك يا خانوه، المقاسات كلها عندي، وممكن أبعتها على الإيميل، يعني حضرتك تقدري تاخدي الصور اللي محتاجاها، ولما تخلصي ممكن نقعد سوا نشوف إيه تصوراتكم.
روح: جميل! اتفقنا. عن إذنك.
التقطت الصور اللازمة، ثم دخلت إلى غرفة المكتب لتخبر ضياء الدين بأنها ستنصرف:
ـ أنا كده تمام...
ضيا: بالسرعة دي؟! طب مش محتاجة حاجة مني؟
روح: محتاجة المقاسات.. ممكن؟
ضيا: أكيد. أتواصل مع حضرتك إزاي؟
التقطت ورقة، وكتبت رقم هاتفها المحمول والإيميل الخاص بها، وأعطتها إليه:
ـ آسفة، بطلت أعمل كروت من زمان.
ضيا: لا، عادي. أصلًا بعد المحمول ما بقاش للكروت استعمال.
أخرج كرتًا من حافظته، وابتسم، وأعطاه إلى روح قائلًا:
ـ بس أنا مضطر أشيلها.. الناس بتحبها.

روح: كنت عايزة أسألك على حاجة لو تسمح.
ضيا: طبعًا.
روح: هوَّ هنا أمان إني أمشي في الشارع بالليل لوحدي؟
استغرب ضيا من السؤال، ورد على الفور:
ـ أمان يا خانوه! خير؟ فيه حاجة حصلت؟
روح: لا لا، مفيش حاجة خالص، أنا بس باسأل علشان باحب أتمشى، ومش عايزة الوقت يسرقني ويكون الموضوع فيه قلق أو حاجة.

ضيا: حضرتك لكنتك مصرية، حضرتك مش تركية ولا إيرانية، مظبوط؟
ابتسمت روح وقالت:
ـ مظبوط، أنا مصرية فعلًا، بس عايشة في قونيا من سنة تقريبًا، وتقدر تقول إن عيلة بندر بقت عيلتي التانية.
ضيا: عيلة بندر أوادم ولاد أصول.
ابتسمت روح وقالت:
ـ الله! حلوة كلمة «أوادم»!
ابتسم ضياء الدين ولم يعلق، ثم قال:
ـ حضرتك معاكِ أرقامي، وأرجوكِ لو محتاجة أي حاجة تتصلي بيَّ، أنا زي ما فهمت من ضيف بك إن حضرتك لوحدك في كازابلانكا.
روح: أشكرك يا باشمهندس، أنا فعلًا لوحدي، لكن حقيقي أنا مش محتاجة حاجة خالص. بس ممكن تبعتلي المقاسات النهارده لو تسمح؟
ضيا: فورًا.
روح: تمام. أستأذن دلوقتِ ونتقابل قريب إن شاء الله.
كانت متحمسة جدًّا لبدء العمل على الديكورات. شيئًا فشيئًا بدأت هذه الأرض تُغيِّر من شكل حياتها، فأصبح النهار عملًا، والليل مذاكرة وتحضيرًا ثم راحةً ونومًا. استقرت على الفكرة الأساسية للديكورات، وبدأت بالفعل العمل على التفاصيل والخامات وفنيات التنفيذ. وأصبح ضياء الدين هو مرجعها الوحيد، فكلما احتاجت إلى مناقشة شيء متعلق بالتصميم أو التنفيذ اتصلت به وتناقشت معه حول ما تريد.
كان لانشغالها في العمل بعد فترة من السكون تأثير كبير، فتحركت المياه الراكدة، وعادت من جديد تشعر بالجوع وتفكر في الطعام، بعد أن كان قليل من الطعام يشبعها. لم تكن تعبأ بما تأكل أو تشرب، فالطعام كان قد أصبح مجرد وسيلة للبقاء على الحياة، تمامًا كالتنفس، تتنفس فقط لتعيش، من دون أن تختار الهواء.
بعد الأسبوع الأول في المدينة البيضاء، وصلت إلى شكل شبه نهائي للديكورات، واتصلت بضياء لعرضها عليه ومناقشة بعض التفاصيل معه. ذهبت إلى معرض المجوهرات في الحادية عشرة صباحًا حسب الموعد ومعها اللابتوب، وعند المدخل كان ضياء الدين يرفع مع العمال ألواحًا خشبية، بدا أنه يحيط المعرض بها استعدادًا لغلق الواجهة للتجديدات. لم يكن أنيقًا كما ظهر في

المرَّة الأولى، يرتدي بنطلون جينز، وقميصًا سماويًّا رفع كُميه ليتمكن من العمل بحرية. لمحت على ذراعه وشمًا بجملة لم تستطع قراءتها، ولم يكن الوشم كبيرًا، لكنه واضح.
التفت ضيا فأدرك وصولها، ثم ترك الألواح وذهب إليها:
ـ يا أهلًا وسهلًا يا روح خانوه.
روح: أهلًا بيك يا باشمهندس.
ضيا: اتفضلي، إحنا عاملين مدخل من الجنب على المكتب على طول.
روح: فكرتني بأيام الشغل لما شفتك بتشتغل مع العمال بإيديك.
ضيا: أجمل حاجة في الشغل الواحد يعيش كل مراحله ويقرَّب من الناس اللي بتشتغل معاه.
روح: صحيح.
ضيا: أنا متحمس جدًّا أشوف حضرتك عملتيلنا ديكورات شكلها إيه يا خانوه، أكيد حاجة مختلفة.
روح: بصراحة يا باشمهندس موضوع خانوه وبك ده تقيل عليَّ شوية! مش قصدي حاجة والله، بس إحنا في مصر مش بنستعمل الحاجات دي زي تركيا.
ضيا: مفهوم طبعًا، حضرتك زي ما تحبي. والله لو بتقولولنا ضياء بس بنكون أسعد.
روح: تصدَّق فكرة، تعال أنا أقولك ضيا، وإنت تقولي روح، ولا خانوه ولا بك ولا باشمهندس.
ضيا: بس عيب والله، إنتِ ستنا وخانوه!
روح: مش عيب ولا حاجة. إنت ضيا وأنا روح. اتفقنا؟
ابتسم ضيا وقال:
ـ اتفقنا.
فتحت روح اللابتوب وقالت:
ـ نقول بسم الله الرحمن الرحيم.
ضيا: يلَّا.
روح: قول بسم الله الرحمن الرحيم! إنت مش مسلم ولَّا إيه؟!
ابتسم ضيا وقال:
ـ مسلم. بسم الله الرحمن الرحيم.
بدأت روح في عرض التصميمات وشرحها:
ـ بص يا سيدي، أنا فكرت إن إحنا ندِّي طابع المدينة القديمة للمعرض، يعني هنستعمل خامات كلها طبيعية، المعرض هيشبه جدًّا المساجد القديمة زي ما إنت شايف: أرجات وآيات قرآنية على الحيطان، والأرضيات الخشبية هنغيرها وهنعملها موزايكو بألوان كتيرة وتصاميم مغربية أصيلة، والنجف والإضاءات الجانبية هتكون نحاس ومش هتكون الإضاءة شديدة، والجو العام هيغلب عليه الروح الأندلسية، وكمان الباب بافكر لو فيه مكان بتتباع فيه الأبواب القديمة اللي بنشوفها في الصور ممكن أروح وأختار باب قديم أحسن كتير من تصنيع باب جديد بتصميم قديم. أنا باحب أوي الحاجات القديمة، بتدِّي انطباع أصالة لأي حاجة بتتحط فيها. كمان اليافطة عايزاها تتكتب بالخط الكوفي مش بالخط العربي العادي زي الموجودة دلوقتِ، ومش هنكتب يافطة إنجليزي خالص.
كان ضيا ينظر إلى التصميمات في صمت، ووجهه تعلوه تعبيرات جامدة، فيصعب تحديد ما إذا كان موافقًا أو غير موافق على التصميمات. انتظر حتى أنهت روح عرضها وشرحها للتصميم، ثم

أسند ظهره إلى الكرسي، ونظر في عينيها، وصمت لحظات، وهي تبتسم وعيناها تشعان ببريق الحماس وتنتظر رده.
ضيا: مع كل احترامي للمجهود المبذول والأفكار الجميلة، بس أنا مش شايف إن التصميم ده مناسب لمعرض مجوهرات بالمرَّة!
صُدمت روح من رده، وقالت:
ـ أفندم!
ضيا: طبعًا مش مناسب، حضرتك عاملة تصميم عتيق وفقير، تغلب عليه الروحانية، لمعرض مجوهرات بيزوره أغنياء المغرب! ثمن طقم واحد من المعروضات أغلى من ديكورات المحل كلها اللي حضرتك عايزة تعمليها! ديكورات معرض مجوهرات زي معرض مجوهرات بندر، لازم تكون بتشع ترف ورفاهية. زبون بندر بييجي يدفع فلوس علشان ياخد قطعة مميزة، ولازم يحس إنه داخل مكان مميز ومتكلف، مش داخل مسجد يصلي! اللي داخل هنا بيحب الدنيا، مش زاهد ولا عابد! زبون محلات المجوهرات يا روح خانوه بيركب أغلى العربيات، وممكن جدًّا يشتري فازة أو سجادة أو تحفة أنتيك قديمة علشان يزين بيها بيته، ويتباهى بيها علشان ماركتها المشهورة، لكن ما أعتقدش هيتبسط بباب قديم ملوش قيمة غير إنه مصنوع من سنين! إنتِ عارفة الزبون ده لما بييجي بيضيّفوه بإيه في المعرض وهوَّ بيختار من بين القطع اللي عاجباه؟ بيقدِّموله القهوة في فنجان ليموج، والميه في كوباية كريستال، وبيقدِّموله أغلى أنواع الشوكولاتة السويسري، مش بيشرَّبوه شاي في كوباية إزاز منقوش من السوق القديم! أنا باعتذر، مش هاقدر أنفذ التصميمات دي أو أحط اسمي عليها!
استفزها رأيه جدًّا، وكانت تستمع إليه وهي في حالة من الصدمة. انتابها الغضب من جرأته عليها. تمالكت نفسها وردت عليه، والصدمة لا تزال مسيطرة عليها، محاولة أن تتعامل مع الموقف بمهنية:
ـ ذوقك الشخصي في الحياة، وآراءك، مش بالضرورة أبدًا تتوافق مع آراء الناس! معظم الناس بتحب الأصالة، ومهما كانت بتحب الدنيا ومتعها، بيفضل جواها حاجة بتحس وتتأثر بالروحانيات! الناس من العالم كله بيروحوا الفاتيكان والآلاف بيحجوا لمكة كل سنة!
ضيا: تمام. رأيك ده نفسه هوَّ اللي أنا باحاول أقولهولك بالظبط. اتجاهاتك في الحياة، وذوقك الشخصي، مش بالضرورة أبدًا تتوافق مع أذواق الناس! وعلى فكرة، الناس اللي بيروحوا الفاتيكان يصلوا ممكن جدًّا يخرجوا

يسهروا في أغلى الأماكن بالليل، ومش محتاج أقولك إن الناس اللي بيحجوا كل سنة بيدفعوا فلوس أد إيه علشان يحجوا بأقل مشقة ممكنة، وبياكلوا سلمون مدخن وجمبري وكبدة وز بفلوس تأكِّل قرية بحالها شهر! فين الروحانيات في ده؟!
روح: إنت إزاي تحكم على الناس كده؟! إنت إيه أدراك باللي في قلوبهم؟! إنت مش ربنا يا أخي! ده ربنا قال «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ »!
ضيا: وهوَّ القلب السليم ده مش له علامات، ولَّا إنتو بتنقوا القلب السليم في حاجات وحاجات؟!
روح: إنتو! قصدك مين بـ«إنتو»؟!

ضيا: أقصد كل الناس اللي قرروا ينقوا من الدين اللي يريحهم وييجي على هواهم، واللي ما يريحهمش يسيبوه ويقولوا ده مش من الدين، ربنا ما قالش كده!
روح: وحضرتك بقى اللي فاهم الدين بالسلسال الدهبي اللي في رقبتك، و«التاتوه» اللي واشمه على دراعك؟! سبحان الله في أمرك!
ضيا: أيوه، أنا باحب الدهب، وواشم «تاتوه»، وباشرب خمرة كمان، وأقولك على حاجة: أنا مش باصلي. بس عارف إني غلط، وإن كل ده حرام، مش ماشي باقول للناس اعملوا زيي وهوَّ ده الدين! كنت فاكر إن جوهر الإنسان هوَّ المهم، مش مظهره يا روح خانوه!
روح: إنت اللي وصلت الحوار لكده! كان ممكن لو التصميم مش عاجبك تكتفي بنقده وبس! إنت اللي شخصنت الحوار وخرَّجته برَّا إطار الشغل بالمرَّة! ودلوقتِ بتقلب الكلام إن أنا اللي باحكم عليك من مظهرك! لا فعلًا، ذكاء حاد، ومهارة في الحوار أحييك عليها!
ضيا: فعلًا حضرتك عندك حق. أنا ما كانش المفروض أخرج برَّا إطار العمل المهني. باعتذر! وباعتذر كمان عن تنفيذ التصميم، أنا مكتبي له اسمه، ومش هاقدر أحط اسمي على تصميم مش مناسب لطبيعة المكان! بعد إذنك.
أدار ضيا ظهره وخرج من غرفة المكتب، وروح في حالة من الذهول والصمت. لسنوات طويلة كان كل من يقترب منها يشعر بسلامها النفسي، وقدرتها على التخلِّي، بل ويثني على حالها، ولم تتعرض لهجوم على أفكارها منذ هجرت هذه النوعية من الناس، حتى إنها نسيت كيف تتعامل في مثل هذه المواقف! والآن، وفجأة، يظهر هذا الرجل لينتقدها بمنتهى الجرأة، ويهاجمها، وينصرف من دون أن يهتم بتخفيف حدة الموقف!
«ما الذي أتى بي إلى هذه الأرض؟ ما الذي أخرجني من شرنقتي التي كنت أغزل بداخلها حريري من دون إزعاج؟ ما الذي أعادني إلى الإحساس بالغضب بعد أن تغلبت عليه وهزمته وعشت في سلام؟».
أخذت تلوم نفسها لانجرافها وراء مشاعرها، ورغبتها في السفر، وموافقة الشيخ بهاء، وخروجها من قونيا أرض السلام، ومجيئها إلى المغرب للقاء ذلك الرجل الفظ ذي السلسال الذهبي و«التاتوه»!

*

لملمت نفسها، وانصرفت الضئيلة القوية بعد هجوم ضياء عليها. كانت غاضبة جدًّا وصامتة، مستفزة منه ومن نفسها، وبداخلها بركان غضب يغلي ويفور ويأبى أن يهدأ. كلماته كانت تتردد في عقلها وتزيد من غضبها. وبكل هذا الغضب دخلت إلى غرفتها وتوجهت نحو الشرفة. نظرت إلى المحيط كأنها تريد أن تفرغ غضبها على هذا الأرعن في مياهه، أو ربما لترمي بنفسها فيه، لعل مياهه تطفئ هذا البركان، وتطفئ حبها لنور.
هكذا شعرت، وتمنت أن تطفئ كل النيران بداخلها، حتى إن لم يكن لنور أي دخل فيما حدث. شيء ما بداخلها ألقى المسؤولية على حب نور، الذي ما إن وضعه الله في قلبها حتى بدأت الأغلال تقيدها وتشدها من كل جانب.
ألقت باللوم على هذا الحب الذي جعلها تغادر وطنها وأصدقاءها وحياتها، ووضعها في كل هذه التحديات: ضيف وضغطه المستمر عليها، والحياة وحيدة في بلد غير بلدها، حتى رفاهية أن تخبر براء باسم حبيبها لا تمتلكها، والآن مزيد من التحديات؛ هذا المغرور الذي هاجمها ولم تتحمل

هجومه لأنها تحمل فوق طاقتها، ولا تستطيع أن تتحمل المزيد، حتى لو كان عبء مناقشة في إطار مهني أخذت حجمًا أكبر من حجمها الحقيقي.
كل ما تريده الآن هو استعادة نور الصديق والأخ، الذي حل محل جمال أخيها، وخليفة شيخها في مصر. تريد أن تستعيد نظرتها إلى حياة من دون الشعور بالذنب، الذي تعلم جيدًا أنها ليس لها يد فيه ولم تسعَ إليه. تريد أن تستعيد حياة الصديقة؛ التي يجمعها بها كثير من الأحاديث النسائية المرحة، وتشتركان في كثير من الهوايات وتمارسانها معًا بمنتهى المتعة من دون أن يكون اسم نور حاجزًا بينهما. تريد استعادة أيامها قبل أن تذهب إلى مقام السيدة نفيسة وتدعو بهذه الدعوة التي لا تعلم هل استُجيبت في اللحظة نفسها، أم أنها مكتوبة عليها أساسًا في اللوح المحفوظ، فكان هذا اليوم يوم إعلامها بمصيرها المحتوم من الجمال والعذاب معًا.
توقفت لحظة عن التفكير، واتجهت نحو المرآة، ونظرت إلى نفسها وحدَّثتها قائلة: «هوَّ ده فعلًا اللي إنتِ عايزاه؟ إنتِ فعلًا عايزة ربنا يشيل حب نور من قلبك؟ إنتِ مش عايزة نور حبيبك؟ هوَّ ذنبه إيه؟! هوَّ ما عملش حاجة، هوَّ زيه زيك، ويمكن حالته أصعب، وإنتِ عارفة كده كويس! لو عايزة فعلًا ربنا يشيل حبه من قلبك اطلبي منه دلوقتِ حالًا! اطلبي! ما بتطلبيش ليه؟».
وفجأة انهمرت دموعها، وقالت: «لا مش هاطلب. يمكن يستجيب. لا أنا مش عايزاك تشيل حبه من قلبي! أنا عايزاه! بس أنا تعبت، والله تعبت! أصله وحشني أوي، ونفسي أتكلم معاه، وأبص في عينيه إن شا الله مرَّة وأرجع تاني أكمِّل حياتي من غيره، مرَّة واحدة يا رب مش كتير عليك!».
مسحت دموعها بحركة سريعة، وأدخلت يديها بين خصلات شعرها كأنها توقظ نفسها من هذا الضعف. استدعت نفسها قبل هذه الواقعة، وحدثتها بصوت مسموع: «خلاص الموضوع خلص. إنتِ تعتذري لضيف عن عمل التصميمات، من غير الدخول في أي تفاصيل، ومن غير أي جدل زيادة مع اسمه إيه ده. أيوه، أنا فعلًا ما باعرفش أعمل تصميمات للناس اللي من النوع اللي هوَّ قال عليه! يلَّا ادخلي خدي دش، واعملي «ميديتيشن» شوية، ونامي على طول، والصبح بدري اتصلي بضيف، ويوم ولَّا اتنين بالكتير وروحي لسيدك في مراكش، ملهاش لازمة القعدة هنا أكتر من كده».
خلعت ملابسها، وتجردت من الأحاسيس السلبية التي هاجمتها اليوم. اغتسلت من هذه السموم، وكأنها تتطهر لتدخل في صلاة لا أذان لها ولا ميقات؛ صلاة الوصل والرجوع إلى الله بقلبها.
صلت العشاء، وجلست على الأرض أمام الشرفة، وراحت تتنفس ببطء، وتتجرد من كل الأفكار، ذاهبة في رحلة تأمُّل لتعود أصفى وأهدأ حالًا.
ذهبت، وكان نور في انتظارها هناك، يستمع ويرد.
قالت: لا أعلم ما أفعل بقلبي وعشقك يزيد به يومًا بعد يوم.. أعلم أن عشقك خطيئتي التي أستغفر ربي منها ليل نهار ولكنه لم يغفرها لي بعد.. يزيد حبك بقلبي بعدد أنفاسي ما حييت.. أخشى أن أقابله وأنت بقلبي فتكون جهنم لي عاقبة ومستقرًّا.. كنت ناري في الدنيا وفي الآخرة أنت خطيئتي التي ستحرق جسدي بعد أن أحرقت نار عشقك في الدنيا قلبي ولمعة عينيَّ.
قال: إن ربي يمحو الخطايا ويضاعف الحسنات حتى لو كانت الحسنة فقط بالنية وبالقلب.. إذا زاد حبي بقلبكِ فاعلمي أنه كرم ربي ورحمته بي التي لا تُحد.. يعلم أن عشقي لكِ يزيدني به وصلًا على وصل.. فلا تظني أن عشقكِ لي خطيئة، فرب قلوبنا قال: «إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ».

قالت: ليس ظنًّا.. أمر ربي أن أطهر بيته وقلبي هو لله البيت.. وجدتك في قلبي فعلمت أنك ذنب.. أليست الطهارة من الذنوب والخطايا؟! إن عشقك لكبيرهم الذي لم يغتفر بعد.. أتريدني أن أعصي ربي وأصر على الذنب! لقد جاءني الأمر.
قال: توضأت قلوبنا وتطهرت يوم أن تلاقت أعيننا وأقرت بالعشق.. فلا تفسدي طهارة قلبكِ بالظنون والشك.. أنا أحبكِ كما لم أحب من قبل.. هذا هو اليقين الذي يجب أن يقر في قلبكِ ليبقيه طاهرًا بوضوء العشق.. هكذا أمرنا الله يوم أن شقت الملائكة صدورنا ووضأت قلوبنا بخمرة العشق.
قالت: إذن كيف أطيع ربي وأطهر قلبي كما جاء الأمر؟
قال: تكُفين عن الفرار من العشق.. تقرين بحبك وتعترفين بالذنب.. تتوبين من الشك وتتيقنين من حبكِ وحبي أبد الدهر.. أنا وأنتِ مجمعنا الرب.. أتظنين نفسكِ مفرقة ما جمَّعه الرب؟!
قالت: تُبت إلى الله واستغفرت ربي من الظن والشك.. أعترف بحبك وتملك عشقك مني كلي وليس قلبي وحسب.. أتكفي توبتي هذه ليتطهر قلبي كما أمرني الرب؟

قال: إن كبائر الذنوب لا تغتفر بالاستغفار والتوبة فحسب.. إن الصدقة تطفئ غضب الرب.. تصدقي على قلبكِ وأطفئي غضب الرب.
قالت: وكيف تكون صدقة القلب؟
قال: زيديني عشقًا ولا تعيدي الكرَّة للشك، فأنتِ بقلبي ما حييت.. أحافظ على وضوء قلبي بعشقكِ ولا أتشكك أبدًا أنكِ روحي وقد خلقنا الله معًا قبل بدء الخلق.
قالت: والله إن عشقك أصبح لي صلاةً مفروضة، فكيف تريدني أن أزيدك عشقًا! وهل يزيد العبد أو ينقص الفرائض التي فرضها الرب؟
قال: إذن تقربي إليه بالنوافل.. فتلك صلاةٌ ليس لها عد ولا حصر.
قالت: أعانني الله على النافلة في عشقك ففرض حبك عذب قلبي وعصر بفؤادي عصرًا.
قال: أعانكِ الله يا صغيرتي، فأنا في نافلة حبكِ هلكت.

8

بينما كانت روح تلوم نور وحبه بسبب أحداث هذا اليوم، وحساباتها الشخصية البحتة، كان ضياء الدين يلوم نفسه أيضًا. شعر ضياء أنه لم يتصرف بشكل مهني في طريقة رفضه للتصميمات. وأيًّا كانت المسببات، فالاثنان قضيا ليلتهما في تفكير، ووصلا إلى قرار. لم يكن صعبًا على ضياء أن يستنتج من أسلوب روح في عرض التصميمات أنها بعيدة عن سوق العمل لفترة طويلة، فقد افتقدت كثيرًا من المهنية في العرض، كما أن فكرة التصميمات في حد ذاتها لم تكن مناسبة بالمرَّة، ولا تنم عن تمكُّن المصمم من أدواته، وقدرته على توظيف إبداعه بما يتناسب مع طبيعة العمل المطلوب. شعر لوهلة بالشفقة عليها من ردة فعله وأسلوبه الهجومي في رفضه للتصميمات، في حين كان من الممكن أن يتصرف بشكل أقل حدة. الأمر الذي اضطرها للدفاع عن آرائها ومعتقداتها الشخصية أكثر من شرح تصميم مقترح كأي مصمم في مثل هذا الموقف. هناك شيء في الموقف كله ذكَّره بنفسه عندما كان يدرس في فرنسا، وكان يشعر بهجوم شخصي لمجرد أنه من أصل عربي. تذكَّر إحساسه بالضعف، وحاجته إلى إثبات نفسه، والدفاع عن آرائه ومعتقداته في كثير من المواقف، حتى إن لم يوجَّه له هجوم مباشر، لكنه كان يرى الاتهام بعدم الكفاءة في أعين الكثيرين ممن تعامل معهم في الجامعة والعمل هناك. كان يشعر كثيرًا أنه في موقف اتهام، وعليه إثبات العكس. لم يحب ضياء أن تتبدل الأدوار ويكون سببًا في شعور أي شخص بما كان يشعر به في فرنسا. لم يستغرق الأمر كثيرًا ليقرر ما سيفعل، ولم يتردد، فالأقوياء لا يترددون، بل يفعلون.

*

هدأت روح قليلًا بعد أن عرفت كيف ستسير الأمور، وقررت أن تنهي هذا اليوم الثقيل وتذهب إلى السرير مبكرًا، لكنها تفاجأت برنين هاتف الغرفة. ترددت برهة ظنًّا منها أن المتصل قد يكون ضيف، خاصة أنها أغلقت هاتفها المحمول طوال اليوم. إن آخر ما تريده في هذه الليلة هو أن تسمع صوت ضيف وتتحدث معه. تذكرت أنها طلبت من الفندق توفير سيارة وسائق في الصباح لتذهب إلى مسجد الحسن الثاني، وربما يكون المتصل هو الموظف المسؤول عن التنسيق معها.

روح: ألو.

المتصل: أنا آسف!

روح: أفندم؟!

المتصل: أنا فعلًا آسف!

روح: مين يا أفندم؟

المتصل: أنا ضيا.

انتابها الصمت من المفاجأة.

ضيا: والله عندك كل الحق ما ترديش عليَّ، أنا أصلًا ما اتصلتش على تلفونك المحمول علشان كنت عارف إنك مش هتردي!

تمالكت روح نفسها وردت بهدوء:

ـ العفو يا باشمهندس، ليه ما أردش؟!

ضيا: والله إنتِ كلك ذوق، يعني بعد الكلام البايخ اللي قلته النهارده لازم ما ترديش طبعًا يا خانوه. بس إنتم ولاد الأصول دايمًا تخجلونا بذوقكم.
روح: العفو يا باشمهندس، خلاص الموضوع خلص بالمكالمة دي، ومش محتاج تقول حاجة، سوء تفاهم وراح لحاله.
ضيا: مش باقولك بنت أصول، بس أنا الحقيقة متصل علشان حاجة كمان.
روح: اتفضل، سامعاك.
ضيا: أنا في بهو الفندق تحت.
روح: مش فاهمة!
ضيا: يعني حضرتك تتفضلي تنزلي.
روح: فعلًا؟
ضيا: فعلًا.
روح: على أي أساس؟
ضيا: على أساس إني مش باعرف أنام وأنا مزعل حد مني، وأنا متأكد إنك لسه زعلانة.
روح: يعني أنا مطلوب مني أنزل لحضرتك دلوقتِ وأنا باحضر نفسي للنوم، علشان حضرتك ما بتعرفش تنام وإنت مزعل حد؟!
ضيا: لا طبعًا. علشان إنتِ أحسن مني، وقلبك كبير، وهتديني فرصة، علشان ضميري ما يأنبنيش إني زعلت حد في رُقي وحساسية حضرتك.
روح: خمس دقايق بس.
ضيا: ربع ساعة.
روح: خمس دقايق.
ضيا: طب بس انزلي.. مستنيكِ.
أغلق الخط، منهيًا محاولاتها للجدال حول الوقت الممنوح له، وتركها في حالة من الذهول بسبب حضوره غير المتوقع.
حدثت نفسها وقالت: «طب أنا أعمل إيه دلوقتِ؟ أنا مش قادرة على الأخد والرد. ما هو قال آسف في التلفون وخلصنا! لازمتها إيه ألبس وأنزل وكلمة تجر كلمة؟ أنا كمان شعري مبلول ومش قادرة أنشفه، وعايزة أنام! إيه يا ربي قلة الراحة دي؟! طيب أنا هانزل زي ما أنا كده، على الله يحس إن الوقت مش مناسب وما يطوّلش».
أخذت أحد شيلانها الكبيرة، ولفت نصفها العلوي به، ونزلت وهي ترتدي أحد رداءاتها القطنية البيضاء القصيرة التي ترتديها عند النوم.
وقفت أمام الأسانسير، واتصلت بضيا.
ضيا: أنا في الصالون الأزرق يا روح خانوه.
روح: وأنا عند الأسانسير. تعالَ.
ضيا: ليه عند الأسانسير؟! اتفضلي طيب، وأوعدك مش هاطوّل.
روح: لما تيجي هتعرف.
وصل ضيا إلى الأسانسير كما طلبت، ووقف أمامها يخفي ضحكته حتى لا يزيد الأمر تعقيدًا، وغلبت على وجهه علامات الدهشة وهو ينظر إلى الضئيلة التي ترتدي رداء أبيض قصيرًا يشبه

ملابس الأطفال، وتلف نفسها بشال فيروزي، ووجهها كله براءة وفطرة. مظهرها كان محيرًا! هل هي طفلة، أم امرأة؟ «أيًّا كانت الإجابة، فبالتأكيد لا تريد أن تبتعد بعينيك عن هذه الطفلة الكبيرة من دون إعجاب».

ضيا: معلش، بس هوَّ إنتِ لابسة كده ليه يا روح خانوه؟ مش قصدي حاجة وحشة والله. شكلك طبعًا لطيف.

روح: إنت كلمتني وأنا أستعد للنوم، ومعنديش استعداد أغير هدومي ولا أنشف شعري، كان قُدامي حل من اتنين، أرفض أنزلك، أو أنزل زي ما أنا!

ضيا: بجد أنا آسف إني نزلتك كده!

روح: بتتأسف ليه؟ أنا لو مش عايزة أنزل ما كنتش نزلت.

ضيا: أشكرك. طب إنتِ متأكدة إنك دفيانة؟ علشان بس ما تعييش لا قدر الله!

روح: أنا كويسة. اتفضل اتكلم، أنا قلت خمس دقايق بس.

ضيا: وإحنا واقفين كده؟

روح: من فضلك اتكلم، أنا لازم أطلع أوضتي وأنام!

ضيا: أنا بس حبيت أوضح موقفي بعد مناقشة النهارده. أنا احتديت شوية، بس والله الموضوع ملوش دعوة بيكِ، أنا كده اللي في قلبي على لساني، مش باعرف أجمِّل الكلام، فأرجوكِ ما تزعليش!

استغربت روح من كلامه، وقالت:

ـ إنت سامع نفسك؟ اللي في قلبك على لسانك! يعني إنت بتأكد على الحاجات اللي قلتها، مش بتعتذر عنها؟!

ضيا: أنا باعتذر، لأن ما كانش مفروض أقوله، ده رأيي الشخصي والموضوع كان كله شغل.

روح: يعني إنت جيت الفندق الساعة عشرة، ونزلتني من أوضتي وشعري مبلول وبقميص النوم، علشان تأكد الكلام اللي قلته النهارده، وتقولي اللي في قلبك على لسانك وده رأيك؟! إنت شخص غريب جدًّا!

ضيا: مظبوط، أنا راجل غريب، وعلشان كده أنا في حالي. باشتغل وأنا ساكت، علشان لما باتكلم بابوظ الدنيا، وعلشان كده ناجح في شغلي وفاشل في علاقاتي الإنسانية. أنا مش جاي النهارده علشان أي حاجة غير إني أقولك أرجوكِ انسي الموقف اللي حصل، ونكمل شغل مع بعض بدون أي حساسيات، وأوعدك إني مش هاتطرق لأي نقاشات بره نطاق الشغل علشان ما يحصلش كده تاني!

شعرت روح بالتعاطف مع هذا الرجل الغريب، الذي رأت فيه طفلًا مندفعًا يتوارى خلف هيئة رجل جاد ليحمي نفسه من ردود أفعال الناس إذا ما تصرف بعفوية. وعلى الرغم من أنها لا تزال مختلفة معه في مضمون الحوار الذي دار بينهما، فإنها تعاطفت معه بدرجة كبيرة.

روح: ليه بتعمل كده؟

ضيا: باعمل إيه؟!

روح: ليه عايز تبان على غير حقيقتك، وتقول اللي في قلبي على لساني؟

ارتبك ضيا قليلًا من ردها المباشر، وقال:

ـ أنا مش فاهم قصدك إيه؟
روح: يعني اللي في قلبك حلو أوي، وإلا ما كنتش جيت دلوقتِ. اللي بيطلع على لسانك ده من عقلك اللي بيقولك لو اللي في قلبك بان الناس هتقول عليك إيه!
ضيا: أكيد لازم أفكر، أُمَّال ربنا خلقلنا عقل ليه؟
نظرت روح إلى ضيا وصمتت لحظة، ثم قالت:
ـ عارف؟ فيه أوضة إزاز على المحيط هنا في الفندق تجنن، باحبها أوي، وباقعد أوقات فيها لوحدي، فيها دفاية جميلة وفيها كمان بطاطين. يعني ممكن نقعد قصاد المحيط ونبقى متدفيين. إنت عارف فيها إيه كمان؟ فيها راجل بيشوي أبو فروة. بتحب أبو فروة؟
ابتسم ضيا وقال:
ـ باحب أبو فروة.
وصلا إلى الغرفة التي كانت خالية، ليس هناك غير حافظ، الرجل ذي الملامح السمحة والابتسامة المريحة بجلبابه المغربي وطربوشه الأحمر، يقف أمام شواية من النحاس اللامع، وبجانبه طاولة عليها إبريق مياه وأكواب مزركشة مطعمة بماء الذهب، يقف في هدوء ينتظر ضيوف الغرفة في أدب. الإضاءة خافتة، وشكل الساحل من خلف الزجاج، وأعمدة الإنارة الخارجية، جعلا المشهد يبدو لوحة فنية بديعة تلف واجهة الغرفة الزجاجية في جمال. في أحد أركان الغرفة توجد مدفأة من الحجر موقدة بالخشب، تعلوها مجموعة صور لتصاميم مختلفة لأبواب مغربية بديعة. الجلسات أرضية، والسجاد يشبه الكليم المصري كثيرًا، لكن ألوانه ونقوشه أكثر جرأة وجمالًا. الغرفة كلها تبدو ككوخ منعزل عن المدنية، وكل ما فيها مختار بعناية، لينقل الضيوف إلى حالة من الهدوء بعيدًا عن صخب المدينة والمدنية.
دخلت الضئيلة بردائها الأبيض وشالها الفيروزي، ومعها الرجل الطويل رمادي الشعر ذو الوشم والسلسال الذهبي.
تفقد الغرفة بعينيه سريعًا وسألها:
ـ تحبي تقعدي فين؟
روح: عند الدفاية.
ضيا: بردانة؟
روح: لا خالص، بالعكس، دفيانة جدًّا.
ضيا: اتفضلي.
تربعت على إحدى الجلسات الأرضية، ونظرت إلى ضيا، وعيناها تلمعان، وإصبعها يشير إلى أعلى.
لم يفهم ضيا ما تشير إليه روح، وقال:
ـ مش فاهم!
روح: «سيناترا». سامع؟
ضيا: آه. «سيناترا».
روح: «my way ». بتحب «سيناترا»؟
ضيا: هوَّ ينفع حد ما يحبش «سيناترا»!
ثم أكمل كلامه ممازحًا روح:

ـ أصلًا حرام، مش كده؟ أعتقد إن كره «سيناترا» من الكبائر!
فهمت روح دعابة ضيا، وضحكت وقالت:
ـ هوَّ أكيد مش من الكبائر، بس أعتقد مكروه!
ابتسم ضيا من سرعة بديهتها وخفة ظلها، ثم سألها:
ـ فين البطاطين علشان أجيبلك بطانية؟
روح: لا ما تقلقش، دلوقتِ حافظ هيجيب كل حاجة، البطاطين وأبو فروة ومية المورد. هوَّ عارف النظام.
جلس بجانبها، متكئًا على ذراعه، وقد ثنى إحدى قدميه وجعل الأخرى في وضع زاوية قائمة. تأمل الغرفة بنظرة خبير هندسي، ثم قال:
ـ دايمًا باشوف الإزاز خطر في الديكورات. على الرغم من إن العالم كله بيتجه لاستخدامه بنسبة عالية، لكن أنا لسه مع المدرسة القديمة، وبافضل البناء العادي.. أأمن.
روح: أكيد.
ضيا: أخيرًا اتفقنا على حاجة!
روح: لا، أنا باحب الإزاز، على الرغم من إني مع مدرسة البناء القديمة، بس باحب أستعمله بحساب. يعني لو ما استعملناش الإزاز في الأوضة دي، كان زمانَّا قاعدين في أوضة عادية جدًّا، وبالكتير شايفين حتة من المحيط بس، على أد نافذة أو بلكونة. لكن إنك تبقى شايف المنظر الحلو ده كله كامل من أكتر من اتجاه، كأنك قاعد على الشط، وكمان دفيان، فأعتقد ما كانش هيحصل غير لو الأوضة إزاز.
ضيا: عندك حق. أُمَّال كنتِ موافقاني على إيه؟
روح: أنا ما كنتش موافقاك، أنا كنت باقول أكيد لازم ما تكونش بتحب الإزاز.
ضيا: ليه أكيد؟!
روح: علشان شفاف، بيبين اللي وراه، وإنت ما بتحبش حد يشوف إيه اللي جواك!
ضيا: كل الناس كده، إنتِ بتحبي الناس تشوف اللي جواكِ؟
روح: أنا لو أطول أخلِّي كل الناس تشوف وتحس باللي جوايا، كنت عملت كده حالًا.
ضيا: مفيش حد معندوش أسرار.
روح: أكيد. بس أنا مش باتكلم على الأسرار. أنا أقصد إزاي باشوف ربنا وباحس بجمال تجلياته. اللي يشوفه ما يشوفش غيره بعده.
ضيا: اسمحيلي من غير زعل، اللي بتقوليه ده كلام نظري لو طبقناه على الواقع هنلاقي إنه صعب. عايزة تفهميني إنك ما بتزعليش خالص؟! عايشة بدون أي مشاعر سلبية؟! دي كده بقت جنة مش أرض!
روح: لا طبعًا، بازعل كتير، وباتأثر، وبابكي، بس في عز الزعل باتكلم مع روحي، وأسألها: يا ترى ربنا عايزني أمر بده ليه؟ يا ترى حكمته إيه من الوجع ده؟
ضيا: وبتفهمي؟
روح: مش كل مرَّة أكيد، بس كتير بافهم. مش شطارة مني، فضل ونعمة منه.
ضيا: ولما بتفهمي بتتبسطي إنك فهمتِ وبيروح الزعل؟
روح: أبدًا. باطلب منه المدد، ولما ييجي المدد مش بابقى زعلانة.

ضيا: أفندم؟! مدد؟!
روح: آه مدد.
ضيا: طيب غيَّري الموضوع بقى قبل ما يحصل زي اللي حصل الصبح وتزعلي تاني!
ابتسمت روح وقالت:
ـ مش هيحصل. أنا هاقولك، هوَّ إنت مش بتدعي ربنا؟
ضيا: أكيد. أنا مش ملحد على فكرة!
روح: أنا عارفة. طيب إنت لما بتدعي ربنا مش بتطلب منه حاجة، أيًّا كانت بقى، دعوة عامة، أو حاجة بعينها؟ لما بتتحقق، ده بقى يا سيدي المدد.
ضيا: طب ما تقولي بادعي ربنا وخلاص، ليه بتقولي باطلب المدد؟!
قطع حديثهما حافظ، محضرًا صينية فوقها أبو فروة وإبريق مياه وكوبان، ثم ابتسم لروح وسألها:
ـ أي خدمة تانية يا ستنا؟
روح: تسلم إيدك. لو احتجت حاجة هاجيلك.
ابتسم في صمت ومضى.
أكملت روح حديثها مع ضيا قائلة:
ـ بص يا سيدي، أنا باحب أقول باطلب المدد، وإنت بتحب تقول استجابة دعاء، كله صح. اختلفت الكلمة، لكن المضمون واحد. كل واحد فينا بيطلب المساعدة بكلماته هوَّ. مش إنتو بتقولوا هنا في المغرب على الست الحلوة مزيانة؟ ولو حلوة أوي تبقى مزيانة بزاف؟ مزيانة دي عندنا في مصر ما نعرفهاش، وبزاف كمان، بس لما بتفهمونا معناها بنحس بجمال الكلمة كأننا سمعناها بألفاظنا إحنا. القلب بيترجم الإحساس لوحده. تمام زي كلام كتير ممكن تستغربه مني علشان ما اتعودتش تستعمله، لكن قلبك بيحس بمعناه لما بتفهمه. المدد هو الإمداد من رب العالمين بأي حاجة إنت محتاجها. عندك مشكلة ومش عارف تعمل إيه وبتطلب الفرج، ده طلب للمدد. حزين وقلبك مش متحمل وبتطلب منه يقويك تستحمل ويصبرك، ده برضو طلب مدد. كله مدد يا ضيا، وكله عطاء وإجابة. خلِّي روحك تفض الخناقة اللي شغالة بين عقلك وقلبك، وإنت هترتاح، وهتحب الإزاز، وجمال قلبك كل الناس هتشوفه زي ما أنا شفته!
ضيا باستغراب:
ـ أنا؟! جمال قلبي أنا؟! أول مرَّة حد يقولي كده! دايمًا الناس شايفاني قلبي جامد!
روح: علشان إنت عاوزهم يشوفوك كده. زي ما عملت معايا بالظبط!
ضيا: وإيه بقى حكاية الخناقة اللي بين عقلي وقلبي؟ مين قالك إن فيه خناقة؟ شفتيها زي ما شفتِ قلبي كمان؟!
روح: لا، دي حكاية كبيرة ما ينفعش تتقال دلوقتِ، لازملها قاعدة.
ضيا: وأنا مستعد. إمتى؟
روح: خلِّينا بس نخلص موضوع التصميمات بكرة، وبعد كده ربنا كريم.
ضيا: يعني إيه؟ أنا عايز أفهم.
روح: هاقولك، بس أنا فعلًا لازم أنام دلوقتِ.

ضيا: وأنا باعتذر تاني إني قلقتك ونزّلتك من أوضتك في وقت نومك، بس والله، وأنا عارف إنك هتصدقيني، من ساعة ما حصل اللي حصل النهارده وأنا ضميري بيأنبني وزعلت جدًّا إني زعلتك.
روح: صادق من غير حلفان. عمومًا، ربنا بيعمل كل حاجة لحكمة، وبكرة إن شاء الله نعرف حكمته.
ابتسم ضيا لروح، وشعر بالراحة من كلماتها البسيطة وقال:
ـ يعني خلاص؟
ابتسمت روح:
ـ خلاص.
ضيا: عندكو في مصر بتقولوا صافي يا لبن، صح؟
روح: صح. حليب يا قشطة.
خرجا معًا من الغرفة الزجاجية بعد أن مرا بحافظ ليشكراه. وأخرج ضيا من محفظته بضع ورقات مالية وضعها على شواية حافظ النحاسية كنوع من البقشيش، وربت على كتفه وقال بصوتٍ هادئ وابتسامة خفيفة:
ـ شكرًا بزاف.

*

كانت ليلة مزدحمة بالمشاعر والأفكار في كازابلانكا وقونيا والقاهرة. ضيف أيضًا في قونيا كان يفكر في كيفية التصرف إزاء صد روح المتوالي له منذ سافرت كازابلانكا. نفس السؤال الذي سأله لنفسه في تلك الليلة التي عرف فيها أن هناك منافسًا له على قلب روح. نفس الحيرة مرَّة أخرى: هل أزيد الحصار والضغوط إلى أن أنال ما أريد، أم أن كبريائي تأبى أن تنال المزيد من الرفض؟ هل أتجاهل تجاهلها لمكالماتي وجمود ردودها وأواصل الاتصال والاهتمام، أم أتركها لتشعر بأهميتي وتدرك حجم ما خسرت من رعاية واهتمام وحب؟
لم يصل إلى إجابة شافية ويحسم أمره كما حسم أمره في تلك الليلة، إن الكبرياء تأبى أن يتحمل مزيدًا من الصد، وتأبى أيضًا أن يبذل مزيدًا من الاهتمام.
أما نور الذي لم يكن للكبرياء وجود في حبه لروح، فلم تكن مشاعره المتضاربة في هذه الليلة بدافع الكبرياء كضيف، وإنما كان القلق من شيء مجهول يسيطر عليه، وشيء ما بداخله كان غير مطمئن. لم يكن يدرك أن روح غادرت قونيا للمغرب، وبالتأكيد لم يكن يعلم أي شيء مما كانت تعاني منه في هذه الليلة، ولكن كان يشعر أن هناك شيئًا له علاقة بروح لم يكن على ما يرام. ما زالت نصيحة براء لروح بإعطاء فرصة لضيف تؤرقه، ويقلقه التفكير في احتمالية استجابة روح لها، فعلى الرغم من ثقته ببقاء روح على العهد، فإنه كان يخشى عليها من أن تكون قد فقدت الأمل وقل احتمالها وصبرها على البعد والصمت أمام إصرار ضيف ونصيحة براء. كان يفكر كثيرًا. لم يكن يملك إلا التفكير والتمني، كان يتمنى بشدة أن تتمسك به روح ولا تتركه، وفي نفس الوقت كان يتمنى ألَّا تتمسك به حياة وأن تتركه. كل الحلول كانت في يد حياة وروح، لم يفكر أن يفعل أي شيء، لم يكن يقوى على فعل أي شيء، لا يستطيع أن يواجه حياة ويتركها، ولا يستطيع أن يواجه روح ويطلب منها أن تظل على العهد، وما العهد؟ لا يستطيع حتى أن يعطيها عهدًا لا يعلم متى سيفي به، والرجال لا تقول إلا ما تفعل، فكيف يقول ما لا يعلم إن كان سيفي به أم لا؟ كان

ملجأه الوحيد هو ربه الذي يرى ضعفه وقلة حيلته ويسمع أنين قلبه. كانت ليلة الصلاة فيها لم تكن كأي صلاة، كانت صلة ورجاء والتجاء.

*

أما العاشقة في كازابلانكا، التي كانت ولا تزال على العهد، فقد أدركت بعد اعتذار ضياء الدين، أن غضبها لم يكن بسبب نور وحبه وصمته، وإنما كانت كأي طفل يبكي ويصرخ في وجه أمه لأنها منطقته الآمنة التي يدرك جيدًا أنه مهما فعل فلن تتركه غاضبًا، وستفتح له ذراعيها ليُفرغ غضبه ويشعر بالأمان. هي أيضًا صبت جام غضبها من نفسها في المنطقة الوحيدة الآمنة لديها: نور.

شعرت بالخجل من نفسها. شعرت أنها تريد أن تُلقي برأسها على صدر نور، وتختبئ من نظراته، فلا يلومها على اندفاعها، وصراخها في وجهه، وتوجيه الاتهام إليه. أغمضت عينيها، واستحضرته، وحدَّثته برقة ودلال كما لو كانت بالفعل معه. حدَّثته كما تُحدِّث الصغيرة أباها عندما تخطئ، فتتدلل، فيذوب الأب كما يذوب الثلج بفعل أشعة الشمس. حدَّثته همسًا وقالت: «نور، أنا آسفة! نور.. نور.. ما بتردش عليَّ ليه؟! ما تزعلش مني. أصلًا إنت ما بتعرفش تزعل مني. مش إنت بتحبني؟ برضو ما بتردش! طيب، حتى لو إنت ما بتحبنيش أنا باحبَّك. برضو مش عايز تقولي إنتِ روحي؟ مش مهم. أنا عارفة. تقول ما تقولش أنا متأكدة من حبك. إنت عارف أنا هاصالحك إزاي؟ هاكتبلك علشان لما ييجي وقت الكلام وتقرا كل اللي اتكتب فيك، تعرف قلبي كان عامل إزاي، وتزعل من نفسك إنك زعلت مني، ولو إني أشك إن قلبك بيعرف يزعل».

قامت، وكتبت من دون تفكير أو مجهود، وكأن الكلمات مخزَّنة في قلبها تنتظر وقت الإفصاح:

غضبتُ منك عدة مرَّات.

كلما غضبتُ تمنيتُ بعض الأماني، وإنها والله لبئس الأماني.

خسئتُ مستقرًّا ومقامًا.

لكم تمنيتُ أن أستيقظ يومًا، فأجدك غير ما أراك.

لكم تمنيتُ أن أكتشف أني خُدعت، وأنك خائن أو كذَّاب.

لكم تمنيتُ أن تخطئ، وأرى خطيئتك بأم عيني، كي أتأكد أن إحساسي بك وهم، وأنك مثل بني آدم.. خطَّاء.

لكم تمنيتُ أن أنساك وتنساني، وأنظر إليك في يومٍ ما وأتساءل: كيف أحببته في يوم من الأيام؟

لكم تمنيتُ أن أجد من يفوقك جمالًا، حتى أقول لنفسي: بالغتِ في حبه ووصفه، وحبستِ نفسكِ في وهم ليس له أساس.

لكم تمنيتُ أن أذهب بعيدًا، وأرى من البشر أصنافًا وأصنافًا، حتى أتوه بينهم، ويتوه حبك بي، فأرتاح من هذا العذاب.

لكني كلما تمنيتُ أن أراك غير ما أراك، وجدتك أجمل مما أراك.

كلما تمنيتُ أن أجدك مخادعًا، وجدتك أقرب إلى الأنبياء والرسل من أي إنسان.

كلما تمنيتُ أن تخطئ مثل بني آدم، أخبرني ربي أنك ملاك.

كلما رأيتُ من البشر أصنافًا، تاهوا بداخلي وثبتُّ على طريق هواك.

لا أعلم ما اسم هذا الإحساس، فما علمت غيري أحس به حتى يسميه كما تسمَّى الأشياء.

ليس حبًّا، وليس شغفًا، إنه اجتياح. اجتياح لكل المشاعر والأحاسيس كالطوفان.
نعم، إنه طوفان كطوفان نوح، عصف بكياني، وحمل في سفينتي من كل معاني العشق والوله والهيام زوجين اثنين.
مذكره بك ومؤنثه بي، فأحيا بألم حنين كل زوج إلى زوجه، والصبر على التوحد واللقاء.
يعصف الموج بسفينتي، لكنها تمضي بقوة الطوفان.
تمضي تسبح بحمد مرسل الطوفان ومنجي كل الأزواج ومصطنع كل الرسل على عينه، المتجلي بكل جمال.
طوفانك وسفينتي وأزواج عشقك بي تجلٍّ لاسم الرحمن.
لا إله إلا هو الحي الرحمن... خالق الحب وآمر قلبي بحبك برقة الرحمن وبقوة الحي الذي لا ينام.

9

في الصباح تناولت روح إفطارها، واستجمعت قواها، وبدأت تفكر في جمل مقتضبة تعتذر بها لضيا عن تصميم ديكورات المعرض، بطريقة لا تفتح أي باب للحديث أو الجدال حول هذا القرار. تريد أن تبلغه بقرارها وتهرب على الفور من دون نقاش. كانت متوترة بعض الشيء على الرغم من الجلسة الودية بالأمس؛ فالعمل في المعرض في مرحلة التمهيد للتصميمات، وهي الآن ستخبره بانسحابها من المهمة. الموقف كله مربك. توجهت إلى المعرض مباشرة، ودخلت مكتب ضيا، فوجدته جالسًا وأمامه الكمبيوتر، ويبدو عليه التركيز الشديد.

روح: صباح الخير يا باشمهندس.

ضيا: يا أهلًا يا ست روح. إن شا الله تكوني نمتِ كويس إمبارح.

روح: الحمد لله. وإنت؟

ضيا: الحمد لله. تحبي تشربي شاي ولَّا قهوة؟

روح: قهوة لو تسمح.

ضغط ضيا الزر، فدخل العامل على الفور، وطلب منه ضيا فنجانين من القهوة السادة.

بدت متوترة ومتحفزة، فقالت على غير عادتها:

ـ إنت ما سألتنيش باشرب قهوتي إزاي؟! عرفت منين إني هاشربها سادة؟!

ضيا: اللي يحب القهوة لازم يشربها سادة.

روح: طب افرض كنت باحب طعم السكر في القهوة، كنت هتعمل إيه؟ هتشرَّبني حاجة مش باحبها؟!

ضيا: لا. كنت هاطلبلك فنجان تاني بالسكر. تحبي نجيب واحد سادة وواحد بسكر؟

شعرت بخجل من إعطاء الأمر حجمًا أكبر من حجمه، وقالت:

ـ لا، أنا باحب القهوة مُرة.

أشار ضيا إلى الكمبيوتر، وقال وهو ينظر إلى الشاشة:

ـ فيه شوية صور كنت باتفرج عليها، وعايزك تبصي عليها معايا.

روح: مفيش داعي، أنا جاية النهارده علشان أقولك إن بعد اللي حصل إمبارح اكتشفت إن إنت عندك حق. أنا بقالي كتير بعيدة عن السوق، وواضح إني ما بقيتش أعرف إيه الحاجة المناسبة للزبون، واتجاهاتي الشخصية بقت طاغية على أفكاري! علشان كده، أنا بابلَّغك اعتذاري، ورجائي في الوقت نفسه إنك تجيب حد إنت تعرفه يكون موثوق فيه طبعًا يعمل الديكورات، لأن أنا مش عايزة أبلَّغ ضيف بقراري إلا لما يبقى فيه حد بديل. أنا علاقتي بعائلة بندر تهمني، وهمَّ حملوني مسؤولية مهمة، وما ينفعش أسيبها من غير ما حد يكمل معاك!

نظر ضيا إلى روح وهي تتكلم، ثم صمت لحظات وأدار الكمبيوتر في اتجاهها، وقال:

ـ شوفي إحنا ممكن نعمل تعديل في التفاصيل وإحنا محافظين على الفكرة نفسها. يعني شوفي مثلًا مجموعة اللوحات دي.

تعجبت روح من رد فعل ضيا، الذي بدا كأنه لم يسمع ما قالت!

احتدت أكثر، وقالت:

ـ لوحات إيه؟! أنا قلت إني مش هاعمل ديكورات المعرض! أنا لسه قايلة كده حالًا!
ضيا: أيوه سمعت.
روح: طيب ولما سمعت، بتكلمني في تعديل في التفاصيل ليه؟!
ضيا: علشان أنا سمعتك لكن إنتِ ما سمعتنيش. ممكن جدًّا تغيري رأيك بعد ما تسمعي كلامي. مش ممكن؟ أعتقد ممكن.
كانت روح تستمع إليه والدهشة تنتابها من رد فعله الواثق. لم تتكلم، ولم تفعل شيئًا، ونظرت إلى الكمبيوتر في صمت.
شعر ضيا ببعض الزهو، لكنه لم يُظهر لها ذلك خوفًا من أن يخسر تجاوبها.
ضيا: لو شُفتِ مجموعة اللوحات اللي في الفايل ده، هتلاقيها كلها لوحات مشهورة لرسامين كبار. أغلب الأعمال الأصلية معروضة في أكبر متاحف العالم. لو أخدنا فكرتك بتاعت إمبارح إن السمة الأساسية للديكورات تكون تصميمات قديمة، أعتقد ممكن نختار كام لوحة ونرسمها على جدران المعرض، وباقي التفاصيل تبقى من الأجواء نفسها. أنا متأكد إنك أول ما هتتخيلي الفكرة هتكملي وهتعملي حاجة حلوة وغنية جدًّا ومتميزة بالتأكيد. كده نبقى حافظنا على الفكرة، لكن بدل ما الزبون يحس إنه في مكان قديم بلا قيمة، هيحس إنه في متحف «اللوفر» مثلًا. ممكن ولَّا مش ممكن؟
لمعت عينا روح إعجابًا باقتراح ضيا.
صمتت لحظات، ثم نظرت إليه بإعجاب وقالت:
ـ كان عندك حق!
ضيا: أفندم!
روح: كان مهم أسمع كلامك لأني ممكن أغيَّر رأيي!
ضيا: ممكن؟
تعمَّدت روح أن تصمت للحظات، ثم قالت:
ـ ممكن!
فرح ضيا بموافقة روح على فكرته وعدولها عن قرارها بالاعتذار عن التصميمات. جلسا معًا يدرسان التعديلات، ويتبادلان الآراء والاقتراحات حول ما يمكن أن يضاف ليناسب طبيعة المعرض الفخمة وزبائنه الأثرياء.
مر اليوم سريعًا على روح، وهي تعمل على تعديل الديكورات، والحماس يملأها. تركها ضيا لتعمل بتركيز، وذهب ليمارس الجزء الخاص به ويُشرف على العمال. في نهاية اليوم، وبعد أن انصرف العمال، دخل المكتب ليتفقد أخبارها.
ضيا: لسه قُدامك كتير يا ست روح؟ العمال مشيوا كلهم تقريبًا.
روح: معقول؟! ليه؟ الساعة كام؟
ضيا: الساعة خمسة.
روح: يا خبر! معقول أنا ما حسيتش بالوقت للدرجة دي!
ضيا: عادي. أنا لما باشتغل مش باحس بالوقت برضو.
روح: أنا جعانة.
ابتسم ضيا من عفويتها، وقال:

ـ أعرف محل سمك على المحيط، مش بطّال. بيعملوا أحسن طاجن حوت في كازابلانكا. تحبي تجربي؟
روح: حوت؟! أنا عمري ما أكلت حوت!
ضحك ضيا من براءتها، وقال:
ـ هوَّ اسمه كده، لكن بيبقى أي نوع سمك، مش حوت حقيقي! بتحبي نوع إيه من السمك؟
روح: أقولك حاجة وما تضحكش؟
ضيا: إيه؟ بتحبي التعابين؟
روح: لا طبعًا!
ضيا: أُمَّال إيه اللي هيضحَّك؟
روح: اللي هيضحَّك إني مش باعرف أنواع السمك ولا أسماءه! يعني أعرف البوري طبعًا لأنه مشهور عندنا في مصر، وأعرف السلمون والتونة أكيد. بس كده. خلاص!
ضيا: بس دي حاجة مش بتضحَّك!
ابتسمت وقالت:
ـ شُفت؟! أنا كمان رأيي كده. بس مش عارفة ليه فيه ناس أوقات بتضحك. عمومًا، أنا هاموت من الجوع، وما دام إنت بتعرف أنواع السمك يبقى إنت تطلب الأكل. اتفقنا؟
فتح ضيا لها باب المكتب لتخرج أولًا، وهو يداعبها قائلًا:
ـ اتفقنا. فيه حاجة لطيفة برضو بتتاكل مع السمك، اسمها جمبري. يا ترى سمعتِ عنه؟

ضحكت روح وقالت:
ـ جمبري! برتقاني وله شنب صح؟
ابتسم ضيا وقال:
ـ صح.
كان ضيا مختلفًا شكلًا وموضوعًا عن باقي الرجال الذين مروا في حياة روح. لم يكن غليظ الطبع مثل طارق زوجها السابق، وبالتأكيد لا يشبه نور بروحانياته العالية واتزانه، حتى ضيف لم يكن يشبهه، فاعتزاز ضيف بنفسه ونسبه وحسبه أعطاه مسحة من الغرور. أما ضيا فكان شخصًا بسيطًا على الرغم من ثقته بنفسه، حنونًا على الرغم من الصورة القوية التي يصدِّرها للناس عنه، متواضعًا لأنه يعلم نقاط ضعفه وقوته. كانت إنسانيته هي الملمح الأساسي الذي يلمسه أي شخص يقترب منه، فيشعر ضيا تجاهه بالأمان فيتصرف معه بقدر من الأريحية أكثر من المعتاد.
روح أيضًا كانت تتصرف بأريحية كبيرة مع ضيا بعد أن لمست هذه الإنسانية والحنان بين كلماته العادية وتصرفاته البسيطة. كانت تتعامل معه بشكل مختلف. لم تكن هناك القدسية في المشاعر التي توجد بينها وبين نور، أو الأمومة التي تفرض نفسها على علاقتها ببراء، وبالتأكيد لم تشعر معه بالخطر أو تستشعر أيًّا من الممارسات التي يمارسها الرجال مع النساء في كثير من المجتمعات كما يفعل معها ضيف. شعرت أنه يراها بشرًا.. إنسانًا.. فقط.. لا أنثى ولا قديسة ولا أمًّا. وهي تراه إنسانًا. شعرت للمرَّة الأولى بحرية من نوع مختلف، شعرت أنها يمكنها أن تطلق الدعابات السخيفة بلا قلق من رد فعله تجاهها، فهو أيضًا عفوي، يقول أي شيء يدور في رأسه.

إن الوقت مع ضيا يمر خفيفًا على الرغم من اختلافهما، فلماذا تشعر بتلك الراحة معه، مع أنهما لا يجمعهما شيء مما يجمعها مع الآخرين؟
تولى ضيا مهمة طلب الطعام، وكان تشكيلة من المأكولات البحرية المطهوة على الطريقة المغربية المميزة. تناولت روح الطعام بشهية، أكلت كثيرًا وأحست بطعم الأكل ممزوجًا بالألفة التي شعرت بها، والأحاديث الشيقة، ودعابات ضيا التي كانت تثير ضحكاتها وتُدخل البهجة والسرور على قلبها وتجعل الوقت ممتعًا بالفعل.
أوصلها ضيا إلى الفندق، وشكرته كثيرًا على الطعام الشهي والوقت اللطيف. وقبل أن تغادر السيارة قال لها:
ـ أنا عارف إنك لوحدك، وممكن ما تعرفيش أماكن خروج وأكل كويسة. لو تحبي تتعشي في أي مكان، أنا ممكن أقترح عليكِ أماكن، وممكن كمان لو ما يضايقكيش نتعشى سوا. لو تحبي يعني!
روح: لا، أتعشى إيه! ده أنا أكلت أكل يكفيني تلات أيام. أنا كده تمام أوي. بالليل آخد بعضي وأروح مخبئي، أسمع مزيكا وأشرب شاي وأتفرج على الميه من ورا الإزاز.
ضيا: على فكرة الأوضة دي ظريفة!
روح: جدًّا.
ضيا: وأنا مهتم أسمع منك عن الخناقة اللي بين العقل والقلب.
ابتسمت روح ولم تتكلم، لكنها فهمت أن ضيا يريد أن يلتقي بها في الغرفة الزجاجية.
ضيا: يا ترى هازعجك بعد يوم العمل الطويل ده لو شربنا شاي سوا، وتكلميني شوية عن الحكاية دي؟
روح: أبدًا.
ضيا: تحبي نتقابل الساعة كام؟
روح: عشرة كويس؟
ضيا: كويس جدًّا.

*

كان الشيخ بهاء يعلم أن حفيده يتلقى الدرس الأصعب في الحياة. كان يراقبه وهو يتجنب الحضور وسط العائلة، وخصوصًا في وجوده، والنظر في عينيه. كان يدرك أن ضيف عنيد ولن يُسلِّم بسهولة، ففرق كبير بين المحب الأناني وبين العاشق المستسلم لقدر الله.
حال ضيف في هذه الفترة كانت ترجمة فعلية للعبارة التي قالها الشيخ لروح ذات يوم: «الحب للعوام، والعشق للخواص». لم يُمنح ضيف شرف العشق ولم يكن من الخواص. يظل العوام يصارعون أنفسهم وينتصرون لكبريائهم في الحب، وتظل الرغبة المسيطرة هي التملُّك بأي طريقة. في حين يُسلِّم الخواص لله، فلا نفس ولا تملُّك. تركع الكبرياء في خشوع أمام رغبة العشق الأكبر: الله. فلا عاشق ولا معشوق، وإنما خالق العاشق والمعشوق.
احترم الشيخ بهاء مشاعر ضيف وخصوصيته، ولم يقتحم انغلاقه على نفسه، واكتفى فقط بأن يراقبه من بعيد، ويدعو الله له أن يرفع عنه ما به.
لم تكن السيدة قسمت تعلم شيئًا مما يمر به ابنها، وقد اعتادت أن تراه قليل الكلام، منزويًا عنهم بين الحين والآخر، كلما انشغل باله بأمر مهم. كانت الأم تعي جيدًا أن الرجال في هذه المجتمعات تُزرع فيهم منذ الصغر السيطرة على النفس وعدم إظهار أي ضعف، فالرجل القوي يجب أن يكتم

مشاعره ولا يتأثر بأي شيء، وإلا فلن يكون قويًّا حقًّا. هذا هو مفهومها الوحيد عن القوة والرجولة، كما توارثته الأجيال. وهكذا تربى وريث عائلة بندر الذي لم يرث من جده الرقيق أحاسيسه المرهفة، فهذه الأشياء بالتأكيد لا تُورَّث، ولكن تُكتسب بالممارسة والتربية. وعلى الرغم من أن عميد العائلة كان رجلًا عاشقًا ومحبًّا ومتذوقًا للشعر والفنون، فإن رجال العائلة كانوا مختلفين عنه، ويرون أن هذه السمة في شخصية الجد هي شيء خاص به، استطاع أن يتعامل معه بمهارة، ولم ينقص من هيبته أو قدره. أما هم، فلم يستطيعوا الوصول إلى هذه التركيبة، ولم يحاولوا الاقتراب من أي شيء قد يهدد هيبتهم ووقارهم.
وعلى الرغم من أن حال ضيف ظاهريًّا لم تكن مقلقة، فإن قلب أم الوريث كان يحدثها بأن ابنها ليس على ما يرام. الحديث مع ضيف لن يكون مجديًا، ولن يُفصح عن أي شيء، لكن الشيخ بهاء لديه دائمًا كل الأجوبة التي تريحها وتطمئنها. أعدت السيدة قسمت القهوة كما يحبها الشيخ، مع حلوى الحلقوم التركية المفضلة لديه، ودخلت إلى مكتبه.
السيدة قسمت: النهارده كنت في السوق واشتريت حلقوم بالفستق وجوز الهند.
الشيخ بهاء: طب اقفلي الباب وراكِ كويس، علشان علي بك ما يجيش يعمل علينا ناصح ويقول بلاش سكر يا أبويا وما أدراك إيش؟
ضحكت قسمت من خفة ظل الشيخ الكبير وقالت:
ـ بألف هنا يا سيدنا، براحتك خالص، علي مش في البيت أصلًا.
الشيخ بهاء: ولو في البيت، هاخاف منه؟ هاتي الطبق!
التقط الشيخ بهاء قطعة حلقوم، واستلذ بطعمها، وابتسم لقسمت وقال:
ـ يا سلاااام! الله يهنيكِ يا بنتي. ها؟ فيه إيه غير الحلقوم جايبك؟
تلاشت الابتسامة من على وجه قسمت وقالت:
ـ ضيف!
تنهد الشيخ، وتناول رشفة قهوة، وقال:
ـ ابنك عنيد، وإنتِ عارفة!
السيدة قسمت: يعني قلبي ما بيكدبش عليَّ! فيه إيه ضيف يا سيدنا؟
الشيخ بهاء: فيه اللي فيه يا قسمت! هوَّ ابنك عيل صغير؟ بكرة يبقى بخير!
السيدة قسمت: ما قلتش حاجة، بس كنت عايزة أتطمن.
الشيخ بهاء: اطمني. ابنك لازم يتعلم إن رب العالمين ما بيديش كل حاجة لكل الناس، مش بخل منه حاشاه، لكن عدل، بس إحنا اللي أوقات ما بنفهمش وبنصمم ناخد اللي نفسنا بتشتهيه! ما تخافيش عليه، اللي بيربيه رب العباد وخالقهم مش هتكوني أحن عليه منه!
السيدة قسمت: أستغفر الله!
الشيخ بهاء: ادعيله بس، وارميه في يم اللي خالقه زي أم موسى.
السيدة قسمت: سبحانه وتعالى، وإحنا لينا مين غيره؟ ربنا يتولاه!
أخذ الشيخ نفسًا عميقًا، وأخرج زفيرًا ساخنًا ببطء، وقال:

ـ الله يفتح عليكِ يا بنتي، هوَّ وإحنا ملناش غيره! يا مولانا تولانا!

صاحب الدرس كان يرى أن أي معوقات هي مجرد مزيد من التحديات، وأي رفض هو هزيمة، والهزيمة دائمًا أمر مرفوض. الأشياء جميعًا يمكن الحصول عليها بأي وسيلة. المال وسيلة، والعلاقات وسيلة، والقوة وسيلة، والذكاء وسيلة، والإصرار وسيلة، والوقت وسيلة.
وصل الوريث إلى اتفاق مُرضٍ لكبريائه وحسم الأمر. الإصرار والذكاء واستغلال الوقت هي الوسائل التي سيستعين بها في هذه الجولة من اللعبة. لا مزيد من الانتظار، ولا مزيد من مضيعة الوقت.

*

في العاشرة إلا ربع مساءً، وصل ضيا إلى الفندق، وتوجَّه إلى الغرفة الزجاجية مباشرةً، وأمسك بهاتفه المحمول ليتصل بروح ويخبرها أنه وصل، لكنه لمحها تجلس في المكان نفسه أمام المدفأة، في حالة من السكون والسكينة. وقف يتأملها في صمت: «هل أقترب وأقطع هذه الحالة التي هي عليها، أم ماذا يجب أن أفعل الآن؟».
مضى ضيا بخطوات هادئة، حتى وصل بالقرب من روح.
تقدَّم حافظ خطوتين، وانحنى في أدب، مخبرًا روح همسًا بوصول ضيفها المنتظر. التفتت برقة وهدوء وعلى وجهها ابتسامة مريحة، وكل شيء بداخلها يوحي إلى ضيا ببراءة الأطفال وعفويتهم ونقاء أرواحهم.
ترتدي روح جلبابًا مغربيًّا بسيطًا، اشترته من السوق في أولى جولاتها في كازابلانكا. كان جلبابًا رقيقًا سكري اللون، به قليل من شغل القصب اليدوي المغربي. تجلس متربعة، وتضع على رجليها إحدى البطانيات للتدفئة. لم تكن كما رآها في المرَّة الأولى في هذه الغرفة، لكن الطفلة العفوية الفطرية بداخلها كانت لا تزال تفرض نفسها على مشهد الغرفة، حتى إن لم تكن ترتدي ما يرتديه الأطفال عند النوم.
روح: أهلًا ضيا. جيت بدري!
ضيا: آه فعلًا. بس مش كتير. ربع ساعة بس!
روح: اتفضل اقعد، أنا كمان هنا من شوية، حبيت «اميديتيت» شوية قصاد الميه. بتحب «الميديتيشن»؟
ضيا: الحقيقة أنا مليش في الكلام ده خالص. بس ما تزعليش مني.
ابتسمت روح:
ـ أزعل ليه؟
ضيا: يعني علشان موضوع «الميديتيشن» واليوجا والكلام ده مليش فيه، بمعنى أدق مش باقتنع بيه.
ابتسمت روح:
ـ عادي. فيه ناس كتيرة مش بتقتنع بيها زيك. هوَّ مين اللي قال أصلًا إن كل الناس لازم تحب نفس الحاجات؟
ضيا: أكيد محدش قال كده، بس اللي بيبقوا زي حضرتك كده بيتصوروا إن الحاجات دي هيَّ الصح واللي مش زيهم يبقى غلط!
روح: بالعكس، ده المفروض إن اللي بيرتاح في الحاجات دي زي ما إنت بتسميها، هوَّ أكتر حد لازم يبقى فاهم إن مش كل الناس هتتبسط بنفس الحاجات، ده لو فرضنا إن فيه «مفروض»

أساسًا، وإن فيه «لازم» كمان.
ضيا: شيء لطيف إن الإنسان يبقى ليّن ومرن وعنده قابلية لاستيعاب الآخر!
روح: أكيد.
ضيا: طيب قبل ما نبتدي كلام، تحبي أطلبلك إيه من المطعم؟
روح: ولا أي حاجة. الشاي والميه وأبو فروة بس. بس إنت لو تحب تاكل حاجة خليك براحتك.
ضيا: خلينا نشوف، لو حسيت إني جعان ممكن أطلب سلطة بعد شوية.
روح: أو شوربة!
ابتسم ضيا:
ـ أو شوربة.
روح: عندهم هنا شوربة قرع عسل تجنن! بتحب شوربة قرع العسل؟ هوَّ اسمه أصلًا كده عندكم ولَّا إنت مش فاهمني؟
ضحك ضيا وقال:
ـ أيوه، اسمه قرع عسل عندنا. فاهمك فاهمك.
روح: طيب أقول لحافظ يجيبلك؟ بتحبها؟
ضيا: أيوه يا روح باحبها! بس من فضلك ما تقلقيش، أنا لو حسيت إني عاوز آكل حاجة أو أشرب هاشاور لحافظ. كلميني عن الخناقة إياها علشان الموضوع ده شيق جدًّا!
ابتسمت روح وقالت:
ـ حاضر يا سيدي. صلِّ على النبي.
ضيا: يعني أقول التشهد ولَّا إيه؟
ضحكت روح بشدة وقالت:
ـ قول اللهم صلِّ على سيدنا محمد، بأي صيغة تحبها، مش لازم التشهد لو عايز!
ضيا: ليه؟ هوَّ فيه صيغ تانية؟
روح: طبعًا.
ضيا: وده مش حرام؟
روح: إيه اللي حرَّمه؟ ربنا قال: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، لو كان عايز يحدد صيغة معينة كان قالها، أو كان نهانا عن أي صيغة غير التشهد. مظبوط؟
ضيا: إلى حدٍّ ما.
روح: أعتقد مظبوط ما دامت الصيغة مفيهاش حاجة تغضب ربنا، أو مفيهاش شرك بالله!
ضيا: طب ما أنا أخليني في التشهد أضمن؟
روح: زي ما تحب طبعًا. عايز تقول صيغة التشهد قلها، لكن ما تحرَّمش حاجة ربنا ما حرَّمهاش!
ضيا: طب قولي كده وأنا هاقول زيك!
ابتسمت روح وقالت:
ـ أنا باحب أقول «اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي النور وآله الأطهار».
ضيا: اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي النور وآله الأطهار.
ابتسمت روح، وأخذت حبة أبو فروة من الصينية، ونظرت إلى ضيا، وقالت:

ـ آمين. بص يا سيدي، أنا وإنت وكل الناس، عبارة عن أربع حاجات.
وأشارت إلى كف يدها وبدأت العد:
ـ روح، قلب، عقل، نفس.
أخذ ضيا أيضًا حبة أبو فروة، ونظر باستغراب إلى روح، وقال لها:
ـ سامعك. اتفضلي كملي.
روح: الروح دي أطهر ما فينا، دي نفخة ربنا. الروح ما بتموتش، اللي بيموت الجسد.
قاطعها ضيا:
ـ صحيح إنتِ ما جبتيش سيرة الجسد! فين الجسد من التركيبة بتاعتك؟
روح: الجسد غلاف بيغلف ويجمع المكونات الأربعة اللي بتكوّن الكيان العظيم اللي خلقه رب العالمين. غلاف بيحط جمال على جمال، لكن مش هوَّ الأساس، هوَّ تابع، وله وظيفة. أعتقد ممكن نقول عليه مترجم فاهم لغة كل مكوّن وبيترجمها إلى دلالات نفهم منها اللي بيحصل معانا. يعني مثلًا لما حاجة من المكونات المهمة دي تتأثر ولَّا تتعب، بترسلنا إشارة عن طريقه، يترجمها ويجيلنا ألم في مكان معين، نفهم منه إن فيه حاجة مش مظبوطة لازم ناخد بالنا منها. يعني عندك مولانا الرومي مثلًا اتكلم في الحكاية دي من أكتر من سبعمائة سنة، وقال: «هذه الآلام التي تشعر بها، إنما هي رسل، فاستمع إليهم».
ضيا: رسل! طب والعقل؟
روح: هنا الخناقة اللي كنت باقولك عليها. النفس والعقل دايمًا بيحاولوا يتولوا قيادة الكيان، ويهاجموا الروح والقلب بأفكار سلبية علشان يفضلوا همَّ اللي سايقين.

ضيا: هنا نقطة الخلاف بيني وبينك. أكيد ربنا خلقنا بعقل علشان نستعمله مش علشان نركنه!
روح: أنا ما قلتش نركنه!
ضيا: ده معنى كلامك!
روح: أبدًا. أنا باقول يقوم بوظيفته. هوَّ بيشتغل عند الكيان لكن مش شغلته إنه يقود الكيان!
ضيا: مين شغلته يقود الكيان؟
روح: الأقوى.
ضيا: مين الأقوى؟
روح: إنت أقوى ولَّا ربنا؟
ضيا: أستغفر الله! أكيد ربنا.
ضيا: خلاص، يبقى القيادة له. نفخته فيك. روحك.
ضيا: طيب لما القيادة للروح، والعقل بيشتغل عند الكيان، يبقى القلب والنفس بيعملوا إيه؟
روح: تقدر تقول النفس دي عاملة زي نفق، وفيه واحدة ست جميلة شبه الجدات شعرها لون الفضة ولابسة أبيض وماسكة صينية بتنقي فيها زي ما تكون بتنقي الرز من السوس، وواقف جنبها طباخ بكرش كبير بيستعجلها وبيقولها مش مشكلة السوس مش هيبان في الحلة. فوق الجدة فيه كشاف نور كبير، ونوره شديد، بينور للجدة علشان تشوف السوس. الجدة دي القلب، والطباخ اللي بيستعجل هوَّ العقل، والكشاف اللي بينور أكيد الروح. لغاية لما الوقت يخلص والطباخ يطبخ ويسلم حلة الرز في آخر النفق. النفق هو النفس. وهكذا، كل حاجة في حياتك صينية رز. قلبك

ينقي، وروحك تنور وترشد، وعقلك يمنطق، وإنت وشطارتك. تطلع حلة الرز بسوس كتير، ولَّا نص نص، ولَّا هتقدر تنقي كل السوس؟
ضيا: وإيه السوس والرز؟ الحلال والحرام؟
روح: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا». مش بس الحلال والحرام. أي حاجة تخطر على بالك، أو تفكر تعملها، لازم تفكر بتعملها بنية إيه وهتوصلك لإيه؟ وعلى نياتكم ترزقون. إنت في مهمة طول الوقت، ما بتاخدش أجازة منها غير وإنت نايم. إنت في حال تزكية لنفسك طول ما إنت على قيد الحياة. كل ما تقدر تصلح نيتك ووجهتك لله، كل ما بتزكي نفسك وبتنقي الرز من السوس.
ضيا: بس ممكن أسألك حكاية النفق والقلب والعقل والروح والشرح ده منسوب لمين؟ أقصد مين من العلماء أو الفقهاء؟
ابتسمت روح وقالت:
ـ الكلام ده لسه جاي على لساني حالًا وإحنا بنتكلم مع بعض!
ضيا: إزاي؟! وإيش ضمنك إنه مش غلط؟!
أشارت روح إلى قلبها، وابتسمت برقة، وقالت:
ـ جدتي!
ضيا: على فكرة يا روح، واسمحيلي أكلمك زي أختي الصغيرة، ما تسيبيش نفسك لأفكارك وفلسفاتك! فيه ناس راحوا في حتت وحشة أوي لما عملوا زيك! مش دايمًا تفكيرنا بيبقى مظبوط، علشان كده ربنا قال: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ». ما دمتِ اخترتِ تتديني حتى لو مش محجبة، فلازم تتحري كويس وتقري للأئمة الكبار. بلاش أحسن!
ضحكت روح وقالت:
ـ بلاش إيه؟
ضيا: بلاش تتكلمي في حاجة مش بتاعتك، بالذات الدين، طبعًا له ناسه، وإحنا اتعودنا على كده. أنا مثلًا مش باقرب من حاجة مش بتاعتي، ولما باحتاج فتوى باسأل. اعملي كده أحسنلك!
ابتسمت روح وقالت:
ـ يعني إيه الدين له ناسه؟ إيه اللي أنا قلته يتعارض مع كلام ربنا؟ ومين اللي قال إن تشبيهي اللي قلته لازم يكون قاله حد من الأئمة علشان يبقى صح؟ وليه ما كملتش باقي الآية؟ «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ». ربنا حطلنا شرط للسؤال، وهو عدم العلم. إذن الأساس أن نكون على علم، ولو عِلمنا وقف عند حد معين نسأل اللي أكتر منا علمًا، كل واحد في تخصصه.
ضيا: آه. ما كنتش عارف إنك دارسة في الإسلام!
روح: لا، أنا مش دارسة.
ضيا: أُمَّال إزاي عندك علم؟
روح: علشان عندي عين بتقرأ، وأذن بتسمع، وعقل وقلب بيتفكروا، وربنا قال كده: « لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ». وفوق تفكُّري كمان عندي شيخ باتناقش معاه، وبافهم معاه حاجات ما ينفعش تتسئل في فتوى.
ضيا: طيب دي حاجة كويسة إنك بتحضري دروس لشيخ وبتتعلمي منه.
روح: لا يا ضيا مش دروس! الشيخ في الطرق الصوفية زي المرشد في الحياة. فهمت قصدي؟

ضيا: آه. سمعت عن حاجة كده، بس الحقيقة ما تعمقتش في الموضوع. عمومًا، أنا باحترم فكرة القدوة أو المرشد طبعًا، وأنا كمان كان عندي حد تقدري تقولي عليه تقريبًا مرشد في فترة من حياتي، أستاذي في الجامعة، شخص رائع، ترك بصمة مهمة في شخصيتي، وساعدني كتير في أوقات كنت متخبط فيها. كلنا عندنا أوقاتنا اللي بنحتاج حد يبقى جنبنا فيها.
روح: أكيد كلنا.
لحظات من الصمت، ونظرات متبادلة في ود واحترام وتقدير، ثم قطع ضيا الصمت:
ـ برضو الموضوع محتاج شوية تفكير. سوس؟!
روح ضاحكة:
ـ سوس! إنت تجنن!
ضيا: طب تعالي نفكر في حكاية السوس دي.
روح وهي تزيح البطانية وتعتدل في جلستها:
ـ لا، فكر إنت علشان أنا لازم أنام دلوقتِ!
ضيا: آسف إني سهرتك!
روح: بالعكس، أنا اتبسطت أوي!
ضيا بابتسامة هادئة:
ـ أنا كمان اتبسطت!
نهضت روح، ونظرت إلى المحيط كأنها تودعه.
ضيا: هاوصلك للأسانسير.
في غرفتها قرأت وردها من القرآن، وصلَّت على حبيبها سيد الخلق، وسبَّحت ربها، ثم أطفأت الأنوار، وأغمضت عينيها، ولكنها لم تستطع أن توقف عقلها عن التفكير. كانت تتعجب كيف أنها في مثل هذا الموعد بالأمس كانت قد عقدت العزم على الاعتذار عن التصميمات ومغادرة كازابلانكا كلها، واليوم تغيَّر كل هذا في لمح البصر بمرور سواد الليل. أيضًا ضيا وإحساسها بالضيق منه بالأمس تبدل للراحة اليوم. كانت هناك مشاعر سعادة لا تعرف مصدرها من أين. هل من استعادة ثقتها بنفسها مرَّة أخرى وإحساسها بالرضا عن نفسها بعد تعديل فكرة تصميمات المعرض، أم هل إحساسها بتقبل ضيا لها ولأفكارها جعلها تشعر بالطمأنينة وألَّا مزيد من الهجوم عليها كما حدث أمس؟ كانت تحاول أن تضع يديها على مصدر الطمأنينة، وبالفعل فطنت إلى المصدر. إن هذا السبب أو ذاك ما هما إلا سبب فقط لتنتقل من حال إلى حال وتشعر بالطمأنينة بعد ليلة أمس. أما الذي نقلها ومصدر طمأنينتها فهو الله وحده لا شريك له.
ابتسمت لحبيبها الأعظم الذي دائمًا ما يتولاها ويسدل عليها رداء الطمأنينة والسلام، وحدثته بقلبها وهي بين النوم واليقظة وقالت:
اللهم أعن قلبي على تحمل جمال حبك.
وامنحني شرف الطواف بعرشك.

أحبك يا الله.

10

في أحد المطاعم الراقية بحي الزمالك، دعا نور زوجته حياة للعشاء، في محاولة لكسر الجمود الذي أصاب علاقتهما منذ عادا من قونيا. كان المطعم هادئ الأجواء وغير مزدحم. أمسية رقيقة في مطعمهما المفضَّل، وبعض الأحاديث، لن تحتاج إلى مجهود كبير منه. في الزاوية البعيدة يوجد بيانو أسود كبير، يجلس أمامه عازف ماهر يلعب مقطوعات كلاسيكية رومانسية.
كانت حياة كعادتها، في قمة أناقتها، تسبقها رائحة عطرها المفضَّل «كوكو شانيل»، وترتدي بلوزة حريرية مزدحمة الألوان والنقوش من مجموعة «دولتشي آند جابانا» الصيفية الأخيرة، وبنطلونًا أسود ماركة «جوتشي»، وقد اختارت أيضًا حزامها ذا العلامة الذهبية الكبيرة في منتصف خصرها الصغير، وحقيبتها من الماركة نفسها، وهي حقيبة سوداء صغيرة لا تتسع إلا لهاتفها المحمول ومحفظة صغيرة جدًّا، لكنها تحمل ماركة «جوتشي» بوضوح، لتعلن أن هذه الحقيبة الصغيرة التي مقاسها بضعة سنتيمترات، هي حقيبة باهظة الثمن، ولا تقتنيها إلا القليل من السيدات، وهي بالتأكيد منهن.
انحنت حياة وقبَّلت نور برقة، فابتسم لها، وأثنى على جمالها وأناقتها، ومن دون وعي وجد نفسه يفكر فيما لو كانت روح هي التي تجلس بجانبه: «ربما اكتفت بفستان رقيق من الحرير السادة أيًّا كان لونه، وزينته بحضورها بداخله، وأرجعت خصلات شعرها برقة خلف أذنيها بين الحين والآخر. كانت سترتدي قرطها الياقوت، وسيُبرز بريقه جمال عنقها أكثر، ورقة تفاصيل وجهها. كانت ستغمرني برائحة جوز الهند، التي ستتخلل كل خلايا جسدي، ليجتمع كل شيء جميل في هذا الزمان والمكان: موسيقى «موتسارت»، وروح، وطعام شهي. ربما كان ذلك بروفة لمشهد من مشاهد الجنة على الأرض».
قائمة الطعام مختارة بعناية لتناسب أذواق زبائن المطعم الذين يتذوقون الجمال في كل شيء. اختار نور وحياة طبقهما المفضَّل في ظل هذه الأجواء الهادئة: اللحم البقري المطهو بالروزماري، وكبدة الإوز مع البطاطس المطهوة في الفرن بالكريمة والجبنة الفرنسية الزرقاء.
نور: أنا عارف إن بقالنا كتير ما خرجناش مع بعض علشان أنا مشغول بالمناظرة، بس الحمد لله عرفت أظبط وقتي وكلمتهم حجزت ترابيزة.
حياة: بيني وبينك، أنا قلت إنت نسيتني!
نور: وأنا أقدر! إنتِ عارفة إني باحبِّك يا حياة! وأنا آسف إني أوقات باتشغل عنك، أو باكون مش مركز معاكِ، بس إنتِ عارفة كويس إن ده بيبقى غصب عني!
حياة: عارفة يا نور، بس برضو غصب عني باتضايق! إنت عارف إني بازهق! وبجد بابقى مش عارفة أعمل إيه! الوقت بيبقى طويل، والحاجات اللي بتبسطني بتخلص!
نور: أنا عارف. إن شاء الله تتبسطي في سيوة. ما قلتليش إمتى «الريتريت» مع الراجل الهندي؟
حياة: الأسبوع اللي جاي، بس أنا هاسافر بعد يومين.
تفاجأ نور، وقال:
ـ ما قلتيش يعني!
حياة: ما أنا باقول أهو.

نور: قصدي يعني إنك ما قلتيش قبل السفر بمدة كافية! إنتِ عارفة إني ما باحبش المفاجآت!
حياة: مش كل حاجة تعمل منها موضوع يا نور! أنا لسه مقررة وأنا جاية في الطريق، حاسة إني عايزة أفصل وأغيَّر مود قبل ما «الريتريت» مع عمار يبتدي، علشان ذهني يكون صافي وأنا معاه. إنت معندكش فكرة أنا مبسوطة إزاي إنه جاي مصر. أنا أصلًا كنت بافكر أقولك نطلعله كشمير. أنا متأكدة إنك هتحب التجربة جدًّا، وهتستمتع بكلامه. تخيل تلات أسابيع يوجا و«ميديتيشن» و«ديتوكس» وصوم عن الكلام! غسيل كامل للروح!
نور: طبعًا هي تجربة تأمل عميقة بلا شك، بس أنا بيفضل دايمًا عندي تحفظ على بعض الممارسات الروحية اللي ملهاش مرجعية من الأديان السماوية. بصراحة، باشوف فيها شطحات كتيرة، وباشوف ناس بتتأثر سلبيًّا جدًّا لما بيقدموا على تجارب زي دي وهمَّ مش واقفين على أرض ثابتة. أنا شخصيًّا أفضَّل أروح مراكش وأقعد تحت رجلين سيدي ألف مرَّة، عن إني أروح أي مكان وأصوم عن الكلام!
حياة: دي حاجة ودي حاجة يا نور! وأوقات بيبقى مهم الواحد يختلط بثقافات مختلفة ويرجع تاني. وعلى فكرة لما ده بيحصل بنكمل أحسن من الأول. مش كده ولَّا إيه يا مولانا؟!
نور: بس أوقات كتيرة الدخول في تجارب بدافع حب الاستطلاع، أو حتى التجربة في حد ذاتها وبس، بتعمل لخبطة، وبتضر أكتر ما بتفيد! أنا مش قلقان عليكِ خالص، أنا عارف إنك في حتة تانية غير الناس اللي ممكن يحصلها كده، وعارف إنك هتاخدي من التجربة اللي ينفع معاكِ، وتسيبي اللي مش بتاعك. بالعربي كده، عندك مصفاة في قلبك ما بتدخلش الشطحات دي. الموضوع كله بالنسبة لك زي بالظبط ما قلتِ، غسيل للروح، بس الخطورة بتبقى على الناس اللي لسه ما وصلتش لشكل واضح لعلاقتهم بربنا. ما ينفعش حد يبني من غير ما يحط أساسات سليمة. الرحلة الروحانية كده، لازم اللي يقرر يبتديها يكون حط أساسات مظبوطة. غير كده، أنا شخصيًّا ما باقتنعش، باشوف نتائجها حاجة كده ملخبطة، لا منها إسلام، ولا منها بوذية. لخبطة!
حياة: صحيح، عندك حق، باشوف ده في اليوجا كتير، كأنها بقت موضة، ناس بتسافر وهيَّ مش جاهزة، ومش مدركة تاخد إيه وتسيب إيه، وبيرجعوا يا حرام، لا حول لهم ولا قوة، أفكار غريبة ومعتقدات أغرب! ربنا يهدي.
نور: آمين.

*

كان ضيا يعرف جيدًا كيف يختار الأماكن التي يصطحب إليها روح بعد العمل. وفي حين يختار هو الأماكن والطعام، تنتقي هي الأحاديث ببراعة. كانت تلك الليلة التي قضتها روح مع ضياء الدين في الغرفة الزجاجية، والحديث بانسجام على الرغم من الاختلاف الواضح بينهما، بمنزلة حجر أساس لصداقة جديدة آمنة، لها ملامح مختلفة عن ملامح صداقتها ببراء. كانت الاختلافات الشكلية بينهما لا تتسق مطلقًا مع درجة التناغم التي وصلا إليها بتكرار الأحاديث واللقاءات بعد العمل، إلا إن الاتساق مع الذات في كلٍّ منهما كان أرضية مشتركة وعمودًا فقريًّا لعلاقة أكبر من هذه الاختلافات. الوضوح كان نقطة الالتقاء. لم يعد ضيا بعد هذه الليلة هو المهندس ضياء الدين الأرعن صاحب الوشم والسلسال الذهبي، بل أصبح ضيا فقط، لكنه بالتأكيد لا يزال صاحب الوشم غير المفهوم، إلى أن سألته يومًا وهما يعملان:
ـ قولي بقى «التاتوه» ده معناه إيه؟

أشار ضيا إلى «التاتوه»، وقال:
ـ دي حكمتي المفضلة بالفرنسية: «قد لا أكون مثاليًّا، لكني على الأقل لست مزيفًا».
ابتسمت روح وقالت:
ـ إنت أوي.
ضيا: أعتقد لما قررت إني ما أحاولش أبقى مثالي ارتحت.
روح: مرتاح فعلًا؟
ضيا: تعالي نشرب قهوة في المكتب ونرتاح شوية.
روح: يلَّا.
في المكتب، ومع أول رشفة قهوة، نظرت روح إلى ضيا وابتسمت، كأنها تكرر عليه السؤال. لم يكن ضيا يهرب من الإجابة، لكنه كان يشعر بأن حديثه معها في أي شيء لا يمكن أن يكون حديثًا سطحيًّا، ويجب أن يتواصل معها ويشعر بإنصاتها لكلماته، فهذا في حد ذاته يعطيه إحساسًا بالراحة والرغبة في الحديث أكثر.
ضيا: قرار قررت آخده ودفعت تمنه، صحيح تمنه كان غالي، لكن السعادة مش رخيصة، لازم الواحد ياخد حاجات ويسيب حاجات، المهم يعرف يختار إيه ويسيب إيه، وآديني أهو زي ما إنتِ شايفة، ناجح وسعيد، وتقدري تقولي غني كمان.
روح: بس أنا سألت سؤال تاني ما جاوبتش عليه! إنت مرتاح فعلًا؟
ضيا: فيه حد مرتاح؟! إنتِ مرتاحة؟
روح: إلى حد كبير الحمد لله. لما بتعيش مش مرتاح بتعرف طعم الراحة لما بتدوقها، زي ما إنت قلت قرار خدته ونفذته، بس ما أقدرش أقول إني دفعت تمنه غالي زي ما إنت قلت، بالعكس، أنا باحس إن أنا كل يوم باخد مش بادفع!

ضيا: وسعيدة؟
روح: دلوقتِ سعيدة، ومن شوية وأنا باشتغل كنت سعيدة، ولما بابقى في قونيا جنب مولانا وشمس بابقى سعيدة. فيه حاجات كتيرة أوي بتخلِّيني سعيدة!
ضيا: علشان كده مش عايشة في مصر؟ مش بتحبي مصر؟
لمعت عينا روح، وابتسمت وقالت:
ـ يا خبر! دي مصر دي الحب كله، دا أنا روحي في مصر، وحبايب قلبي في مصر، وعمري كله عشته في مصر! عارف الست أم كلثوم لما بتقول «ما باقولش في حبك غير الله»؟ أنا بقى ما باقولش في حبها غير الله.. الله الله!
ابتسم ضيا وقال:
ـ حيرتيني! يعني إنتِ سعيدة وإنتِ بعيد عن بلدك، ولَّا مش سعيدة؟
روح: السعادة دي حال مش مقام!
ضيا: مش فاهم!
روح: الحال بتتغير، لكن المقام ثابت. ومفيش حال للسعادة، السعادة تيجي وتمشي من حاجات مختلفة وبطرق كتيرة، لكن الراحة مقام، لو وصلتله تبقى مرتاح طول الوقت حتى لو مفيش حاجة بتسعدك، وحتى لو فيه حاجة بتحزّنك. تقدر تقول إن الراحة سلام. الجنة فيها سلام.

ضيا: عندك طريقة مختلفة بتخلطي بيها كلامك بالروحانيات! إنتِ دايمًا كده؟
ابتسمت روح برقة وقالت:
ـ يعني، تقدر تقول أغلب الوقت مش دايمًا. وإنت؟
ضيا: أنا إيه؟
روح: مرتاح؟
ضيا: على حسب كلامك أبقى مش مرتاح، سعيد ممكن، عارف إيه بيسعدني وباعمله، وعارف برضو إيه اللي مش بيريحني.
روح: إيه ممكن يخليك مش مرتاح؟
ضيا: مفيش غيرها.. مريم!
روح: مريم؟!
ضيا: بنتي مريم!
روح: آاااه. ربنا يخليهالك، ويجعلها من اسمها نصيب. عندها كام سنة؟
ابتسم ضيا:
ـ 18 سنة بحالهم، مروا إزاي ما أعرفش! إنتِ عارفة إني باحس إنها شبه ستنا مريم! والله. كل ما بابصلها باحس بكده!
روح: لو سمحتلي أسأل، مريم ليه مش بتخليك مرتاح؟
ضيا: أنا ووالدة مريم منفصلين من زمان، تقريبًا ومريم عندها سنتين. ما قدرتش أكمل أكتر مع مامتها. ما لحقتش أتهنى بيها! وطبعًا كان مش من العدل إنها تعيش معايا وما تترباش في حضن أمها. مش باقولك تمن غالي! أغلى تمن!
روح: أكيد بُعد الواحد عن حبايبه أغلى تمن. ربنا يصبر قلبك. إنت عارف سيدنا علي لما سألوه لو فيه حاجة أعظم من الموت، قال أيوه.. فراق الأحبة.
ضيا: كان حكيم. مش باقولك دايمًا بتخلطي كلامك بروحانيات!
ابتسمت روح في صمت ولم تُعلِّق. وخيَّم الصمت على الأجواء برهة، وكان ضيا يشرب قهوته، ويتجنب النظر إلى روح التي شعرت بخصوصية الحديث فاحترمت ذلك ولم تتكلم، حتى عاد هو للكلام مرَّة أخرى:
ـ والله أنا لو منك ولا أكلمني ولا أشوف وشي تاني!
روح: ليه؟!
ضيا: كل ما أشوفك أضايقك، أنا قلتلك أنا كده ما صدقتنيش!
ابتسمت روح وقالت مداعبة ضيا:
ـ مين قالك إني اتضايقت؟! وبعدين حتى لو ده حصل، إنت ما تعرفش إن الستات بتحب النكد؟
ضحك ضيا وقال:
ـ الحقيقة باسمع، بس معنديش معلومة مؤكدة.
ضحكت روح وقالت:
ـ فعلًا، الإحصائيات في الحاجات دي لسه مش دقيقة.
*

هذا الشكل من الحياة هو ما كانت روح تحتاج إليه بالفعل في هذه الفترة: الانغماس في العمل، والأحاديث المختلفة، والأمر المهم جدًّا وهو دخول أشخاص مختلفين إلى حياتها في هذا التوقيت.
كانت في أشد الحاجة إلى شيء يأخذها من وحشة الشوق إلى نور، وضغط ضيف عليها، والصراع الأبدي بداخلها بين النفس والروح، والإشارات والرسائل التي كان يرسلها جسدها إليها من هزال وضعف وعدم الشعور بطعم الحياة. كانت كلها رُسلًا إليها، لتفهم أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام، ويحتاج إلى الالتفات إليه، والتعامل معه، لتصبح الأمور أفضل.
جاءت هذه الرحلة لتشعر روح بالتعب، فتأكل وتنام نومًا عميقًا، وتستمع إلى أغنيات مختلفة في الغرفة الزجاجية، وتضحك من قلبها مع ضيا من دون قلق أو حسابات، وترتدي الجلباب المغربي، وتخلع ولو مؤقتًا فساتينها الجميلة، حتى ترى نفسها بعين جديدة، وتعلم أن كل تغيير ليس مغامرة. فبعض التغييرات تكون علاجًا عندما يشتد المرض على المريض.
وعلى الرغم من كل الأشياء الجديدة التي تسللت إلى حياة روح سهوًا في تلك الأيام، فإنها لم تأخذها من حبيبها الأعظم. كانت لا تنشغل أبدًا عن مناجاتها ووقتها الخاص مع الله، فالمحب لا ينشغل عن حبيبه أبدًا مهما كانت حاله. كانت تستشعر أن رحلة المغرب هي اللطف الخفي، واليسر مع العسر، كما وعد الله. تيقنت أنها تمر بتجلي اسم الله «اللطيف» في هذا الوقت، وكانت ممتنة لكرم الله عليها، بعد أن وصل بها الإعياء والألم إلى الدرجة التي صعب عليها تحملهما من دون مُسكِّن. ها هي تتعاطى المُسكِّن، وهي تدرك أنه مجرد مُسكِّن وليس دواءً.
تأملت روح الحال التي حلت فيها، أو ربما العكس، منذ وطئت قدماها أرض المغرب العربي. كل شيء ينطق بالمعنى نفسه: «اختياراتكِ لحياتكِ صحيحة فعلًا، ولكن هناك اختيارات أخرى صحيحة أيضًا، بدائل قد تكون أنسب بحسب الوقت والظروف. فهل ستختارين استكمال طريقكِ بالاختيارات الآمنة نفسها التي سكنتِ إليها وتعودتِ آلامها، أم ستختارين اختيارات أخرى فيها قدر من المغامرة؟».
شعرت بالدرجة الرابعة التي تصعدها، ودونتها قبل أن تغفو وتنساها.

الدرجة الرابعة
هناك وقت سيتحوَّل الكون كله من حولك إلى مرآة، ليريك نفسك من اتجاهات مختلفة.
أنت وحدك مَن سيُقرر إلى أي مرآة ستنظر.
هناك مرآة واحدة ستتلاقى فيها عين الحقيقة فيك، بعين الحقيقة في المرآة.
قد تُغمض عينيك، وتُكمل طريقك كما كنت تراه قبل أن يتحول الكون إلى مجموعة من المرايا.
قد تختار أن تُغيّر شكل سيرك للطريق، لكنه هو الطريق نفسه.
الحقيقة واحدة، لكن انعكاساتها لها أشكال عديدة، تتغيَّر تبعًا لتغيُّرك أنت، وهي أبدًا لا تتغير.

دوَّنت المعنى وهي تتساءل في قلق: «هل أنا على أعتاب تعديل مسار، واتخاذ قرارات مصيرية، بعد كل هذا الوقت الذي وقفت فيه عالقة ومشدودة في اتجاهات عدة، منتظرة أن أُجذب إلى اتجاه دون آخر لأتحرر؟ لكن تُرى ما هذه القرارات؟».

أدركت للمرَّة الأولى أنها يمكنها أن تحرر نفسها بنفسها، وأدركت للمرَّة الأولى أن الإنسان حتى وهو مسير فهو أيضًا مخير. وسط التساؤلات لمحت القمر من شرفة غرفتها الذي كان بدرًا في هذه الليلة، فابتسمت له في صمت، وأخذت بطانية وخرجت تتأمل جماله. كانت تغيب في النظر إليه، وتخاطبه كأنه يسمعها ويفهمها بالفعل. تخاطب حبيبها في هذا الواضح الجريء المتواضع، وقلبها يتمنى أن يصله كلامها. قالت:

لا تُغازل العُشَّاقَ صَمتًا
فالعِشقُ والصَّمتُ لا يَستَويان
لا تُغازل العُشَّاقَ بُعدًا
فالعِشقُ والبُعدُ لا يجتمعان
لا تُغازل العُشَّاقَ خَجلًا
فالعِشقُ والخَجَلُ مُتضادان
لا تُغازل العُشَّاقَ مُترددًا
فالعِشقُ والتَّردُ يَتصارعان
لا تُغازل العُشَّاقَ إلا إذا أصبحت بَدر التَّمام
فالعِشقُ والقُمرُ يَلزمُهما الوقت فيكتملان

وبينما تتكلم وتغازله في القمر، كان نور حبيس الصمت والصبر، ولا يزال ينتظر. ينتظر الإذن كل ليلة. الإذن الذي لم يأتِ من الله بتغيير الحال. في كل ليلة يدعو ربه أن يلهمه الصواب، وفي كل شهر يُشهد البدر على صبره وصمته وعشقه، فهما رفيقا درب، وعاشقان مأموران بالصمت والبُعد، ومأموران باحترام الوقت. يتواريان عن أنظار معشوقتهما طوال الشهر، لتولد شمسهما كل يوم ويزداد بريقها يومًا بعد يوم. لا يملكان إلا الطاعة لرب الكون خالقهما، وخالق معشوقتهما، وصاحب الوعد. فالذي نهى عن التقاء الشمس والقمر وقال: «لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ»، هو نفسه الذي أقر باجتماعهما يومًا ما حين قال: «وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ »، فصبرًا الشمس والقمر.

جاءها صوت نور يحدثها.

قال: صيام الناس شهر، وصيامي في عشقك صيام حياة.

قالت: ذاك حكم رب الناس على الناس، وهذا حكم رب العشاق على العشاق. أرباب العشق لهم صومهم، وعوام القوم لهم صوم الطعام.

قال: أخبريني عن صوم أرباب العشق!

قالت: هو صومٌ ما صامه أقوام قبلهم، وليس له في اليوم والليلة إفطار. لا ينتهي بغياب الشمس، لكن والله إن له أجمل فجر في الأكوان. خيطه الأبيض يتبين من الخيط الأسود، بيان القمر في الظلام. وعد ربهم حق، لا يُبدَّل القول لديه، وما هو بظلام لعبيده ومنهم العشاق.

قال: وماذا عن طعامهم؟

قالت: أخبرني ربي يوم أن جاءني أمر الصيام والعشق، أن يوم إطعامنا عيد للعشاق. طعام هو بالفعل إطعام. لا عينٌ رأته، ولا خطر على قلب إنسان أو ملاك. طعامنا غذاءٌ للروح والفؤاد.

قال: وكيف يستقوي أرباب العشق على الحياة في الصوم؟

قالت: ربهم يطعمهم من رحمته، ويسقيهم لطفًا بعد لطف. لا تتوقف عطاءات الرحمن!

قال: سقاني عشقكِ، ويسقيني اللطف مرَّات ومرَّات. أتوق لسقياكِ بأمر ربي كل يوم وليلة، وأتوق لتوحدنا باللقاء!
قالت: صبرًا أيها الظمآن في العشق، فسقيا العشاق تستحق الصبر. توحدنا يقينًا يقينًا بأمر الرحمن!
*
في نهاية الأسبوع طلب ضيا من روح أن يمر بها ليصطحبها إلى أحد المطاعم المفضلة لديه، والتي يحب أن يقضي بها سهرة ليلة الخميس، فيوم الجمعة هو اليوم الوحيد الذي يقضيه مع مريم ثم تذهب إلى أمها يوم السبت. أربع وعشرون ساعة فقط هي الوقت الذي يقضيه مع مريم كل أسبوع.
جلست روح بجانب ضيا في سيارته، وفي الطريق نظر إليها وقال:
ـ هاسمَّعك حاجة يا رب تعجبك.
روح: سمعني.
ضيا: بس دي لازم تتسمع بصوت عالي.
روح: أنا جاهزة.
شغَّل ضيا المقطوعة بصوت مرتفع. كانت «كارمينا بورانا»؛ مقطوعته المفضلة التي لا يغيرها في سيارته، يستمع إليها بصوت عالٍ، ويقود مسرعًا، وينعزل عن العالم الخارجي. سمعت «كارمينا بورانا» للمرَّة الأولى في حياتها. فتحت النافذة، وأخرجت يدها لتشعر بقوة الهواء تتلاطم بكفها. عبث الهواء بخصلات شعرها وبوجهها. أغمضت عينيها مستمتعة بجمال المقطوعة وقوة الهواء.
وصلا إلى المطعم الأنيق، وأخفض ضيا صوت الموسيقى، وانتظر رد فعل روح.
فتحت روح عينيها في دهشة، وقالت:
ـ ليه وطيت الصوت؟!
ضيا: وصلنا.
روح: خسارة!
ضيا: عجبتك؟
روح: جدًّا! دي مزيكا من الجنة!
ضيا: شفتِ حلوة إزاي؟
روح: أنا كأني شايفة المشهد قصاد عيني والملايكة بتعزفها والناس داخلة وفود الجنة. هيَّ دي تشريفة الدخول. إيه الجمال ده يا ضيا؟!
ضيا: قصتها كمان فيها سحر وغموض!
روح: إيه قصتها؟
ضيا: تعالي ندخل وإحنا بنتعشى أحكيلك.
ديكورات المطعم لها طابع مغربي واضح، والأجواء والتفاصيل راقية جدًّا، والإضاءة خافتة، والموسيقى المختارة ناعمة ومسموعة بالكاد، والجو العام في منتهى الرقة.
روى لها ضيا القصص والحكايات عن تاريخ المغرب العربي، وكانت هذه القصص تحمل بين طياتها كثيرًا من الأساطير التي تناقلتها الأجيال. واستمعت روح بشغف، فطالما كانت تلك النوعية

من القصص تبهرها وتنقلها إلى عالم آخر، عالم الخيال الذي تجد فيه نفسها أكثر من عالم الحقيقة، فكل شيء ممكن ومباح، ولا حدود تمنع أي شيء، ولا قوانين تعترض.. عالم حر!
روح: إيه بقى حكاية المزيكا الرهيبة اللي سمعتهالي في العربية؟
ضيا: دي يا ستي «كارمينا بورانا».
روح: مين «كارمينا بورانا»؟!
ضيا: اسمها كده. «كارمينا بورانا» يعني أغاني «بويرن».
روح: هيَّ مش أغنية واحدة؟
ضيا: لأ، أربعة وعشرين.
روح: ياه! أربعة وعشرين؟!
ضيا: طب إنتِ عارفة إن لحد النهارده محدش عارف مين اللي كاتبها؟
روح: إزاي؟!
ضيا: مش قلتلك فيها سحر! هاحكيلك، بس خلينا نطلب الأكل الأول.
اعتادت روح طريقة ضيا في تولي مهمة اختيار الطعام، وكانت تثق في ذوقه، ولا تسأله ماذا اختار، ومع ذلك كان يحرص دائمًا على نيل موافقتها على اختياراته بعد شرح الأطباق. وفي كل مرَّة كانت تتساءل بينها وبين نفسها: «كيف يبرع في اختيار الأماكن والطعام إلى هذه الدرجة؟ وكيف أتناول أي شيء يطلبه بشهية واستمتاع إلى هذه الدرجة؟».

كانت روح تجد متعة في حكاياته وأحاديثه كلها، فله أسلوب بسيط على الرغم من ثقافته وغزارة معلوماته، أسلوب يجعل الإنصات إليه ممتعًا. إنها السعادة التي قالت له إنها تأتي وتذهب، تأتيها وهي بصحبة ضيا!
استطرد ضيا في حديثه عن «كارمينا بورانا» قائلًا:
ـ صلي بينا على النبي.
ابتسمت روح بسعادة وقالت:
ـ اللهم صلِّ على الحبيب طب القلوب وآله.
نظر ضيا باستغراب، وقال:
ـ دي صيغة تانية غير الأولانية!
ضحكت روح وقالت:
ـ مش قلنا فيه صيغ كتيرة!
ضيا: صح. اللهم صلِّ على الحبيب طب القلوب. بصي يا ستي، كان فيه دير قديم في ألمانيا، يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى، في بلد صغيرة اسمها «بنيديكتبورين»، بتبعد مائة كيلومتر تقريبًا عن جنوب ميونخ. في سنة ١٨٠٣ قرروا تجديد مكتبة الدير، وفي الأثناء دي عثروا على شيء ثمين؛ مخطوطة يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر، تحتوي على مائتين وخمسين أغنية مجهولة وثرية بأفكارها المتنوعة. الأغاني كانت مدونة باللغتين اللاتينية والألمانية، نشرها المسؤول عن المكتبة تحت عنوان «كارمينا بورانا» زي ما قلتلك، يعني أغاني «بويرن». من بين المائتين وخمسين قصيدة اللي في المخطوطة، اختار «كارل أورف» أربعة وعشرين قصيدة بس، سنة ١٩٣٦، وعرضها في فرانكفورت سنة ١٩٣٧، وألّف منها عمل موسيقي من أروع ما

يكون. الموسيقى مختلفة، تحسي إنها بتقتحمك، وفيها تضاد غريب بين الكلاسيكية والبربرية. معانيها كمان لما تقريها هتلمسي بنفسك سحرها، وهيَّ بتوصف القدر إنه زي القمر متغير، وبعدين تاخدك بقوة لوصف الحب الجارف اللي بيعصف بحياة البشر، وبالقوة نفسها ترجعك للورع الديني والحكمة، وفي وسط كل المعاني القوية دي تلاقي الكلام عن الشهوات والفقر والغنى والمجد والظلم. معاني كتيرة لازم تقريها بنفسك، مهما حكيتلك مش هيبقى زي ما إنتِ تحسي. أعتقد إن فيها سحر خاص، مش علشان أنا باحبها، لا، حتى «أورف» نفسه أوصى الناشر بتاعه إنه يهمل كل مؤلفاته اللي أَلِّفها قبل «كارمينا بورانا».

روح: واو! فعلًا قصة غريبة، سبحان الله! بتأكد إحساسي بيها. القصائد لاقوها في دير، واللي لحنها حبها للدرجة دي! تبقى أكيد موسيقى من الجنة!

ضيا: أُمَّال لو سمعتيها لايف، هتقولي إيه؟

روح: إنت سمعتها لايف؟

ضيا: حضرتها مرتين في حياتي، مرَّة في النمسا ومرَّة في ألمانيا، حاجة تانية خالص! إنتِ متخيلة يعني إيه أوركسترا من مائة عازف، وكورس من مائتين مغني ومغنية من أجمل الأصوات، وخمسين طفل بيشاركوا في الغناء، ده غير «السوبرانو»؟! سحر! فعلًا سحر!

«طريقة وصفه وشرحه للأشياء! وغزارة معلوماته وبساطته! وعمق شخصيته وأفكاره!».

هكذا انتابها الشرود وفكَّرت في أثناء لحظات الصمت التي أعقبت حديث ضيا.

روح: الله! يا ريت ربنا يكتبلي أحضرها في يوم من الأيام!

ثم صمتت لحظات وخرجت منها الكلمات بعفوية:

ـ إنت عارف إنك هتوحشني أوي لما أروح مراكش!

تفاجأ ضيا من كلمات روح، فقد رأى النساء في المجتمعات الشرقية لا يُعلنَّ عن مشاعرهن بوضوح، والإفصاح والتعبير عن المشاعر بهذه السلاسة كان أمرًا غير عادي بالنسبة إليه.

كان ضيا رجلًا على درجة كبيرة من الأدب والذوق، والثبات أيضًا، فلم يشأ أن يُشعر روح بأي نوع من الاستغراب، وفي الوقت نفسه لا يملك هذه الملكة التي تمكنه من الرد بالبساطة نفسها.

تمالك نفسه وقال:

ـ وإنتِ والله يا روح هتسيبي فراغ كبير وهافتقدك جدًّا! إنتِ مش راجعة قونيا على طول ولَّا إيه؟ إيه موضوع مراكش ده؟

روح: لازم أروح مراكش طبعًا، إزاي آجي المغرب وأمشي من غير ما أشوف حبيبي!

تغلب ضيا على تفاجئه من كلمة «حبيبي»، وتناول شيئًا من الطعام، ثم سألها بحرص:

ـ حبيبك؟

روح: أيوه، سيدي، شيخي. مش كلِّمتك عنه قبل كده؟

تنفس بهدوء وقال:

ـ المرشد بتاعك مش كده؟

روح: مظبوط.

ضيا: طب ليه بتقولي عليه حبيبي؟

روح: علشان هوَّ حبيبي!

بدهاء شديد حاول أن يصل إلى معلومة واضحة، فسألها:

ـ إنتِ بتحبي المرشد بتاعك يا روح؟ خلّي بالك، كتير أوي بيحصل خطأ توصيف لمشاعر التقدير والاحترام لما بتوصل مرحلة معينة، وبتصنف على إنها مشاعر حب!
ابتسمت روح وقالت:
ـ صحيح، أوقات بيحصل كده، بس أنا ما حصلش معايا، أنا متأكدة من مشاعري!
ضيا: تصوري، أنا باحسدك على فهمك لمشاعرك. أنا لما كنت في سنك كان عندي تخبط جامد، وتصورت إن أي مشاعر إعجاب أو حتى ود تبقى حب، وطبعًا مش محتاج أقولك ده اتسبب في أذى أد إيه لناس ملهاش ذنب غير إنها صدقتني، والتوابع كانت أكيد أشد وطأة! مريم مثلًا لسه بتدفع تمن تخبطي ده لغاية دلوقتِ!
روح: خلّيني بس أوضحلك حاجة الأول، أنا متأكدة من مشاعري صحيح، بس مش زي ما إنت فهمت، أنا عارفة إني باحب سيدي حب مختلف عن أي حب تاني حسيته في حياتي ناحية أي حد، لكن بالتأكيد مش حب ست لراجل! أنا فاهمة كويس أوي إن مش كل الناس بتقدر تستوعب علاقة المريد بشيخه، وشكل الحب اللي ممكن يربط بينهم، علشان كده مش هاوصفلك إحساسي بيه. تاني حاجة، اسمحلي أقولك إنت ليه عندك إحساس بالذنب تجاه مريم بالشكل ده؟ ليه طول الوقت بتلوم نفسك على حاجة إنت ملكش يد فيها أصلًا؟!
ضيا: إزاي مليش يد؟!
روح: طبعًا. إحنا أدوات لربنا، بيستعملنا علشان أقدارنا اللي مكتوبة قبل ما نتولد تنفذ. إنت فاكر إن لك من أمرك شيء؟! رُفعت الأقلام وجفت الصحف!
ضيا: اسمحيلي، الموضوع مش بالبساطة دي، لازم فيه مسؤولية لاختياراتنا وقراراتنا، ما ينفعش الناس تمشي تخبط في الحياة وتغلط وتقول ربنا عايز كده، وإلا ما كانش هيبقى فيه حساب وثواب وعقاب! كان ربنا دخلنا كلنا الجنة لأن محدش غلط! وكلنا عملنا أدوارنا اللي هوَّ خلقنا علشانها ومحدش غلط! مش كده ولَّا إيه؟
روح: أكيد كلامك فيه جزء كبير صح، بس فيه حاجة إنت مش واخد بالك منها خالص.
ضيا: اتفضلي.
روح: يعني إنت مثلًا لما كلمتني عن والدة مريم، قلتلي إنك ما قدرتش تكمِّل معاها أكتر من كده، وكمان قلت إن مريم كانت لازم تتربى في حضن أمها، مظبوط؟
ضيا: مظبوط.
روح: هوَّ ده بالظبط قصدي، إن إنت حسيت في قلبك إنك خلاص مش قادر، فاتصرفت زي ما إنت حاسس. كنت على وصل مع قلبك جدًّا، فقلبك إدى الأمر إن خلاص، فيه قرار لازم يتاخد لأن ربنا قال: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وإنت خلاص بقيت مش قادر تتحمل، فرُفع التكليف عنك، واستعملت حق ربنا وفرهولك في الأحوال اللي زي دي، علشان رحمته تعم، وهو الطلاق. في الوقت اللي كان ممكن تتجاهل إحساسك وتكمل في حياة إنت مش مرتاح فيها، وتتعب أكتر وتتعبها معاك. يعني استعملت حق ممنوح من الخالق لعبيده، إيه الغلط في ده؟!
ضيا: الغلط إني ظلمت ست ملهاش ذنب، وظلمت بنت بريئة برضو ملهاش ذنب، علشان أنا ما بقيتش قادر، مع إني

كان ممكن أتجنب كل ده لو كنت من الأول فهمت مشاعري مظبوط تجاه أم مريم، وكان زمانها دلوقتِ عايشة سعيدة مع راجل تاني، ومريم كمان كان زمانها عايشة مع أب وأم وسعيدة أكتر!

روح: ما كانتش هتبقى مريم، مريم دي حتة منك على حتة من أمها، يعني ما كانتش هتتوجد هيَّ زي ما هيَّ كده إلا لما إنت وأمها تتجوزوا! وبعدين الفرضية الوحيدة اللي إنت ساجن نفسك فيها دي جايبها منين؟ فيه مليون سيناريو غير اللي إنت قلته، كان ممكن يحصلوا لو ما كنتش اتجوزت أم مريم! مش كان ممكن مثلًا إنها ما تتجوزش خالص، وما يبقاش عندها أولاد، وتبقى حزينة، ونفسها تتجوز أي حد علشان يبقى عندها طفل؟ أو كان ممكن تتجوز واحد غيرك وما تبقاش سعيدة؟ وهكذا وهكذا آلاف الفرضيات. ليه ما تقولش إن ده شكل تجربة أم مريم في الحياة، وهيَّ كمان زيك مسؤولة عن إنها تسمع قلبها وتعمل اختياراتها بنفسها؟ وحتى قرارك إنك تسيب مريم لمامتها، برضو كنت متصل فيه جدًّا بقلبك، لأنك ما حبيتش تتصرف بأنانية تضرها وتاخدها من حضن أمها علشان تبقى معاك. فضَّلت إنها تحس بحب أمها وحنانها زي كل الأطفال، على رغبتك الشخصية. وحتى لو كانت مفتقداك في حياتها، فده شيء طبيعي، وبرضو جزء من شكل شخصية مريم. مين فينا عنده كل حاجة ومش ناقصه حاجة؟ كلنا لازم ينقصنا حاجة علشان الكمال لله وحده في كل شيء، مش بس في البشر لا كمان في الأحوال. هوَّ قال كده: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ». كل شيء، مش بس البني آدم. كل حاجة لها مواصفات ومقادير محددة، ولازم يبقى عندنا اليقين إن أحوالنا اللي إحنا بنعيشها مظبوطة بالميزان.

ضيا: ما أقدرش أنكر إن كلامك مريح، لأنه طبعًا بيريح ضميري، بس أرجع وأقولك الموضوع مش دايمًا بيبقى بالسهولة دي!

روح: طبعًا، بس لما بتتعلم تسمع قلبك بتفهم إن اللي بييجي من القلب بيبقى من ربنا، فحتى لو هوَّ مش قرار صائب من وجهة نظر الناس، فهو بالتأكيد خير لأنه اختيار رب الناس. وقتها بس هتنفذ، وكلك ثقة إن ده أصح قرار، حتى وإنت فاهم حكمته، ومش ممكن تندم ولا تجلد نفسك بعد كده زي ما بيحصل دلوقتِ.

ضيا: طب والست التانية اللي زهقتها برضو من غير ما يبقالها ذنب؟

ضحكت روح وقالت:

ـ ست مين تاني؟! همَّ كام واحدة؟!

ضيا: لا، اتنين بس. ما هو أنا قلت كفاية بقى وثُبت خالص عن موضوع الجواز ده!

روح: تحب تكلمني عنها؟

ضيا: مفيش حاجة تتقال، السيناريو المتعارف عليه لما راجل بيتجوز واحدة والجوازة بتفشل بيروح على طول للعكس. بعد ما طلقت أم مريم، اللي هيَّ كانت في نظري الزوجة المغربية التقليدية اللي ممكن تكون أساس متين ومتماسك لأي عيلة، قررت إن الستات الشرقيات في المجمل مش مناسبين ليَّ، أنا كنت شايف كده وقتها. في الوقت ده كنت باجهز نفسي علشان أسافر فرنسا أحضَّر الدكتوراه، وطبعًا لاشعوريًّا وجهت تفكيري إني لو هارتبط تاني لازم تكون أجنبية. وفعلًا اتجوزت بنت فرنساوية لطيفة كانت بالنسبة لي عكس أم مريم في كل حاجة، أو على الأقل تقدري تقولي أنا كنت بادور على ده بالذات، العكس. وأول ما لقيته قلت هيَّ دي، لكن برضو طلعت مش هيَّ دي! والمفاجأة كانت إن الراجل الشرقي اللي جوايا كل شوية يطلع ويحسسني إن مقدار الحرية اللي كان موجود في علاقتي بـ«ليلي» ما كانش كفاية للشعور بالسعادة زي ما كنت

متخيل، بالعكس ده أنا كنت باحس باحتياج شديد لدفء أكتر في العلاقة، كنت باحس إن مش ده الجواز. حسيت فجأة إني مش عارف أنا عايز إيه! دفء وارتباط الأسر الشرقية، ولَّا المساحة في العلاقات الأوروبية؟ لخبطة! هوَّ ده بالظبط اللي كنت حاسس بيه وقتها. طبعًا فكرت كتير، ولمت نفسي كتير، وقلت لروحي «إنت لا عاجبك ده ولا ده! أكيد المشكلة فيك إنت مش فيهم». وطبعًا قررت فورًا أنهي العلاقة وانفصلنا. كانت تجربة قصيرة صحيح، بس فهمت منها إن منظومة الجواز مش متناسبة معايا، وإن أنا كده مرتاح أكتر، وكمان أحسن علشان ما أظلمش حد تاني معايا!

روح: إنت قلت مش ده الجواز، تفتكر إيه هوَّ الجواز؟

ضيا: يعني، أنا ما باعرفش أتكلم أوي عن الحب والمشاعر والحاجات دي، أنا عارف إن الناس في كل الحضارات كانت بتمارس الطقس الاجتماعي المتعارف عليه بالجواز، للإبقاء على الجنس البشري على الأرض، لكن أنا باشوف إن الحكاية أعمق من كده. هوَّ مش واجب ولازم يتعمل، مش لازم زي ما الناس بيدخلوا جامعة بعد المدرسة إنهم بالضرورة كمان يتجوزوا بعد الجامعة، وبالضرورة يخرَّجوا للحياة بني آدم جديد لضمان بقاء النوع. مين اللي قال إن المنظومة لازم تمشي كده؟! ومين اللي حط كلمة «لازم» بين تنصيصين، وقال إن كل راجل وكل ست لازم يتجوزوا، ولازم شكل المنظومة يكون كده؟! منين جه الإلزام ده؟!

روح: سامعاك. كمِّل من فضلك!

ضيا: أنا باشوف إن الراجل والست مش المفروض يتجوزوا غير لو حسوا إنهم كيانين مستقلين. صحيح وجودهم مع بعض بيضيف لكل واحد، لكن بقاءهم زي ما همَّ ما ينقصش منهم حاجة! قصة إن الراجل بيكمل الست، وإن الست بتستلم الراية من أمه وتكمِّل هيَّ المشوار، وجملة إن الجواز نُص الدين، كل دي حاجات بتستفزني جدًّا!

روح: عندك حق.

ضيا: لازم الراجل والست يحسوا إنهم أصحاب مش شركاء. مفيش إلزام في الصداقة، ومفيش إنتاج للصداقة، وعلشان كده علاقات الصداقة بتدوم، لأن الطرفين ما بيحسوش إن فيه واجب لازم يتعمل أو مهمة لازم تنجز! الشركاء بيحسوا بكده، علشان كده شركات كتيرة بتنفض لو ما حققتش أرباح! أنا بقى ما عرفتش أحس بكده، لا مع أم مريم، ولا مع «ليلي»! والحقيقة علشان ما أبقاش باظلمهم، أنا ما شفتش التركيبة دي مع حد لغاية دلوقتِ! علشان كده باقول يمكن أنا اللي غلط، ما هو أكيد العالم كله مش ماشي غلط، وأنا الوحيد الصح! مش كده ولَّا إيه؟

ابتسمت روح برقة وقالت:

ـ اسمحلي أقولك إني معجبة جدًّا بوضوحك مع نفسك، وبوصفك البسيط للشكل اللي إنت شايفه للجواز، أو على الأقل خلينا نقول للشكل اللي يناسبك إنت للجواز! صحيح إنت اتكلمت بطريقة مختلفة تمامًا عن الطريقة اللي ممكن كنت أتصور إنها تعجبني، حتى مفرداتك اللي استعملتها: «بقاء النوع» و«منظومة»، بس فعلًا أنا معجبة جدًّا بوصفك!

شعر ضيا بطمأنينة من كلمات روح، وأحس بقبول لأفكاره لم يجده من قبل، فابتسم لها وقال:

ـ أشكرك.

أُعجبت روح للمرَّة الأولى بأفكار ضيا التي تبدو مختلفة في الشكل الخارجي عن أفكارها، لكنها في المضمون متفقة جدًّا مع ما تؤمن به ويختلف الغالبية العظمى من المجتمع عليه.

كانت تسمع كثيرًا من التعليقات والنصائح القلقة عليها، وترى نظرات الشفقة في أعين أحبائها، من فكرة أن تبقى وحيدة بلا عائلة، وأن يمر العمر بها من دون أن يكون لديها أطفال. لم يفهمها أحد في هذه النقطة المحورية. حتى نور كانت تشعر أنه ينتابه من حين إلى آخر قلق بشري عليها من أن تبقى سجينة هذا الحب الذي لا يعلم الاثنان مصيره. كانت تعلم أنه كثيرًا ما تمنى لها أن تقابل الشخص المناسب وتعيش حياتها كما تعيش كل النساء، لكنها أيضًا كانت ترى لديه الغيرة والقلق وربما الخوف إذا ما اقترب منها رجل، فهو في نهاية الأمر بشر وليس ملاكًا، يشعر بما يشعر به البشر، ويتمنى ما يتمنى البشر، وهو يُختبر في بشريته بها. وحدها روح، هي اختبار بشريته وسؤاله الإجباري على الأرض!

11

بدأت الدرجة الرابعة تُترجم على أرض الواقع تدريجيًّا، وبدأت الأشياء حول روح تتحول إلى مجموعة من المرايا، لتعكس صورًا مختلفة لها، وتريها نفسها من اتجاهات عدة لم تكن تدركها من قبل.

شعرت روح أن انشغالها في العمل، وأحاديثها المتكررة مع ضيا، أصبحا يمثلان تقليبًا لتربة أفكارها، وتهيئة لخروجها من منطقة الراحة التي نسجتها بلا وعي لتحمي نفسها من أي آلام لم تعتدها. عندما نعتاد آلامًا بعينها، فإن تأثيرها علينا لا يكون موجعًا كتأثير الآلام المجهولة التي لم نتعودها. كانت الأحداث كلها تدفع بها، وتسحبها إلى خارج منطقتها الآمنة من دون أن تدرك. فإذا كانت بالفعل مقبلة على تعديل مسار، فلا بد لها أن تقف على أرض صلبة، وتفتح عينيها وترى الأشياء على حقيقتها، قبل أن تقرر في أي اتجاه ستسير. يجب أن تنصت جيدًا إلى قلبها، ولا تسمح لأي تشويش أن يطمس الإشارة الواصلة إليها، لتتلقى الرسالة، وتمضي في الاتجاه الذي يرشدها الله إليه، حتى إن لم تكن تدرك الحكمة الكاملة والحقيقة الباطنية للرسالة؛ كي لا تندم وتجلد نفسها كما قالت لضيا. يجب أن تتأكد من أن الإشارة من الله، وليست من نفسها، لتواصل رحلة التسليم، وتكون يومًا ما روح التي وفت!

*

وجد نور صعوبة في التواصل مع روح في عالم الأرواح كما اعتاد معها فور أن يستحضرها في قلبه فتجيبه في عالمهما الخاص. وعلى الرغم من أنه كان عادةً ما يشعر بذبذبات ترشده إلى نوعية انشغالها عنه عندما يصعب عليه التواصل معها، ففي هذه المرَّة لم تكن لديه أي تخمينات، ولم يشعر بأي ذبذبات ترشده.

«تُرى، بماذا تنشغلين يا روح؟ لستِ مريضة والحمد لله، أشعر بكِ، وأعلم أنكِ بصحة جيدة، ولا شيء يؤلمني منكِ، لستِ حزينة أيضًا، فأنا لا أشعر بالاختناق في حلقي، والضيق في صدري، اللذين أُصاب بهما إذا زاد الحزن عليكِ! لستِ كذلك في حالك الروحانية السابقة ولا حتى أعلى منها، وإلا لتمكَّنتُ من التواصل معكِ كما تعودنا! ماذا بكِ يا روح؟».

هكذا كان نور يفكر في حال روح!

*

في تلك الأثناء قرر ضيف أن يأخذ خطوات عملية. فبينما تتناول روح إفطارها في مطعم الفندق في هدوء، وتتصفح الصحف الصباحية، فوجئت به أمامها!

روح: ضيف؟!

ضيف: إيه رأيك في المفاجأة دي؟

روح: هيَّ فعلًا مفاجأة! ما قلتش إنك جاي يعني؟

ضيف: فيه شوية شغل وأوراق هنا محتاجة توقيع، وجيت أخلصهم وألحقك في آخر يومين، وكمان نروح مراكش سوا.

روح: مراكش! إنت هتروح مراكش ليه؟!

ضيف: بقالي فترة ما أخدتش أجازة، وباسمع إن مراكش جميلة، فقلت فرصة نتفرج عليها مع بعض، مش فكرة حلوة؟
لم ترغب روح في الذهاب إلى مراكش مع ضيف، لكنها لا تملك أن تقول أو تفعل شيئًا، فقد وصل إلى المغرب وسيذهب معها سواء أرادت أم لم تُرد. تجنبت الإجابة عن سؤاله وقالت:
ـ حمد الله على سلامتك. واقف ليه؟ اتفضل اقعد.
ضيف: ها؟ قوليلي تحبي تعملي إيه النهارده؟
روح: أعمل إيه في إيه يا ضيف؟! أنا لسه عندي شغل في المعرض، وبعدين هاروَّح بدري علشان عندي حاجات كتيرة لازم ألحق أعملها قبل السفر! ما تشغلش بالك بيَّ، وخلص إنت كمان شغلك اللي جاي علشانه.
ضيف: إنتِ عارفة إن وجودك معايا بيسعدني، ومن فضلك إنتِ اللي ما تشغليش بالك بحاجة، شغلي يخلص في ساعتين، يعني باقي اليوم أنا تحت أمر الخانوه.
ابتسمت روح ابتسامة مفتعلة، وقالت:
ـ تسلم يا ضيف.
ضيف: يعني ما تحبيش تتعشي كسكس النهارده؟ أنا عارف إنتِ بتحبي الكسكس أد إيه، ودي بلده!
روح: مش عارفة أقولك إيه بجد، بس حقيقي مش هينفع، خليها لما نروح مراكش يمكن تكون الظروف مناسبة هناك.
ضيف: خلاص يا ستي، خلصي شغلك براحتك هنا، بس في مراكش خلي بالك مفيش شغل، يعني مش هتعرفي تتحججي بحاجة!
تساءلت روح بينها وبين نفسها وقالت: «لماذا لا تأتي الأشياء التي نشتهيها بهذه السهولة؟! ولماذا تأتي دائمًا الأشياء التي لا نرغب فيها بكل هذا الإصرار؟!».
ابتسمت لضيف، وقالت:
ـ ربك أعلم. بين الليل والنهار بتحصل عجايب!
كانت روح تريد أن تحافظ قدر استطاعتها على درجة السلام التي وصلت إليها في كازابلانكا، ولا تريد أن يُعكِّر صفو الأيام البيضاء التي تلونت بلون المدينة أي شيء. وفي الوقت الذي كانت تهرب فيه من قضاء الوقت مع ضيف، كانت تحرص كل الحرص على قضاء المزيد من الوقت مع ضيا.

*

ربطت الأيام الأخيرة في كازابلانكا بين روح وضيا أكثر فأكثر: مزيد من اللقاءات، ومزيد من الأحاديث المختلفة، ومزيد من جلسات الغرفة الزجاجية، وحافظ، وأبو فروة، والأغاني القديمة التي تسللت برشاقة إلى قلب روح وضيا، «سيناترا» و«داليدا»، «إلفيس بريسلي» و«خوليو إجلسياس»، «ديميس روسوس»، وغيرهم من المغنين، وموسيقى الجاز الخلابة التي لم تكن مجرد أغانٍ وموسيقى فحسب، بل كانت كأنها اختيرت لتنسج كلماتها وألحانها خلفيةً رقيقةً لعلاقة صداقة مختلفة ومتميزة، سماتها التحضر والاحترام المتبادل والرُّقي، ربطت العلاقة بين الروحين أكثر من ربطها بين رجل وامرأة.
في وقت قصير تخلَّى المهندس الناجح ضياء الدين عن ذلك القناع الذي كان يرتديه دائمًا ليحمي نفسه من الآخرين إذا ما رأوا قلب الطفل الذي يخبئه في داخله. لقد نسج ضيا أيضًا منطقة الراحة

الخاصة به، لكن بوعي كامل، واختار أن يكون الرجل الناجح الجاد القوي المدمن للعمل، والذي يحدد من يدخل حياته ومن لا يدخل، ليكون بمأمن من التعلُّق بالبشر وتوابع هذا التعلُّق. الآن، لم يعد المهندس ضياء الدين يشعر بأنه يحتاج إلى هذا القناع، أو يشعر بأي خطر، فتخلَّى عن قناعه من دون أن يعي، وأصبح ضيا، ضيا فقط، وليس المهندس الناجح أو الرجل الجاد الذي يحتاج إلى إظهار القوة.

وجاء يوم الأربعاء، يوم العشاء الأخير!

انتاب ضيا شعور غريب لا تفسير له: لا يريد لروح أن تمضي فتعود حياته كما كانت. شعر فجأة بضيق في حلقه كأنه يختنق. إنه يريدها. يريد هذا الشعور بالسلام الذي حدثته عنه ولم يشعر به إلا معها. يريد أن يصطحبها كل يوم إلى مكان جديد، ويرى نظرة عينيها الشغوفة، ويسمع أسئلتها الكثيرة كما لو كانت طفلة. نعم، إنه يريد شعور الطفولة الذي يملأها، ويحرك في داخله كل الأحاسيس التي نسيها منذ سنين طويلة. يريد إسعاد هذه الطفلة. يريد أن يستمع إلى فلسفتها المختلفة، وشرحها البسيط عن الحياة، وتقبُّلها لكل أفكاره بمنتهى الهدوء والرقة. حتى الصمت معها له طعم السلام، عرفه وذاقه معها مرَّة تلو مرَّة، وهما يجوبان شوارع كازابلانكا ليلًا سيرًا على الأقدام، وهما يجلسان أمام المدفأة يستمعان إلى الأغاني القديمة، ويبتسمان في صمت لكلماتها وموسيقاها الأخَّاذة.

شعر ضيا أنه كالطفل المتعلِّق برقبة أمه، ولا يريدها أن تذهب بعيدًا، وحدث نفسه: «هذا الشعور لا معنى له، ولا توصيف، ولا يندرج تحت أي منطق! هذا الشعور يجب أن ينتهي، وأودعها وداعًا يليق بهذه الصداقة الراقية والشراكة في العمل التي كانت ممتعة إلى حد الكمال!». هكذا قرر، وهكذا أرغم نفسه على عدم السماح لها بالمزيد من الإحساس.

*

شعرت روح أيضًا بضيق في حلقها، واختناق، كما شعر ضيا. هي أيضًا تعلَّقت بذلك الطفل الكبير المختبئ

خلف الرجل ذي الشعر الرمادي والوشم الصريح لدرجة الإعلان عن شخصية صاحبه. الرجل صاحب السلسال الذهبي الذي لم تسأله قَطُّ عما يُعلِّق فيه. ربما كُتب اسم ابنته «مريم» على هذا المستطيل الذهبي الصغير الذي يتدلى من السلسال. هكذا فكرت.

تعلُّقها بضيا كان مختلفًا عن تعلُّقها بكل مَن عرفتهم وغادروها، أو ربما هي التي غادرتهم كما غادرت نور. لم تتعلَّق به كجمال أخيها أو أمها أو أبيها أو نور بالطبع. دائمًا وأبدًا الفراق هو مصيرها المحتوم مع كل مَن أحبتهم وتعلَّق قلبها بهم. ويبقى الفراق بالموت على الرغم من قسوته أقل إيلامًا من فراق الأحياء، فمن الأسهل أن يأخذ الموت حبيبًا أو عزيزًا ويخبرك الله بوضوح برسالته: «لا مزيد من هذا الشخص، لم يعد موجودًا على الأرض، وقد انتهت العلاقة تمامًا». ولكن أن يظل هذا الشخص على الأرض ورسالة الله تقول: «لا مزيد من هذا الشخص حتى أأذَن، التزمي البُعد، التزمي الأمر»، أن تعلم أن أحبتك قاب قوسين أو أدنى منك لكن لا تستطيع أن تصل إليهم، فشعور صعب وثقيل على القلب والروح والنفس! إنه عين العذاب! هذه هي جهنم الدنيا التي تشتعل في قلوب المحبين المفترقين!

هكذا شردت وقالت: ««ڈ ژ ژ». نعم، لكل منا مجموعة من الأوامر في الحياة، ويجب أن يلتزم بها ليحقق استقامته. ولكن لماذا دائمًا الفراق؟! لماذا درسي دائمًا هو الدرس نفسه؟! أحُكِم عليَّ بالوحدة على الأرض؟! أهذا ما يجب أن أتعلَّمه؟! ألَّا أسكن لأحد ولا أبقى مع أحد؟! هل هذا يرضيك يا ربي؟ رجاءً! أخبرني، فأنا راضية بكل اختياراتك لي، لكن فقط أخبرني بحكمتك حتى لا تأكلني الحيرة، فالوداع يؤلمني. أُطيعك دائمًا وأبدًا، لكن الحكمة من الأشياء ليست شرط الطاعة، وحاشاني، ولكن ليطمئن قلبي».

كانت شاردة وهي تنظر من غرفتها إلى القمر الجميل المكتمل في سماء المغرب، لكنه بعيد أيضًا! والمحيط الجميل الكبير بعيد أيضًا! والنجوم المتلألئة في السماء في صمت ورقة، بعيدة أيضًا! كل الأشياء الجميلة بعيدة! دمعت عيناها، وجلست على الأرض في خشوع، وقد أحنت رأسها، وأغمضت عينيها، مناجية ربها بقلبها، ودموعها تجري برقة.

قالت: ما هذا؟

سمعت بقلبها:

ـ هذا تكليف وتشريف.

قالت: لكنه حملٌ ثقيل!

ـ لذلك هو تشريف.

قالت: وماذا إن تعبتُ؟

ـ إن أردتِ رفعتُ عنكِ التكليف.

قالت: وماذا عن التشريف؟

ـ متى رُفع التكليف رُفع التشريف.

قالت: خلقتني من طين، وخلقته من نور، وأمرت قلبي له بالسجود. سبحانك أيكون لي أن أعصي أمرك لي بالسجود؟

ـ ونفخت فيكما من روحي لأجمعكما ليوم لا ريب فيه.

قالت: إذن متى النفخ في الصور؟

ـ انتظار الموعد هو التكليف.

قالت: آتني ما وعدتني.

ـ إن أردتِ الآن منحتكِ ما تتمنين، وإن صبرتِ أُعطيتِ ما لا خطر على قلب بشر يوم التشريف.

قالت: بل الرفيق الأعلى. اخترت التشريف.

ظلت في مكانها هادئة حتى عادت إلى حالتها الطبيعية، بعد هذه المناجاة التي شعرت فيها بالرد الذي طمأنها قليلًا وأمدها بالصبر. خفت وطأة ضيق حلقها بعد البكاء والمناجاة، وقامت فغسلت وجهها، ووقفت أمام خزانة الملابس تختار أي فستان ترتدي.

اختارت فستانًا ملونًا اشترته في إحدى جولاتها السياحية من السوق القديمة في أيامها الأولى في كازابلانكا. كان الفستان يشبه فساتين بنات الغجر: كثير من الألوان، والخامات المتداخلة بتناغم، وحزامه الأحمر العريض الذي لفته حول خصرها الرفيع. بدت تمامًا كبنات الغجر في الروايات، بشعرها المموج الحر. نظرت إلى نفسها في المرآة، وتذكَّرت اليوم الذي اشترت فيه هذا الفستان الذي لم يكن البائع يعيره اهتمامًا، ويريد أن يبيعها إحدى العباءات المغربية ذات الشغل اليدوي الكثيف، والأغلى سعرًا بالطبع، لكنها أصرت على أن تشتري هذا الفستان الذي شعرت أنه يناديها

منذ وقعت عيناها عليه. ها هو يشبهها في نهاية هذه الرحلة التي أضافت إليها الكثير، ولونتها بألوان عديدة مثله. الليلة هي موعد ارتدائه. لم يكن مجرد فستان، بل كان لوحة ترسم حالها وتترجمها في ليلة مهمة. ليلة إضاءة القدر للمشهد كاملًا. ليلة ظهور كل المرايا.
في هذه الليلة كانت مكتملة كالقمر. أحاسيس كثيرة بألوان كثيرة، وليس فقط مشاعر القديسة باللون الأخضر. تجارب عديدة كخامات الفستان تجمعت بداخلها، تدفعها لتفتح عينيها وترى الأشياء بوضوح.

*

نزلت تنتظر ضيا في بهو الفندق كما اتفقا، وبداخلها رغبة قوية في ألَّا يذهبا إلى أي مكان، ويظلَّا في الغرفة الزجاجية، ويشربا الشاي المغربي، ويستمعا إلى الأغنيات القديمة، وتتمتع بالنظر إلى المحيط من خلف الزجاج، ويتكلما قليلًا، ويصمتا كثيرًا. لكنها لم تُرد أن تفسد عليه آخر ليلة لهما معًا، فربما لم يأكل طوال اليوم ويريد أن يتناول وجبة عشاء شهية في مكان يحبه، كما يفعل دائمًا.
توجهت إلى الأريكة التي اعتادت أن تجلس عليها، فوجدته قد وصل بالفعل. وقفت بعيدًا حتى لا يراها، ونظرت إليه في صمت. كان جالسًا على الأريكة، يتفحَّص هاتفه المحمول، يرتدي بنطلونًا كحليًّا وقميصًا لبني اللون وبليزر رماديًّا غامقًا. كانت هذه الألوان تناسب جدًّا لون شعره الرمادي، وتعطيه سحرًا خاصًّا. الأريكة منخفضة، وجلسته عليها تزيد من ملاحظة طول ساقيه. بدا كنجوم سينما هوليوود الأمريكية في الثلاثينيات: شعره الرمادي الطويل، وحدة أنفه، وطول رقبته، هيئته كلها تُذكِّرها بـ«كلارك جيبل» في فيلم «ذهب مع الريح»، الثبات نفسه، وأناقة الحركة نفسها.
اقتربت بهدوء، ووقفت أمامه صامتة، فرفع عينيه، ونظر إليها في هذا الفستان متزاحم الألوان، وهي تبتسم برقة وتحافظ على صمتها.
ابتسم أيضًا في صمت، ونهض يمد يده مُسلِّمًا عليها، وانحنى وقبَّل يدها برقة شديدة.
فهمت من قُبلته أنه يشعر بشعورها ذاته: التعلُّق نفسه، والإحساس بالسلام الذي يريد الاثنان البقاء فيه قدر الإمكان.
ظل محتفظًا بيدها، والصمت لا يزال يجلل موقفهما. الأعين فقط هي التي تتحدث، تقول بوضوح: سأشتاق إلى هذا السلام!
قطع ضيا الصمت، وقال:
ـ جاهزة؟
روح: إنت شايف إيه؟
ضيا: أنا شايف بطلة من الروايات اللي كنت باقراها زمان، خرجت من الورق وواقفة قصادي!
ابتسمت روح لمداعبته، وقالت:
ـ وأنا شايفة نجم سينما أمريكاني!
ضحك ضيا بشدة، وقال:
ـ سينما مرَّة واحدة؟
روح: وهوليوود كمان مش أي كلام!
صمت الاثنان لحظات، ثم قالت روح:
ـ يلَّا؟
أشار بيده لتتقدمه في اتجاه غير اتجاه الخروج من الفندق:

ـ اتفضلي!
استغربت روح، وقالت:

ـ أتفضل فين؟
ضيا: هتعرفي حالًا.
مضت بخطوات بطيئة وهي تنظر إليه باستغراب وعيناها تتساءلان: هل سنذهب للغرفة الإزاز؟
وصلا بالفعل إلى الغرفة الزجاجية، وعلى وجهها تتراقص ابتسامة إعجاب ودهشة.
فتح ضيا باب الغرفة، وأشار إليها بيده لتدخل، فدخلت ببطء، كأنها تدخل الغرفة للمرَّة الأولى، محدِّثةً نفسها: «كيف عرف أنني أريد أن أجلس معه هنا؟!».
وصلا إلى مكانها المفضل أمام المدفأة، وهي لا تزال مندهشة، لكنها سعيدة!
جلست على الأرض، مفترشةً فستانها الملون، وبدت كفراشة في هذا الفستان بالفعل!
جلس ضيا بجانبها يتأمل تلك النظرة الطفولية التي تختلط فيها مشاعر البهجة والسعادة والدهشة، وهو لا يعلم السبب، لكنه سعيد برؤية هذه النظرة للمرَّة الأخيرة، في اللقاء الأخير بينهما!
روح: ممكن أطلب منك طلب؟
ضيا: طبعًا.
روح: ممكن ما نخرجش النهارده نتعشى ونفضل هنا؟
ضيا: حصل.
روح: مش فاهمة!
ضيا: العشا النهارده هنا. أنا وإنتِ وحافظ بس!
لمعت عيناها أكثر وقالت:
ـ إزاي؟
ضيا: عادي. حجزت المكان لينا علشان محدش يزعجنا، ونقضي آخر ليلة هنا في هدوء. أنا عارف إنتِ بتحبي البحر والأوضة دي إزاي!
لم تُصدِّق روح! كيف شعر ضيا برغبتها التي لم تفصح عنها؟ وكيف ألهمه الله هذا الترتيب لتسعد بآخر ليلة في كازابلانكا في المكان الذي أحبته وارتبطت به جدًّا؟
ضيا: أنا طلبت العشا الساعة تسعة، بس لو جعانة أقول لحافظ يجيبه بدري.
روح: بالعكس، أنا مش جعانة خالص.
ضيا: لا، إزاي؟ ده أنا طلبتلك كل الأكل المغربي اللي بتحبيه! لازم تاكلي كل الأكل!
روح: أقولك حاجة يا ضيا؟
ضيا: قولي.
روح: أنا كان نفسي ما نخرجش النهارده ونقضي الليلة هنا قبل حتى ما أنزل وأعرف إنك عامل الترتيبات دي. والله!
ضيا: طب أقولك حاجة أنا كمان؟
روح: قول.
ضيا: أنا كان نفسي أقولك انزلي بلبس النوم الأبيض اللي كنتِ لابساه أول مرَّة قعدنا فيها في الأوضة دي سوا، بس قلت ما يصحش!

ضحكت روح بقوة، وقالت:
ـ يا خبر! ده أنا كل ما بافتكر اليوم ده باقول إزاي أنا عملت كده! شعري كان مبلول ونازلة بقميص النوم وحالتي كانت حالة!
ضيا: كنتِ شبه الملايكة!
ابتسمت روح برقة ولم تُعقِّب، ثم قالت:
ـ قولي بقى، إيه اللي لابسة في السلسال بتاعك؟ إيه اللي مكتوب؟
ضيا: حاجة باحبها!
روح: مريم؟
ضيا: لا. آية الكرسي.
ابتسمت روح لفطرة ضيا التي لا تزال تطغى عليه، وكأنه يقر بينه وبين نفسه بأنه مهما ابتعد فهو قريب. وقالت:
ـ مش مستغربة على فكرة.
ضيا: إنتِ ما بتستغربيش حاجة خالص يا روح، ودي أحلى حاجة فيكِ!
انتبهت روح إلى الأغنية التي تتردد أنغامها. كانت من أحب الأغنيات إليها، وهي إحدى أغنيات «إلفيس بريسلي» الرومانسية (can't help falling in love with you). كانت تتمايل برقة ونشوة وهي تستمع إلى الأغنية، وتنظر إلى البحر، وضيا يجلس بجانبها في هدوء، يشهد حالة السكر والهيام التي انتابتها بتأثير الأغنية، وكأنها ذهبت إلى عالم آخر!
لم يفهم ضيا ما يحدث مع روح، ولا كيف أنها تستمتع بأشياء بسيطة إلى هذا الحد، حتى إنها تبدو كالسكارى الذين ذهبت الخمر برؤوسهم. هذا ما كان يعرفه: الخمر هي التي تذهب بالعقول فقط. لم يكن يعلم أن مَن يغرق في بحار العشق يغترف من خمرة لا حدَّ لها ولا صحوة منها. وعلى الرغم من عدم فهمه، فإنه كان يحترم حالتها وإحساسها، ولم يشأ أن يُخرجها من هذه الحالة، بل استمتع بمشاهدتها، وتمنى لو بقيت كذلك أطول وقت ممكن!
كان ضيا مستمتعًا أيضًا بكلمات الأغنية على طريقته. مسته الكلمات كثيرًا، وكأن القدر يخبره بما يحدث معه. تساءل بينه وبين نفسه: «هل هو كما تقول الكلمات يقع في حبها بلا سيطرة منه؟ هل هذا ما يحدث بالفعل معه، أم أنه فقط تعوَّد على وجودها، وفور ذهابها سيعود كما كان؟». لم يجد ضيا إجابة على تساؤلاته. كان يُذكِّر نفسه دائمًا بأنه لا يصلح للحب، وأنه من الأفضل ألَّا ينجرف كما ينجرف النهر إلى البحر، تمامًا كما يحدِّثه «إلفيس» من العالم الآخر في الأغنية.
لم يجرِ على لسانيهما سوى كلام قليل، لكن الأعين قالت الكثير. روح أيضًا كانت تُذكِّر نفسها بأن مشاعرها ليست لأي أحد، مشاعرها ملك صاحبها فقط، ملك نور، وما تشعر به تجاه ضيا إنما هي مشاعر صداقة راقية ستظل تحملها في قلبها لهذا الطفل الكبير، ولن تُدخله غرفة ليست غرفته في قلبها.
كانت روح تنبه نفسها إلى مبدئها دائمًا: في القلب غرف كثيرة لم تُفتح كلها بعد، وها هي تفتح غرفة جديدة لضيا، وتُدخله فيها، وتتأكد من عدم المساس بمكان نور، فالقلب كله مكانه، وضيا سيسكن غرفة فقط، لكن البيت ملكٌ لصاحبه. كانت هذه التذكرة سلاحها الذي تحمي به نفسها، حتى لا تتفاجأ بأي مشاعر تجد نفسها مضطرة للتعامل معها، تمامًا كما فعلت مع آلامها. صنعت منطقة الراحة لمشاعرها مثل آلامها.

انتهت الأغنية، وابتسمت روح لضيا بعد انتهائها، وكأنها تعطيه تصريحًا بالكلام بعد مُضي حالة النشوة التي كانت فيها، فوجد نفسه يسألها:
ـ تفتكري، ممكن حد يحب من غير ما ياخد باله؟
روح: مش عارفة!
ضيا: يعني اللي بيحبوا بيحسوا بإيه؟
روح: بيحسوا إنهم طايرين.
ضيا: بيحسوا إنهم عايزين يبقوا مع حد معين بالذات، ومهما يقضوا وقت معاه يحسوا إنهم ما شبعوش منه؟
روح: أكيد.
ضيا: بيحسوا إنهم عايزين يبسطوه؟
روح: طبعًا.
ضيا: بيحسوا إنهم على راحتهم معاه؟
هزت روح رأسها موافقة.
ضيا: بيحسوا إن كل حاجة معاه طعمها أحلى؟
ابتسمت روح وقالت:
ـ ده حقيقي.

ضيا: طب ويتأكدوا إزاي إنه حب بجد، مش مجرد إعجاب وهيروح؟
روح: لما مش بيروح.
ضيا: مظبوط. لازم ما يتسرعوش زي ما «إلفيس» بيقول! مش هوَّ قال كده؟ الحمقى بس اللي بيتسرعوا وبيقعوا في الحب!
ابتسمت روح وقالت:
ـ بس «إلفيس» برضو قال إنه مش قادر يعمل حاجة! ومين بيقدر يعمل حاجة؟!
ضيا: محدش؟
روح مبتسمة:
ـ محدش!
ضيا: إنتِ عارفة إني بقالي أسبوع باصلي؟
تفاجأت روح وقالت:
ـ بجد؟!
ضيا: ما كنتش ناوي أقولك، بس مش عارف ليه لقيتني باقول!
روح: ليه ما كنتش عايز تقولي؟
ضيا: علشان دي حاجة بيني وبين ربنا، مش محتاج أعمل إعلان عنها.
روح: أكيد. ممكن أعرف إيه اللي خلَّاك تصلي؟
ضيا: أنا دايمًا كنت بابقى عايز أصلي، بس أنا عارف إن فيه آية بتقول: «لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ»، فكنت باقول يعني ما أبقاش باشرب خمرة، وكمان باعنِد مع ربنا وباقف قصاده، وهوَّ قالي ما تقفش قصادي وإنت شارب!

روح: وإيه اللي اتغير؟
ضيا: اكتشفت إني بقالي فترة ما شربتش، تقريبًا من أول ما بقينا بنتعشى مع بعض بعد الشغل. كنت مش باحب أشرب وإنتِ معايا. يعني، ما كنتش باحب أضايقك. أنا عمومًا، مش باشرب كتير، لكن باحب آخد نبيذ مع العشا.
روح: وبعدين؟
ضيا: لما لقيت نفسي بقالي شوية ما شربتش، قلت يبقى أنا كده أقدر أقف قصاده من غير ما أبقى مكسوف من نفسي!
ابتسمت روح من بساطة تعبير ضيا، وقالت:
ـ هوَّ معانا على طول، مش وقت الصلاة بس! هوَّ قال كده.
ضيا: إنتِ عارفة إني اكتشفت إني بارتاح أوي وأنا باصلي؟ زي ما تكون الصلاة كانت وحشاني!
روح: الحمد لله!
ضيا: تفتكري هافضل أصلي ولَّا هارجع أبطل؟
ابتسمت لسؤاله العفوي، وقالت:
ـ ما اعرفش! إنت اللي تقول!
ضيا: نفسي ما أبطلش صلاة!
روح: خلاص، يبقى مش هتبطل.
ضيا: طب لو رجعت أشرب تاني؟
روح: برضو إنت اللي تقرر!
ضيا: بس أنا مش باسكر يعني، هيَّ كاس واحدة مع الأكل.
روح: إنت اللي تختار. طعم النبيذ ولَّا الطعم اللي حسيته وإنت واقف بتصلي!
ضيا: بس هوَّ ما حرمش الخمرة، هوَّ قال اجتنبوها!
روح: الاجتناب أكتر من التحريم!
ضيا: إزاي؟
روح: لأن الاجتناب معناه إننا ما نقربش من الحاجة دي خالص، لأنه عارف إننا لو قربنا هنضعف. كل الحاجات اللي قال اجتنبوها عارف إن نفوسنا هتضعف قصادها، والنفس مش سهلة، مش دايمًا بنقدر نقاومها، كاس تجر كاس تجر كاس، زي بالظبط القمار، اللي بيلعبه ما بيقدرش يوقف نفسه، دور يجر دور يجر دور، ولأن هوَّ خالقنا وعارف أد إيه نفوسنا ضعيفة قالنا ما تقربوش خالص علشان مش هتعرفوا تقاوموا.
ضيا: تحليل منطقي، عمري ما فكرت فيها كده!
روح: كل حاجة في وقتها، ولما بيدوَّقنا حلاوة قربه، بنحس إن كل حاجة تانية بقى ملهاش طعم قصاد حلاوة الإحساس بقربه!
ضيا: بتتكلمي مع شيخك في إيه؟
ابتسمت روح، واستدعت وجه شيخها الجيلاني الصغير، وقالت:
ـ في كل حاجة، وأي حاجة.
ضيا: احكيلي.
روح: أنا ما قابلتوش كتير، بس أنا معاه على طول.

ضيا: يعني إيه؟
روح: يعني باحس بيه دايمًا، وباشوفه كتير في رؤى، وباتصل بيه بالتلفون.
ضيا: بتتكلموا في إيه؟
روح: الكلام بييجي لوحده، ممكن جدًّا أكون عايزة أكلمه في حاجة وأول ما أتكلم معاه ألاقي كلام تاني هوَّ اللي جه على لساني. بنتكلم عن الدنيا والحياة وربنا... وأي حاجة. أي كلام معاه بيبقى له معنى وفيه حكمة منه، حتى لما بيهزر معايا بتكون فيه حاجة مستخبية في الهزار، رسالة لازم أفهمها وما ينفعش تتقال غير كده! جميل، وكل حاجة منه جميلة!
ضيا: مبسوطة طبعًا إنك هتشوفيه!
روح: يااااه! ده أنا روحي سبقتني على هناك خلاص!
مازحها ضيا وقال:
ـ أُمَّال مين اللي قاعدة معايا دي؟
فمازحته هي أيضًا وقالت بدلال:
ـ ما هو أنا زي القطط بسبع أرواح!
ضيا: لا، إنتِ زي الملايكة. اسم على مُسمى!
ابتسمت روح في خجل ولم ترد.
قطع حديثهما حافظ مستأذنًا أن يبدأ بالتجهيز للعشاء. أحضر صينية نحاسية كبيرة وضعها على حامل خشبي على الأرض، وبدأ في رص أطباق المقبلات المتعددة. كانت روح تنظر إلى ضيا بإعجاب لرقته واهتمامه بكل هذه التفاصيل في آخر ليلة لهما معًا. تناولا أنواع الطعام المختلفة، وهما يتبادلان الأحاديث والضحكات كما لو كانا يريدان أن يختزلا هذا الشعور وهذه المتعة في داخلهما للأيام المقبلة التي لن يكون فيها مزيد من الأحاسيس.
انتهى العشاء الأخير بتناول الحلوى والشاي، وجاء وقت الفراق!
بدأ الصمت يزحف على الأجواء، والبسمة تتلاشى، والأعين تتعلق بعضها ببعض في شجن.
نهضت روح كأنها تقول لضيا لا بد من الذهاب. ونهض ضيا فوقف أمامها في صمت كمن لا يعرف كيف يُنهي اللقاء. مدت روح يدها، فقد اعتادت دائمًا على إسدال ستار النهاية لكل العلاقات.
فمد ضيا يده للسلام، وظل محتفظًا بيدها قابضًا عليها، وهو ينظر إلى عينيها في صمت.
روح: ما باحبش كلام الوداع! باحب أقول أشوف وشك بخير، باحس إنها بتدي أمل إن الوشوش هتتقابل تاني!
ضيا: هنتقابل تاني، صح؟
روح: اللقا نصيب!

ضيا: هاجيلك قونيا أو مصر. مكان ما تكوني هاجيلك!
روح: وأنا هاستناك!
سحبت روح يدها من يده لتنهي اللقاء وتمضي، فأمسك برأسها برقة وقبَّله، وابتسم لها وقال:
ـ خلِّي بالك على نفسك!
روح: إنت كمان خلِّي بالك على روحك!
*

صعدت روح إلى غرفتها بعد أن قضت ليلة ممتعة، شعرت فيها بأحاسيس مختلفة لم تشعر بها من قبل، ولا تعرف لها اسمًا. كانت حرة. هكذا شعرت. قالت وفعلت ما تريد من دون تفكير فيما يجب أن يُقال أو لا يُقال. كانت على سجيتها وفطرتها، لم تخجل أو تفكر كيف ستبدو وهي تجمع بين تضاد الطفلة والمرأة في كيان واحد، ولم تشعر أنها تريد أن تخفي أيًّا منهما.
ما هذا الشعور المريح؟ ما الذي يحدث؟ من أين أتت هذه المتعة والنشوة والاستمتاع، مع أنها لم تكن في أيٍّ من الأماكن أو الظروف التي اعتادت أن تضعها في هذه الحالة؟ إنها لم تكن تستمع إلى إنشاد، وليست في مجالس ذكر، ولا حتى في زيارة إلى أيٍّ من مقامات أولياء الله الصالحين أو آل البيت عليهم السلام! أين كانت القديسة بداخلها في هذه الأثناء؟ لماذا عاودها الشعور بالاختناق وكأن الهواء المحيط بها لا يكفيها للتنفس؟ لماذا عاودها ذلك الضيق في الحلق الذي شعرت به قبل العشاء مع ضيا؟ كان من المفترض أن تطغى المتعة التي شعرت بها، والأجواء التي كانت فيها، على أي مشاعر ضيق تسللت إليها قبل هذه الأمسية الرائعة!
راحت تتساءل عن ذلك وهي تجلس في شرفة غرفتها صامتة، بعد أن أخذت دشًّا ساخنًا، وارتدت أحد أردية نومها البيضاء، ولفت نفسها ببطانية كبيرة لتحتمي من البرد.
استنشقت آخر نسمات هواء كازابلانكا الرقيقة قبل أن تنام وتغادر في الصباح إلى مراكش.
سمعت طرقًا على باب الغرفة فتعجبت: «مَن سيأتي في هذا الوقت المتأخر؟!». فتحت الباب، فوجدت أحد العاملين في الفندق، فأعطاها ظرفًا. دُهشت وفتحته على الفور. وجدت «سي دي» ومعه رسالة، ففتحتها وقرأت:
فكرت إنك ربما سوف تفتقدين الاستماع إلى هذه المجموعة من الأغاني، فطلبت من الفندق أن يُعدَّ لنا نسختين منها، واحدة لكِ وأخرى لي. كنت أود أن أهديكِ شيئًا أجمل يُذكِّرك برحلتك إلى هنا، والأوقات الممتعة التي قضيناها معًا، لكني لم أوفَّق لشيء!
أعلم أنها مجرد مجموعة من الأغاني القديمة، لكنهم يقولون دائمًا: «old is gold ».
رحلة موفقة، وأمل في اللقاء، بإذن الله!
محبتي
ضيا
تأثرت روح بشدة من رقة ضيا، وضمت «السي دي» والرسالة إلى قلبها، فهذه المجموعة من الأغاني القديمة والذكريات التي ارتبطت بها في الغرفة الزجاجية، كانت تمامًا كما وصفها ضيا، كالذهب، بل ربما أكثر بكثير، أو لا تُقدَّر بثمن. فكرت أنها لم تُهدِه أي ذكرى منها! تأملت الغرفة من حولها، بحثت في كتبها وأشيائها والهدايا التي اشترتها من السوق القديمة عن أي شيء مناسب تتركه له في استقبال الفندق في الصباح قبل أن تغادر، لكنها لم تجد شيئًا. وفجأة، وهي تجول بنظرها في الغرفة، لمحت نفسها في المرآة، فتوقفت وتأملت شكلها لحظات ثم ابتسمت. إنها تبدو تمامًا كما كانت في تلك الليلة التي رآها فيها ضيا بقميص نومها الأبيض عندما جلسا معًا للمرَّة الأولى في الغرفة الزجاجية: الرداء نفسه، وشعرها المبلول ذاته. لم تفكر كثيرًا. التقطت الشال الفيروزي الذي وضعته على شعرها في تلك الليلة، وأخذت هاتفها المحمول والتقطت صورة لنفسها، وكتبت رسالة على الهاتف، وأرسلتها إلى ضيا مع الصورة:
فكرت إنك ربما سوف تفتقد هذا المشهد، ولست واثقة من قدرتي على تكرار هذه الهيئة في حال التقينا ثانيةً، فأردت أن تحتفظ وأحتفظ أنا بهذه الذكرى!

أخبرتني أنني كنت أبدو كالملائكة في هذا اليوم، ولم أخبرك بأن القلب مرآة الحق! رأيتني كذلك لأن عينيك رأتا بقلبك، فعكستا ما به عليَّ!
أشكرك على كل شيء أيها الضياء المنير بهدوء في المدينة البيضاء.
نظرت إلى نفسها في المرآة مرَّة أخرى، وأطالت النظر. للمرَّة الأولى تتمنى أن تفعل هذه التصرفات البسيطة: ترسل صورها، وتكتب الرسائل، وتشارك الأغنيات، وحتى النكات الساخرة، ولكن سترسلها إلى مَن؟!
نور، إنه دائمًا من ترى نفسها تفعل معه كل الأشياء، لكنه ليس من حقها، ولا تستطيع أن تفعل ذلك معه حتى لو كانت على يقين من أنه لها وأنهما سيجتمعان يومًا ما. شيء ما بداخلها تمنى لو أن نور ضعف، كما رأته في تلك الرؤيا وهو مُقدِم على خلع هالته والاعتراف لها بحبه قبل أن تغادر القاهرة إلى قونيا! تمنت لنور ألَّا يكون على هذا القدر من الروحانية ليكذب قلبه وتكليفه وتكليفها بعدم الاقتراب، ويتجاهل الأمر ويقترب! تمنت بشدة أن تسمعه يقول لها «أحبُّكِ» واضحة من دون الحاجة إلى إخفائها بين الكلمات، فهي ليست ملاكًا لتكتفي بلقاءاتهم في عالم الأرواح، إنها بشر، والبشر يعيشون على الأرض، وتحكمهم وتتحكم فيهم قوانين الأرض! تمنت أن تضعف هي أيضًا أمام ضعفه، وتخبره بأنها تحبه كما لم تحب امرأة رجلًا من قبل! تمنت أن يخطئا كما أخطأ أبواهما، آدم وحواء، ويأكلا من شجرة الرمان التي رأتها محرمة عليهما في إحدى الرؤى! تمنت أن يخطئا ويتوبا، فيتوب الله عليهما، كما تاب على أبويهما من قبل، فتقترب منه حتى وهي تدرك أن بعد القرب ستعاود البعد! تمنت الخطيئة وهي تعلم أنها أضعف من أن ترتكبها! للمرَّة الأولى تتمنى أن يمنحها الله القوة لتخطئ، وتتمنى في الوقت نفسه أن يحميها من وسوسة نفسها والشيطان، ويصرف عنها كل هذه الأماني الجميلة جدًّا والصعبة جدًّا والخاطئة جدًّا! لم تتمنَّ الخطيئة إلا للرحمة التي تسكنها! ولم تتمنَّ الضعف إلا لعلمها بأن الله سيغفر لها! تمنت الرحمة بأي شكل، أي شكل يختار الرحمن أن تتجلى لها به!
شعرت بالغضب من نور، ليس لارتكابه خطأ، ولكن لعدم ارتكابه خطأ!
أخرجت الآيباد، وبدأت بالكتابة:
أُعاتبك يا أغلى الناس، إذا كان لي حق العتاب.
أُعاتبك يا أحب الأحباب، بعد أن سلبتني كل الحقوق، حتى حقوق الأغراب على الأغراب.
أُعاتبك يا أرقى الناس وأرفعهم مقامًا، إذا كان للناس مقامات.
أُعاتبك وأُعاتب نفسي أن وسوست لي أن أُعاتبك يا نسل الأشراف.
أُعاتبك وأرجو أن تسامحني على عتاب قلبي لقلبك، فأنت أهلٌ للصفح عن مرتكبي الأخطاء.
أُعاتبك لأني يجب أن أُعاتبك، كي أُفرغ ألمي في بُعدك، وأستمر في عشقك بلا تساؤل أو اعتراض.
أُعاتبك وأنا أتذوق مرارة عشقك، وأنت بعيد، لا يجمعنا سوى ملكوت رب العباد.
أُعاتبك أن أشعلت الحب في روحي وروحك، ولم ترحم نفسك ونفسي، وأسلمت واستسلمت، ولم تكن من العاصين للرحمن.
أُعاتبك أن أرسلت روحك إلى روحي تخبرها مرارًا أنه لا سبيل من هذا العشق ولا فرار.
أُعاتبك أن زرعت اليقين في قلبي بأننا معًا، حتى إن لم نقترب، وحتى إن طال البعاد.
أُعاتبك أن ملأت عينيَّ وروحي وعقلي وقلبي، فلا أرى ولا أسمع ولا أشعر بسواك.

أُعاتبك أنك بهذا الجمال، ولا يوجد غيرك على هذا القدر من الجمال.
أُعاتبك أن تركتني من دون كلمة، أضمد جراحي وحدي، ولم تلتفت إلى قلبي المذبوح في هواك.
أُعاتبك أن قررت أنك عاجز عن إيجاد المفر مني والمفر إليَّ، ولم تشركني في القرار.
أُعاتبك أن اخترت لي ولنفسك، وأنت تعلم أننا لم يكن لنا في هذا العشق اختيار.
أُعاتبك أنك لم تعصِ ربك بأمر حبي، واليوم تعصي أمره بالرحمة، وأنا وأنت من عباد الرحمن.
أُعاتبك أن تختار تجليات الله في الأرض تبعًا لما تحبه وترضاه.
أُعاتبك أن سلبتني وسلبت نفسك حق الحب، وإنه لحقٌّ لا يمارسه إلا الأحرار، وأنا وأنت أرواح أحرار.
أُعاتبك أن أسقيتني حبك، حتى صار كياني كله ينبض بعشقك، ولا يرتوي إلا من شرابك أنت، وأنت تمنع عني وعنك الشراب.
أُعاتبك أن اعتنيت بقلبي كل هذا الاعتناء، فهزل وحزن وتعب في فراقك، ونزف من شدة الاشتياق.

أُعاتبك حتى إن لم يكن لي حق العتاب، فأنا بشر، أعصي الإله، وأستغفر وأتوب من الأخطاء، وعتابك خطأٌ، سأستغفر الله منه لأنك حبيب الرحمن.
أُعاتبك حتى إن كنت سلبتني حق الحب وحق الاختيار وحق القرار.
أُعاتبك لأني روح حرة تحبك، وتحاول أن تُبقي على أبسط حقوق الأحباب على الأحباب؛ حق العتاب.
أُعاتبك يا أحب الأحباب، وقلبي ينزف، وعيناي تدمعان، وأحشائي تحترق في بُعدك، ولا أقول إلا ما يرضي الله.
إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا لفراقك يا حبيب الروح لمحزونون!
وبشحنة الغضب التي شعرت بها من نور، ومن نفسها، وبتوسلها إلى ربها ليحميهما ويقويهما على نفسيهما وألا يضعفا، فضعفهما في نظرها خطأ سيغفره الله يقينًا، ولكن بالتأكيد لن تغفر هي لنفسها خطأها في حق حياة. حياة التي أحبتها بالفعل، لن تخونها، ولن تكون سببًا في تعاستها أو حزنها يومًا. هكذا دعت ربها في إحدى الليالي، ولا تزال تذكر الدعاء. طلبت منه ألَّا يسلب حياة سعادتها أبدًا، وألَّا تكون سببًا في ألمها، حتى لو كان في هذا ألم لها هي. وما الجديد؟! لطالما شعرت بالألم، ما الضير من المزيد منه؟ لقد تعودت عليه وأصبح جزءًا منها، جزءًا لا تحبه، لكنها لا تمتلك إمكانية تغيير الواقع، هي فقط تمتلك كيفية رؤيته، والتعامل معه، وترى أنه بالتأكيد لحكمة ربما لم تدركها بعد، لكن يومًا ما سيطلعها الله عليها، وستنسى كل ما تألمت منه لسنين، فالحياة على الأرض مجرد يوم أو بعض يوم، لكن الحياة الأخرى هي الخلود، ولا ألم فيها ولا حرمان.
بهذه المشاعر وقفت على الدرجة الخامسة التي وضعتها أمام حقيقة مُهمة اعتادت أن تهرب منها لسنوات.

الدرجة الخامسة
قد تظن أنك بالتخلِّي تصل إلى الله، وأنك بالوصول إلى الله تنال السلام.
فتُجبر نفسك على التجرد والابتعاد والزهد، وتجتهد للترقي، لتشبه الملائكة.

لكن في خضم هذا التمرين الشاق، لا تغفل عن بشريتك، ولا تلم نفسك، فأنت بشر.
التكليف على الأرض هو أن تصل ببشريتك إلى أنقى ما فيها، وليس أن تتخلَّى عنها.
بالتخلي تتجلَّى عليك الأنوار، وترى تجليات الله في الأشياء والأحداث، وتصل بالفعل إلى السلام.
لكنك لن تصل إليه حتمًا بالابتعاد عن الأشياء والأحداث.
إن ابتعدت، فأين سترى الله؟
«قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولً».
أنت بشر!

12

من المدينة البيضاء إلى المدينة الحمراء انتقلت روح.
وصلت إلى مراكش، وفي طريقها إلى الفندق كانت تنظر إلى الشوارع والبنايات من نافذة سيارة ضيف، الذي اصطحبها من كازابلانكا إلى مراكش. تذكَّرت أحد لقاءاتها مع ضيا، وهو يحدثها عن هذه المدينة، وعن الأماكن التي يجب ألَّا تفوتها زيارتها في رحلتها القصيرة لها. كانت تبتسم وتتذكَّر ملامح وجهه المهتمة، ونبرة صوته الجادة، وهو يحدثها عن أصل اسم «مراكش» الذي تحول من الكلمة الأمازيغية «البربرية» «أموراكش»، التي تعني «بلاد الله»، فأصبح «مراكش»، أو كما تُسمى «المدينة الحمراء»، أو «مدينة السبعة رجال» لوجود سبعة مقامات بها لسبعة رجال من أولياء الله الصالحين، كانوا أصحاب علم غزير، وتركوا خلفهم كثيرًا من المؤلفات وكنوز التفاسير، لتلاميذهم وللعالم كله وليس للمغرب فقط. لم تكن تعلم شيئًا عن مقامات الرجال السبعة، على الرغم من زيارتها السابقة لمراكش عندما قابلت شيخها منذ ست سنوات. تذكَّرت شعورها في هذه الليلة، وتأثير حديث ضيا عليها، وكيف أشعلت هذه المعلومات الحماس لديها للذهاب إلى مراكش، وزيارة مقامات الرجال السبعة.
كان طقس الشتاء في مراكش أشد برودة من طقس كازابلانكا، فالمدينة الحمراء اكتست باللون الأبيض، وجبل «ياغور» كان يظهر عن بُعد والثلوج تكسوه تمامًا.
ضيف: ما أعتقدش فيه تلج بينزل في القاهرة؟
روح: لا، خالص.
ضيف: بتحبي التلج؟
روح: ما أعرفش، بس باحب اللون الأبيض. عمري ما رُحت مكان فيه تلج، بس شكل الجبال روعة! سبحان الخالق!
ضيف: لما نرجع قونيا هيكون التلج ابتدى ينزل.
روح: أول مرَّة أعرف إن قونيا بينزل فيها تلج!
ضيف: تلوج كثيرة. الشتا في قونيا قارس.
ابتسمت روح، ولم تُعلِّق.
ضيف: هتروحي للشيخ النهارده، ولَّا هترتاحي وتروحيله بكرة؟
روح: مش هارتاح غير لما أشوفه، هاكلمه أسلم عليه وأستأذن في الزيارة، لو أذنلي النهارده هاروح طبعًا.
ضيف: الله كريم. كله خير إن شاء الله.
روح: كله بإذنه.
وصلت روح وضيف إلى الفندق، فاستأذنت روح منه لتختلي بنفسها.

*

ها هي روح في غرفتها، تريد أن تصفِّي ذهنها من زحام كازابلانكا وأحداثها ومشاعرها، وتستجمع نفسها قبل أن تقابل شيخها، تريد أن تعود إلى روح التي «كانتها» في القاهرة وقونيا!

تقع الغرفة في طابق مرتفع، ومنظر الجبال المغطاة بالثلوج عن بُعد كان في مواجهة الغرفة، فأصبحت تراها بوضوح. كانت الطبيعة تخاطبها وتصف حالها: جبال ثلج باردة حد العذاب، جميلة حد الإبداع، شاهقة حد العظمة، قوية، لكنها تذوب من أشعة الشمس، ولا تملك من أمرها شيئًا! مثلها تمامًا: تذوب كل يوم في حب نور حتى إن لم يقترب. تذكَّرت مقولة الرومي التي تصف مشهد الجبال والشمس وتصف حالها في هذا العشق الحارق، وكأن الرومي كتبها لهما منذ سنين. كانت المقولة تقول: «هكذا أود أن أموت في العشق الذي أُكنه لك، كقطع سُحب تذوب في ضوء الشمس».

عاودها الألم بعد أن سكن قليلًا في كازابلانكا، لكن الآن لا مزيد من المسكنات، الآن حان وقت لقاء الطبيب، ويجب أن يكون الألم حيًّا. أفرغت ملابسها في الخزانة، ووضعت كتبها ومصحفها وأشياءها القليلة بجانب سريرها، وفكت سبحتها الخضراء من يدها ووضعتها وهي تبتسم وتتذكر عندما أعطاها لها شيخها أول مرَّة عندما قابلته مع نور، ومنذ أن أخذتها منه وهي تشعر بأنها جزء منها ولا تستطيع أن تستغني عنها. تسبح عليها كل تسابيحها، وتبقيها بالقرب منها حتى وهي نائمة.

لاح أمامها وجه الشيخ الجيلاني بابتسامته الهادئة، وغمرتها الفرحة برؤية وجهه، وشعرت أنه يناديها، وربما يدعوها للزيارة اليوم وليس غدًا. قامت على الفور والتقطت هاتفها المحمول واتصلت بشيخها.

روح: السلام عليكم يا سيدي.

الشيخ الجيلاني: وعليكم السلام والرحمة يا بنتي. ربنا يحفظكم من كل سوء.

روح: ويديمك ليَّ في القلب وفوق الراس يا سيدي.

الشيخ الجيلاني: إيش أحوالك يا روح؟ إن شاء الله بخير؟

روح: بخير يا سيدي الحمد لله. أنا هنا في مراكش.

الشيخ الجيلاني: الحمد لله على سلامتكم. وصلتوا إمتى؟

روح: لسه حالًا.

الشيخ الجيلاني: طيب ترتاحوا ونشوفكم قريب بإذن الله.

روح: أنا مش هارتاح غير لما أشوف حضرتك! أقدر آجي دلوقتِ؟

ضحك الشيخ الجيلاني وقال:

ـ بس إنتِ لسه واصلة يا بنتي، وأكيد تعبانة من السفر!

روح: اللي يتعبني أكتر إني ما أقدرش أشوفكم يا سيدي!

الشيخ الجيلاني: نشوفكم بعد صلاة العصر إن شاء الله.

أنهت المكالمة مع شيخها وهي تكاد تطير من فوق الأرض، وتوجهت على الفور إلى الحمَّام، فأخذت دشًّا ساخنًا، ووقفت أمام خزانة الملابس لتنتقي الثوب المناسب للقاء الشيخ. لم تتردد، اختارت فورًا فستانها الأخضر، فهو يحب اللون الأخضر، وهو لونها المفضل، ويجب أن تتزين لهذا اللقاء المنتظر. أخذت شالها السكري والهدايا التي أحضرتها لشيخها من قونيا. كانت تتمنى لو تستطيع أن تحمل قونيا كلها إليه! اختارت تشكيلة من الحلوى التركية الشهية: الحلقوم بنكهاته المختلفة، والكستناء المغطى بالشوكولاتة الفاخرة، والحلوى الأكثر شهرة في قونيا «سكر مولانا». انتقت أيضًا سجادة يدوية مصنوعة على طريقة الفن التركي المندثر، الذي يغزل أجود أنواع

الصوف التركي النادر، ويعالجه بسوائل مخصوصة ليصنع منه قطعًا فنية متميزة. كانت السجادة عبارة عن لوحة لمئذنة الرومي الزرقاء الشهيرة. والهدية الأهم كانت السبحة التي اشترتها من أحد محلات الهدايا المجاورة لمسجد شمس التبريزي، وهي من الكهرمان الأصفر النفيس.

*

سبقت دقات قلبها خطواتها، وعيناها لا تريان شيئًا سوى وجه شيخها وابتسامته، وأذناها لا تزالان تحتفظان بكلماته وضحكته.

ركبت التاكسي من أمام الفندق، وحينما وصلت إلى منزل الشيخ وقفت تنظر إلى الباب النحاسي الكبير، وقبل أن تطرق الباب التقطت أنفاسها بهدوء لتستعد للمقابلة، ووضعت شالها على رأسها، ثم طرقت الباب. خرج لها الحارس، فاصطحبها إلى المضيفة الملحقة بحديقة البيت، ودق الباب بأدب، ثم أدخلها بعد أن أخبر الشيخ بوصولها فأذن لها بالدخول، ثم انصرف.

رأت مكتبة كبيرة تغطي أحد جدران الغرفة وتعج بالكتب، وبقية الجدران عُلِّقت عليها آيات قرآنية وصور لأكابر شيوخ الصوفية. وكانت الأرضية مغطاة بسجادة كبيرة حمراء قانية تكثر فيها النقوش والألوان. وفي مواجهة الباب وصدر الغرفة جلس الشيخ على الأرض فوق الجِلسات المغربية المعروفة، في جمال وهيبة ووقار، مبتسمًا لروح وناظرًا إليها عن بُعد. لمعت عينا روح عند رؤية سيدها، ومضت إليه وابتسامتها تعلو وجهها وقلبها يدق بقوة.

وقفت أمامه في أدب، وأحنت رأسها، وقالت:

ـ السلام عليكم يا سيدي.

الشيخ: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا روح. اتفضلي يا بنتي.

جلست روح في أدب أمام الشيخ جلسة التشهد، وهي تشعر برغبة عارمة في أن تُقبِّل يده، لكنها تعرف أنه لا يسمح بذلك إلا للرجال فقط، وهي تحترم آداب المريد مع شيخه.

الشيخ: زيارة مباركة بإذن الله.

روح: اللهم آمين يا سيدي، ده كفاية إني أشوف حضرتك، هوَّ فيه بركة ولَّا جمال أكتر من كده؟!

الشيخ: فيه يا بنتي فيه. ربنا يوعدك ويرزقك. لازم تطمعي في البديع خالق الخلق، مش في مخلوق أيًّا كان، وما تكتفيش بحد.

روح: بس أنا مين علشان أطمع في اللي أكتر من كده! ده كرمه عليَّ زيادة أوي. كريم والله.

الشيخ: لا ما تقوليش أنا مين ولا أنا فين، كلنا واقفين على الباب، ومحدش عارف مين هيتفتحله قبل مين ومين هيفضل على الباب!

روح: كلنا؟!

الشيخ: كلنا يا بنتي. كلميني عن أحوالك في قونيا.

روح: في نعمة والله يا سيدي. ربنا دايمًا بيدبرلي كل حاجة أجمل مما أتخيل وزيادة، مش بس وداني أعيش عند حبايبي، لا، ده كمان جابني عندكم هنا في مراكش، منة وفضل منه وحده! مش باقول لحضرتك كريم!

الشيخ: يدبر الأمر، هوَّ قال كده.

روح: صح يا سيدي، قال.

مدت روح يدها مقدمة الهدايا إلى الشيخ، وقالت:

ـ أنا جايبة لحضرتك حاجة بسيطة من ريحة الحبايب من عند سيدي شمس ومولانا الرومي.
الشيخ: إنتِ عارفة يا روح إن أنا ما باخدش هدايا! ليه تتعبي نفسك وتجيبي حاجة؟
روح: عندنا في مصر بنقول «النبي قبل الهدية»، وحياة سيدنا النبي ما تكسفني يا سيدي، دي حاجة بسيطة، ده أنا لو كنت أطول أجيب قونيا كلها كنت جبتها! وبعدين أنا ما جبتش حاجة، ده سيدي شمس ومولانا همَّ اللي باعتينها.
ابتسم الشيخ لروح وأخذ منها الهدايا، وقال:
ـ وريني يا ستي باعتين إيه الأكابر.
كان يتفحص الهدايا وهو يبتسم، وكأنها فعلًا مرسلة من شمس التبريزي وجلال الدين الرومي، وقال:
ـ حلويات؟ طبعًا ضروري. كمان سبحة؟!
فرك السبحة بقوة بين يديه وشمها، وقال:
ـ الله! كهرمان! وإيه ده؟ سجادة؟ مئذنة مولانا؟ مدد!
قبَّل السجادة وقال همسًا:
ـ قبلنا. ربنا يبارك فيكِ يا روح ويرضى عنك ويرضيكِ.
روح: ويديمكم لي يا سيدي، ويزيدكم نور على نور.
أمسك الشيخ بالسبحة وهو يتمتم بتسبيحاته، وروح تنظر إليه في أدب وتبتسم فقط، إلى أن نظر إليها وابتسم مرَّة أخرى وكأنه يعطيها الإذن بالكلام والإفصاح عما جاء بها في هذه الرحلة.
روح: سيدي، أنا شفت رؤيا حلوة أوي، أنا مش عارفة هيَّ رؤيا ولَّا إيه بالظبط، هيَّ حاجة غريبة أول مرَّة تحصلي، بس حاجة حلوة.
الشيخ: ما شاء الله.
روح: أنا شفت سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم.
ذاب الشيخ من ذكر سيدنا محمد، وأغمض عينيه من الهيام، وقال:
ـ يا الله! عليه الصلاة والسلام.
صمت لحظات ثم فتح عينيه وكأنه عاد من مكان آخر، واستطرد قائلًا:
ـ شكله إيه؟
روح: قمر. قمر يا سيدي. عمري ما شفت حد جميل كده!
ابتسم الشيخ برقة لروح، وقال:
ـ إن كان سيدنا يوسف أخذ شطر الجمال، فسيدنا محمد الجمال كله!
روح: ولَّا ابتسامته يا سيدي، حاجة كده مش زي أي ابتسامة، فيها... فيها... مش عارفة، فيها راحة، فيها جمال، فيها بسط... أيوه، هوَّ ده اللي أنا حسيته: بسط.
الشيخ: ما شاء الله! قالك حاجة؟
روح: لا، بصلي وابتسم بس. لكن فيه حاجة يا سيدي!
الشيخ: حاجة إيه؟
روح: هوَّ كان جايلي صحيح، بس على هيئة حد تاني.
الشيخ: حد مين؟

صمتت روح لحظات في خجل، ونظرت إلى الأرض، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى الشيخ، وقالت بصوت خافت:
ـ كان جايلي في هيئة نور!
نظر الشيخ إلى روح نظرة فاحصة وصمت. كانت روح تنظر إليه متلهفة لسماع أي رد، أي تفسير، أي إجابة، لكل الأسئلة التي جاءت تحملها من قونيا منذ رأت هذه الرؤيا، وكتمتها كما تكتم كل شيء بداخلها، لكن الشيخ الجيلاني لم يعطها أي رد، بل زاد حيرتها بصمته، وأشعل البركان الخامد بداخلها.
لم تستطع روح أن تسلك سلوك المريد وتحترم صمت شيخها ولا تسأل عن أشياء إن تُبْد لها تسؤها، فاندفعت وسألت:
ـ ده معناه إيه يا سيدي؟ ها؟ معناه إيه من فضلك؟
أخذ الشيخ نفسًا عميقًا، وتلاشت الابتسامة من على وجهه، واستمر في التسبيح على السبحة الكهرمان، ناظرًا بتركيز شديد في اتجاه غير اتجاه روح. كانت روح تنظر إليه وكل ذرة في كيانها تحترق بلحظات الانتظار، وعيناها تلتمسان منه شيئًا يطمئنها.
الشيخ: إنتِ عارفة الكهرمان ده غريب أوي، سبحان الله! آية! آية لازم الواحد يتفكر فيها ويتعلم منها. تقربي منه النار شوية يطلَّع ريحة ولا أحلى من كده! ومع إن النار دايمًا عذاب وبتحرق، بس نار عن نار تفرق، واحتراق عن احتراق يختلف. في التوراة سيدنا موسى لما شاف النار من بعيد وقرَّب منها، شاف حاجة غريبة، شاف إن النار آيدة في شجرة. تصوري؟ شجرة! والشجرة ما بتتحرقش من النار، بالعكس، كل ما النار كانت بتزيد كانت الشجرة بتزداد خضرة! سيدنا موسى خاف، وفهم إن النار دي مأمورة. عمرك شفتِ شجر يزداد خضرة من النار؟ فيه احتراق يطلَّع أحلى ما في الحاجة زي الشجرة وزي الكهرمان. الكهرمان وهوَّ في إيدك بتسبحي بيه ولَّا ماسكاه بحنية ما تشميش ريحته، لكن لما تدوَّقيه النار تشمي العجب! جمال يطلع منه ما تعرفيش كان فين قبل ما النار تقربله. النار مأمورة تطلَّع أحلى ما في الكهرمان. آية! مش كده؟
كانت روح تنظر بتركيز شديد إلى الشيخ، وتحاول فهم كلامه.
أجابت الشيخ بأدب:
ـ طبعًا يا سيدي.
الشيخ: العشق زي الكهرمان، بس مش أي حد يعرف العشق. ممكن ناس كتيرة تعرف تحب، لكن العشق ده حكاية مختلفة. آية تانية! بييجي العشق للي يستحمله!
روح: يستحمله إزاي يا سيدي؟
الشيخ: أكيد. العشق تكليف، ولا تُكلَّف نفس إلا وسعها.
روح: الله!
الشيخ محذرًا ومشيرًا بالسبابة:
ـ بالظبط. الله. العشق تجلي للفظ الجلالة «الله». الوله. مين بقى اللي يتحمل التجلي ده غير اللي ربك يأذنله! قلوب العارفين بس هيَّ اللي تتحمل. هوَّ قال كده. السماوات والأرض أبين أن يحملن الأمانة وحملها الإنسان. حملها العارف بالله اللي ربك أذنله. كل حاجة بالإذن يا روح، ومفيش حاجة بتحصل من غير ما ربك يأذن. سيدنا موسى سأل ربنا الرؤية، لكنه ما استحملش التجلي،

وخَر صعقًا من تجلي الله. أما الحبيب، فدخل الحضرة بالإذن من الله وكان قاب قوسين أو أدنى. مفيش حاجة بتحصل من غير إذن خالقها. العشق

والكهرمان كمان خلق، وما يطلَّعوش أحلى ما فيهم غير لما يأذن ربهم، يسخر النار ويستعملها علشان الجمال المستخبي يطلع. إنتِ مش مذاكرة سيدك الرومي ولَّا إيه؟ هوَّ مش قال: «أنا لم آتِ لأعطيك شيئًا جديدًا، لقد أتيت لأُخرج جمالًا لم تكن تعرف أنه موجود فيك»؟

روح: صح يا سيدي، قال.

الشيخ: ما قلتليش بقى، بتحبي الكهرمان؟

أفاق سؤال الشيخ المباشر روح من حالة الهيام التي انتابتها، فردت:

ـ أيوه، باحبه أوي.

الشيخ: شميتِ ريحته قبل كده؟

ابتسمت برقة وهزت رأسها نافية. فأشار إليها أن تقترب منه، وأعطاها السبحة، والتقط علبة ثقاب موجودة بجوار عيدان البخور المشتعلة بجانبه على المنضدة، وأشعل عودًا، وقرَّبه بحرص من إحدى حبات الكهرمان في السبحة، وأطفأه سريعًا، وأشار إليها أن تقترب وتشم. شمت روح وابتسمت للشيخ في صمت.

الشيخ: شُفتِ ريحته جميلة إزاي؟ بس حكمته إنها ما تطلعش غير بالنار!

هزت روح رأسها موافقة على كلام الشيخ الذي فهمت منه معنى الرؤيا ومعنى قصة حبها هي ونور. فهمت أن عذابهما وتكليفهما هما نارهما التي اختارها الله لهما ليُخرج منهما أجمل ما فيهما بالاحتراق، ويتحول كل شيء إلى رماد، ويبقى فقط ما لا يحترق. الله. روح الله في كلٍّ منهما. ويصلان إلى الفناء في الله.

تذكَّرت روح كلمات كتبتها عندما عادت من هذه الرؤيا الجميلة:

فكيف لي أن أتذمر؟ وحاشاني أن أكون لمحمد من العاصين أو أفر من الاختبار.

نهض الشيخ واقفًا، ففهمت روح أن شيخها أنهى الزيارة، بعد أن اطمأن إلى أنها استوعبت كلامه، وحصلت على أجوبة أسئلتها التي جاءت بها من قونيا.

نهضت مسرعة، ووقفت مبتسمة أمام شيخها الذي مد يده إليها بالسبحة الكهرمان، وقال لها:

ـ خلِّي السبحة دي معاكِ علشان تفضلي فاكرة إن الكهرمان الحقيقي بس، هوَّ اللي بيطلَّع ريحة.

تفاجأت روح من إعادة الشيخ السبحة لها، وقالت:

ـ بس يا سيدي دي بتاعت حضرتك، وحضرتك بتحب الكهرمان، وأنا جايباهالك من عند سيدي شمس!

الشيخ: يعني سيدك شمس هوَّ اللي باعتها؟

روح: أيوه.

الشيخ: وفيه حد يقول لشمس التبريزي لأ؟

فهمت روح أنها حملت السبحة من هذا المحل الصغير بجوار مسجد شمس التبريزي لتتلقى بها درسها من شيخها في الدنيا، وتسمع كلماته بأذنيها، وتحفظها في قلبها، ثم تحتفظ بالكهرمان؛ ليُذكِّرها كلما أرهقها عذاب بُعدها عن نور بأن العشق تكليف، ولا تُكلَّف نفس إلا وسعها. أخذت السبحة وقبَّلتها، وابتسمت لشيخها امتنانًا وشكرًا.

روح: سيدي، أنا ناوية أحضر صلاة الجمعة والخطبة معاكم بكرة بإذن الله، أقدر أشوف حضرتك بعد الصلاة؟
الشيخ مداعبًا روح:
ـ إنتِ مش شُفتيني النهارده خلاص؟
ابتسمت روح وقالت:
ـ أنا ما أشبعش من حضرتك أبدًا!
الشيخ: ربنا يبارك فيكم، تعالي بكرة وربنا ييسر.
مضت روح بعد مقابلة الشيخ وسماع حديثه وهي في حالة من النشوة، فمقابلة المريد لشيخه لها تأثير مختلف عن مقابلة أي شخص عزيز، مقابلة الشيخ والحديث معه إشباع على المستويين الروحي والنفسي.

*

لم تُرد روح رؤية أحد، أو الحديث مع أحد، بعد مقابلة شيخها. أرادت فقط أن تجلس في غرفتها، وتغمض عينيها، مستعيدةً الرؤيا التي رأت فيها الحبيب متمثلًا في حبيبها، ومستعيدةً حديث شيخها. أغلقت هاتفها المحمول لتقطع على ضيف أي احتمال للوصول إليها، وفصلت تلفون الغرفة، واستلقت على سريرها تحتضن السبحة الكهرمان. لكن عقلها لم يدعها تهنأ بهذه المشاعر، ولم يتركها وسواسها في سلام بعد اللقاء!
«قصاصة تل، وسبحة كهرمان! أحلامكِ التي تختزنينها في عقلكِ الباطن، وتستدعينها كلما احتجتِ إلى مُسكِّن! مجموعة رموز تترجمينها كما تُحبين، لتُرضي أحاسيسكِ ومشاعركِ تجاه شخص يحيا حياته ويمضي بها، وأنتِ وحدكِ تعيشين في الأوهام! أهذا حقًّا ما تريدينه لنفسكِ؟ الحياة داخل وهم من صُنع خيالكِ؟ أتُطلقين على هذه الأحلام والرموز قصة حب فعلًا؟ إذا كانت كذلك، فهي بالتأكيد قصة حب من طرف واحد!».
انزعجت من هذا الوسواس بشدة. هذا الصوت يأتي من داخلها هذه المرَّة، وليس على لسان ضيف! انزعجت، لكن سريعًا ما تدخَّل قلبها. ذكَّرها بنظرة عينَي نور إليها، وبنبرة صوته وهو ينطق اسمها، وإحساسها به، وإحساسه بها، وتعليمه لها أن تثق في قلبها. فهل بعد أن درَّبها على استشعار اليقين والإيمان به، تشك في حبه لها؟ هل بعد أن علَّمها الفرق بين الرؤيا الصادقة والأحلام، تُكذِّب كل البشارات التي بشرها بها الله؟ أبدًا. إن رؤياها رؤيا صادقة، وليست أحلامًا، والرؤيا الصادقة حق بإذن الله.
نهضت ووقفت أمام المرآة، تنظر إلى نفسها في تحدٍّ لوساوسها. وقفت تنظر إلى نفسها في فستانها الأخضر، وقد وضعت السبحة الكهرمان حول عنقها، فزادتها جمالًا وسحرًا مع سحر اللون الأخضر. ابتسمت وداعبت خصلات شعرها بيديها، واقتربت من المرآة قليلًا، وقالت لنفسها: «مولانا الرومي بيقول «العشق كالوضوء، إن تشككت فيه نُقض»، وأنا باقوله «صح يا مولانا، العشق كالوضوء، إن حضر فيه الماء بطل التيمم، ونور ماء طهور مغتسل بارد لقلبي، ولا يجوز التيمم في حضور الماء الطاهر»».
أشعلت عود ثقاب، وقرَّبته بحرص من حبات السبحة الكهرمان كما فعل الشيخ، ثم أطفأت النار وأمسكت السبحة بيديها الاثنتين، وقرَّبتها من أنفها، وأغمضت عينيها، واستنشقت رائحة الكهرمان بقوة. شمتها كلها، وملأت منها رئتيها، وهي تبتسم كما لو كانت تشم رائحة قصة حبهما المحبوسة

في الكهرمان ولا يعلمها إلا الله وهما، ولا يشم عبيرها إلا هما. وبرائحة الكهرمان شعرت بنور. أخيرًا استطاع الوصول إليها بعد محاولات تواصل عديدة لم تُفلح في كازابلانكا. ابتسمت أكثر، كما لو كانت تراه بالفعل، ولم تفتح عينيها، ولم تترك السبحة الكهرمان، وكأنها تمسك بوجهه وتحدثه في عالمهما الخاص.
قالت: أفتني، فأنت أهلٌ للفتوى.
قال: اسألي.
قالت: ماذا كان ما كان؟
قال: تجلٍّ.
قالت: هل انتهى؟
قال: وهل الله ينتهي؟
قالت: أستغفر الله!
قال: كذلك تجلياته سبحانه!
قالت: لا أراه!
قال: بل يتجلَّى بصورة أخرى.
قالت: أرني.
قال: مَن طلب قبلكِ الرؤية خَر صعقًا.
قالت: إذن، كيف أتأكد من وجوده؟
قال: أرأيتِ الله؟
قالت: لا.
قال: وكيف أنتِ به مؤمنة؟
قالت: عرفه قلبي.
قال: إذن، اسألي قلبكِ.

قالت: أفتني رحمةً!
قال: الله باقٍ، وتجلياته باقية.
قالت: إذن، ذلك التجلِّي لا يزال باقيًا أيضًا؟
قال: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ».
أخرجت زفيرًا بطيئًا، وعادت من اجتماعها بأصلها، وقالت لنفسها همسًا: « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ».
نامت بفستانها الأخضر، وفي رقبتها السبحة الكهرمان، ويدها مطبقة عليها بقوة كما تطبق على كل شيء له علاقة بنور. ليت هذه الحبات تنطق وتحدثها بصوت مسموع، وتقول لها إنها ليست أوهامًا، وإنها ليست قصة من نسج خيالها وحده! لكن حبات الكهرمان كانت صامتة وعاجزة على أن تؤكد أو تنفي! مجرد حبات من الكهرمان الأصفر تحبس العطر بداخلها، كما تحبس هي حبها لنور، وكلاهما يحترق في صمت ليُخرج أجمل ما فيه!
استيقظت روح لصلاة الفجر الأولى في مراكش، وجلست تتلو أورادها وتسابيحها أمام شرفة غرفتها وأمام جبال الثلج. وبعد أن انتهت من أورادها الصباحية، حاولت النوم قليلًا لكنها لم

تستطع. شيء ما بداخلها كان حيًّا ويرفض النوم. شعرت بقبضة في معدتها، فاندهشت وتساءلت: «لماذا أشعر بهذا الشعور؟ ومن أين أتى؟ أنا الآن بجوار شيخي، والمفروض أن أكون أكثر طمأنينة وراحة! ما هذا الإحساس؟». حاولت أن تتجاهله، وتُرغم نفسها على النوم قليلًا، لكنها أيضًا لم تستطع.

*

نهضت روح، واتصلت بغرفة ضيف لتبدأ يومها بشكل طبيعي:

ـ صحيتك؟

ضيف: يا صباح الأنوار! أكيد لأ. إنتِ عارفة، أنا بانام قليل. إنتِ نمتِ كويس؟

روح: الحمد لله.

ضيف: جاهزة لمقابلة شيخك؟ أكيد مستعجلة. يا بخته!

روح: يا بختي أنا يا ضيف! أنا شفته إمبارح خلاص!

ضيف: فعلًا؟ وإزي أحواله؟

روح: الحمد لله بخير. ربنا يخليهولي ويحفظه.

ضيف: آمين. طيب تحبي نعمل إيه النهارده؟

روح: ما هو أنا باكلمك علشان كده، تحب تصلي الجمعة معايا عند سيدي، ولَّا هتصلي في جامع تاني؟

ضيف: طبعًا أحب جدًّا، ويا ريت أتشرف وأقابله.

روح: لازم أستأذنه الأول يا ضيف. إنت عارف الأصول.

ضيف: أكيد. طيب هتفطري في المطعم، ولَّا تحبي أبعتلك الفطار في الأوضة؟

روح: ليه؟ ملوش لزوم. أنا أصلًا كمان مش هاكل خالص.

ضيف: ليه؟!

روح: حاسة إني مش قادرة آكل حاجة. هاشرب قهوة هنا في الأوضة. وإن شاء الله بعد صلاة الجمعة لما أشوف شيخي هابقى أحسن وآكل أي حاجة.

ضيف: معقول؟! هتفضلي لغاية ما تخلصي زيارتك من غير أكل؟ ما ينفعش يا روح! ممكن تدوخي!

روح: ما تقلقش عليَّ. فيه عسل في الأوضة، هاخد معلقة علشان ما أدوخش.

ضيف: طيب، أنا هابقى في البهو بعد الفطار، انزلي نقعد مع بعض شوية.

روح: حاضر. على ما تخلص فطارك هتلاقيني تحت.

انتهى ضيف من تناول إفطاره، وذهب للقاء روح التي كان يبدو على وجهها الشحوب وبعض التوتر.

نظر إليها في استغراب، وقال:

ـ مالك؟

روح: مش عارفة. بس خير إن شاء الله. كل خير.

ضيف: هوَّ إنتِ إمبارح لما قابلتِ شيخك قالك حاجة زعلتك؟

روح: أبدًا. ده ما بيقولش حاجة تزعل خالص! أنا اللي صاحية النهارده مش عارفة مالي!

شردت روح لوهلة، وأحست أن هذه القبضة التي تشعر بها في معدتها ليست منها، ربما هي من نور! لقد عادت إلى درجة الحساسية به، والوصل معه، حتى إنها التقطت إحساسه بالتوتر. تساءلت بينها وبين نفسها عما يحدث لنور ليشعره بالتوتر وهو دائمًا في حال ثبات!
قطع ضيف شرودها:
ـ إيه؟ رُحتِ فين؟ قونيا ولَّا مصر؟
روح: الله أعلم!
حاول ضيف أن يقنع روح بأن تأكل شيئًا صغيرًا، لكنها أصرت على رفضها. كان يحوطها باهتمام زائد، وبرعاية مفرطة. طلب من المطعم عسلًا، وأقسم عليها بجده أن تأكل منه، ليعطيها بعض الطاقة، فوافقت على مضض، لأنها لا تستطيع أن ترفض أي شيء له علاقة بالشيخ صاحب العينين الزرقاوين.

*

وصلت روح وضيف معًا إلى منزل الشيخ والمسجد الصغير الملحق به. مشيا معًا إلى أن تفرقا، لتدخل روح من مدخل النساء ويدخل ضيف من مدخل الرجال. وضعت شالها على رأسها، وصلَّت ركعتين تحية للمسجد، وجلست تسبح منتظرةً بدء الخطبة.
بدأ الشيخ الخطبة بحمد الله، وصلى على سيد المرسلين، ثم تكلَّم عن اليقين بالله، وأن المريد الحق، والسالك الصادق، بل المؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره، يجب عليه أن يكون على يقين بأن إرادة الله كلها خير له، حتى إن لم يكن هذا هو ظاهر الأمر. يجب على المؤمن أن يتمسك بالباطن الذي لا يراه ولا يعلمه. يجب على المؤمن أن يكون مؤمنًا بأن رب الخير لا يأتي إلا بالخير. ثم استعان الشيخ في حديثه عن ظاهر الأمور وباطنها بالآية الكريمة من سورة الرحمن: « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ»، واستكمل الخطبة شارحًا المعنى الباطني لهذه الآية، فقال:
ـ لكل شيء في الحياة وجهان، ظاهر وباطن، كما البحرين، المالح والعذب. ودائمًا هناك برزخ يحول بين ما نراه وبين حقيقته. الدنيا برزخ بين البصر والبصيرة. ونظل هكذا إلى أن يأمر الرحمن ويصبح البصر حديدًا، فيسمح لنا برؤية أشياء لم نكن نراها بسبب البرزخ الحائل بيننا وبين حقيقة الأشياء. وحتى ذلك الحين، فلا نملك إلا أن نتمسك باليقين.
ثم ختم الشيخ خطبته بحمد الله وبالدعاء والصلاة على خير الأنام. وأقيمت الصلاة.
فهمت روح الرسالة من الخطبة، ووقفت في خشوع تصلي بين النساء. بدأ الإمام بقراءة الفاتحة، وكانت روح منصتة، لكنها شعرت فجأة بخفقان قلبها يزداد، وأخذها شيء من خشوعها في الصلاة.
«ما هذا الصوت؟ أنا أعرف هذا الصوت جيدًا! إن الإمام ليس سيدي الجيلاني! أنا أعرف هذا الصوت وصاحبه جيدًا! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ما الذي يحدث ويأخذني من صلاتي؟ سأُركِّز وأنصت إلى الإمام وأخشع، ولن أستجيب إلى أي وساوس!».
استعادت تركيزها سريعًا، وبدأ الإمام في التلاوة:
ـ «وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)».
خفق قلب روح مرَّة أخرى مع سورة الضحى!
«إنه هو! إنه صوت نور! نعم، إنه نور! لستُ أهذي! لستُ أتخيل! إنه نور!».
تمالكت نفسها قدر الإمكان، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم مرَّة تلو مرَّة، لتخشع في صلاتها، وأكملت الركعة الثانية التي قرأ فيها الإمام:
ـ «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)».

هاتان السورتان لهما دومًا تأثير مريح ومطمئن عليها، فهما ينزلان بردًا وسلامًا عليها، ولهما مفعول السحر.. طمأنينة وشفاء!
سلَّم الإمام من الصلاة، فسلَّم خلفه المصلون، وبدأت النساء من حولها ينصرفن، إلى أن بقيت في مصلى النساء هي وبضع سيدات يجلسن ويقرأن القرآن أو يسبحن في هدوء. لم تكن تشعر بأحد، ولم تقم من جلسة التشهد حتى بعد أن سلَّمت، وتجمدت في مكانها، فلم تسمع سوى صدى صوت نور في السورتين اللتين قرأهما في الصلاة، ولم تفكر في شيء سوى محاولة إقناع نفسها بأنها من شدة شوقها إلى نور تخيَّلت صوت الإمام صوته. كانت تُكذِّب يقينها بأنه هو، وتُقحم عقلها على إحساسها الجارف به. فكرت لحظة في أنها لن تبقى هكذا طوال اليوم، ويجب أن تنهض وتذهب إلى شيخها كما اتفقت معه بالأمس. يجب أن تستجمع قواها التي خارت، وتذهب إليه فورًا قبل أن تتأخر عليه.
نهضت بالفعل، وتنفَّست عدة مرَّات بعمق، لتستعيد بعض هدوئها وتمضي في اتجاه المضيفة التي يقابل فيها الشيخ مريديه. ذهبت إلى المضيفة وطلبت من الحارس أن يستأذن لها الشيخ بالدخول. استأذن لها الحارس وأدخلها. خطت ببطء وهي تنظر إلى الأرض كأنها متأكدة من أنها لو رفعت رأسها فسترى نور. هكذا حدثها قلبها، وقلبها لا يكذب أبدًا. وبالفعل، رفعت عينيها عندما اقتربت من الشيخ فوجدت نور يجلس بجواره! أشاحت ببصرها عنه سريعًا؛ ما كانت لتترك نفسها تنظر إليه وتطيل النظر في حضرة شيخها، حتى لو كان يعلم ما في قلبيهما، وحتى لو لم تنطق بكلمة واحدة. كان الشيخ الجيلاني يشعر بقبضة معدتها، ويلاحظ عينيها الزائغتين، وجفاف ريقها، ونبض قلبها السريع القوي. كان يرى حالها كما يراها هي رأي العين. ناداها الشيخ، وأشار إليها أن تجلس بجانبه، وكان نور يجلس إلى يمينه فجلست هي إلى اليسار.
نظر إليها الشيخ وقال:
ـ شُفتِ بقى يا ستي مين وصل من مصر إمبارح بعد ما مشيتِ؟ ما أعتقدش شُفتوا بعض قبل الخُطبة.
روح: لا يا سيدي.
خاطب الشيخ نور وكأنه يعطيه الإذن بأن يُكلِّم روح في حضرته:
ـ مش تطمِّن على مريديك يا نور؟ مش روح دي مريدتك ولَّا تكون أساءت الأدب ولَّا حاجة؟
نور: العفو يا سيدي. إحنا كلنا مريدوكم. إزيك يا روح!

روح: الحمد لله يا نور، في فضل ونعمة من الله! حمد الله على سلامتك! إزي أحوالك؟
نور: الحمد لله.
الشيخ: لحقتِ الخطبة يا روح؟
روح: طبعًا يا سيدي، أنا هنا من بدري. الظاهر الباطن. كلامكم دايمًا جمال في جمال.
الشيخ: إنتِ عارفة الآية اللي قلتها في الخطبة دي فيها تأويلات أد إيه؟
هزت رأسها بالنفي.
الشيخ: تأويلات كتيرة. أسيادنا قالوا إن البحرين بحر الشريعة وبحر الحقيقة، والبرزخ هو العقل اللي بيمنع طغيان الحقيقة على الشريعة أو العكس. إخواننا الشيعة بيقولوا البحرين ستنا فاطمة وسيدنا علي، ستنا الزهراء بحر النبوة والإمام كرم الله وجهه بحر الفتوة، وبينهما حاجز التقوى، فلا يبغي أحدهما على الآخر، واللؤلؤ والمرجان سيدنا الحسن وسيدنا الحسين. وفي التفسير العام طبعًا المياه المالحة والعذبة. تأويلات كتيرة. للقرآن ظاهر وباطن، وللباطن باطن، وأسيادنا قالوا إنهم سبعين باطن، والباطن لا يعلمه إلا أهله.
نور: ربنا يعلمنا.
الشيخ: آمين يا ابني.
وجه الشيخ حديثه إلى روح:
ـ زُرتِ سيدك الجزولي ولَّا لسه يا روح؟
روح: لسه يا سيدي. عندي النية النهارده إن شاء الله بعد ما حضرتك تأذنلي.
الشيخ موجهًا حديثه إلى نور:
ـ خدها يا نور تزور أسيادنا بعد ما تمشوا.
دخل الحارس حاملًا صينية عليها ثلاثة فناجين قهوة، وطبق تمر كبير.
أشار الشيخ إلى روح بأن تأخذ تمرًا، واستطرد في الحديث:
ـ الرجال السبعة. ضروري تروحي يا بنتي.
أخذت روح ثلاث تمرات، وقالت:
ـ شكرًا يا سيدي. حاضر. هاروح النهارده بإذن الله.
أشار الشيخ أيضًا إلى نور بأن يأخذ من التمر، ثم خاطبهما:
ـ بكرة فيه إنشاد بعد العشاء. لو تحبوا تحضروا اتفضلوا.
شعرت روح وكأنها ظمآن صادفته رشفة مياه، بعد فترة وجودها في كازابلانكا، وبعد انقطاعها عن أجواء قونيا الروحانية، واختلاف الموسيقى التي كانت تسمعها. شعرت أن روحها وكل ذرة فيها مشتاقة إلى الإنشاد، فأجابت على الفور:
ـ أُحب جدًّا يا سيدي. ربنا يخليك لينا!
الشيخ: ربنا يحفظكم.
نور: إن شاء الله قبل العشاء أكون موجود.
نظر الشيخ إلى روح وسألها:
ـ عايزة حاجة تانية؟
فهمت روح أن الشيخ يشير إليها بالانصراف، فابتسمت وقالت:
ـ عايزة أفضل جنب حضرتك على طول!

ابتسم الشيخ وقال:
ـ طيب ارجعي لورا شوية علشان حلقة الدرس دلوقتِ. المريدين هيتجمعوا ونور هيبدأ المجلس. حضرتِ حضرة معانا قبل كده؟
روح: لا يا سيدي.
الشيخ: نور هيتكلم عن حكمة من الحكم العطائية بإيجاز، وبعدين ذِكر. ربع ساعة بس. تحضري المجلس وتروحي الفندق تاكلي كويس. سامعاني؟ تاكلي كويس قبل الزيارات!
روح: بس أنا مش قادرة آكل حاجة خالص النهارده يا سيدي! فعلًا مش قادرة!
الشيخ: أظن كلامي واضح!
روح: حاضر، هاحاول.
نور مستأذنًا الشيخ أن يوجه حديثه إلى روح:
ـ بعد إذن حضرتك يا سيدي. إنتِ نازلة في أي فندق يا روح؟
روح: في الرويال منصور.
نور: جميل! إن شاء الله أخلص وآجيلك.
بدأ المريدون في الدخول، والتفوا حول الشيخ الجيلاني ونور. بدا العدد لروح كبيرًا نوعًا ما، وهي تعلم طبيعة نور التي تميل إلى الخجل في بعض الأحيان، والتفاف ما يزيد على الخمسة والعشرين مريدًا حوله للاستماع إليه قد يُربكه بعض الشيء. نظرت إليه من بعيد، مرسلةً إليه ذبذبات طمأنينة وتثبيت، ليشعر بأريحية ويتحدث ويسمعه الناس كما كانت تسمعه هي في القاهرة من قبل. جلسوا في حلقات دائرية كالنجوم المتلألئة، وكان نور يجلس بينهم كالقمر المنير في ظلام السماء، وشيخه يجلس بجواره يُعدُّه ليجلس وحده عندما يأذن الله. أما هي، فجلست كما أمرها الشيخ، بعيدًا قليلًا عن حلقة الدرس، تمامًا كوجودها في حياته، وكما تتوارى الشمس في حضور القمر.
كان الشيخ الجيلاني ينتهز وجود نور بجانبه دائمًا، فيقدمه في مجالس العلم والذِّكر، ليدرِّبه على التغلُّب على خجله وتوتره عند الحديث للعامة. أما نور الذي لا يحب جذب الأنظار، ويميل إلى السكوت أكثر من الكلام، فكان يعلم أيضًا أن له مهمة، وعليه القيام بها، وعليه ألَّا يجعل طبيعته المتحفظة تعيقه عن أداء دوره الذي فطن إليه.

كان لوجود روح وطبيعتها المختلفة تأثير على نور. حضورها يمنحه الإحساس بالطمأنينة والقوة والسكينة، ويُشعره بالثبات، كأنه يحدثها وحدها ولا يرى غيرها، فلا يتوتر ولا يقلق من شيء. كيف لا وقد خلقها الله ليسكن إليها وتسكن إليه؟!
اجتماعهما كان يكمل الآخر من دون أن يدرك كلٌّ منهما هذا. كانت تملأ ذلك الجزء الفارغ من الكأس الذي كان دائمًا ناقصًا بدونها. جزء قليل، ولكن بامتلائه تحدث الفيوضات. تفيض الكأس بالعلم، وكلما فاضت امتلأت مرات ومرات ومرات.
شعر نور في حضورها، وفي حضور شيخه، أنه أقوى وأقدر، وأنه يريد أن يذهب الآن إلى برشلونة ويتكلم عن الله وعن حقيقة الأشياء كما يراها، وهو في هذه الحال من الإشباع الروحي والثبات. يريد أن يختزنها بداخله، بل يحبسها، فلا تغادره أبدًا. يريد ألَّا تغيب عنه هذه العاشقة العنيدة التي على الرغم من البُعد والصمت والمنع فقد رسخت بداخله أكثر، ولم يعد مكانها القلب فحسب، بل تمكَّنت من كيانه واحتلته بالكامل. لم تحتله، فالاحتلال لمن يغتصب ما ليس له، لكنها

استردته، استردت ما غادرت في الأصل، فهي كما قال لها في الرؤيا «حواؤه» هو بالأخص، وهو «آدمها» الذي خلقها الله منه.
وجد نور نفسه يختار هذه الحكمة العطائية بالتحديد:
ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.
ومتى فُتح لك باب الفهم في المنع صار المنع عين العطاء.
وبدأ في شرحها ببساطته المعهودة:
ـ ربما منع الله عنك شيئًا تتمناه روحك بشدة، لعلمه بمدى ضعفك أمامه، وأن حصولك عليه قد يحجبك ويلفتك عنه، فيمنعه رحمةً، حتى لا تلتفت عنه، وتكون معه. وربما أعطاك ما تتمنى، فشُغلت به عنه، فمُنعت من شهود التجلِّي والدخول في الحضرة الإلهية. متى فهمت الحكمة من الأشياء، فلن تقف عند ظاهرها.
كان كلامه قليلًا، لكنه يفي بالمعنى، ويزن بالقسطاس. أكمل معنى خطبة الشيخ، وأكد لروح الرسالة التي وصلت إليها.
أومأت روح برأسها مستأذنة شيخها، وانصرفت في هدوء بعد الذِّكر. انصرفت وهي تتأمل المدبر البديع الذي أتى بها في هذه الرحلة من قونيا إلى كازابلانكا، ثم إلى مراكش في هذا اليوم بالتحديد، لتقف وتصلي خلف نور، وتجلس أمامه وتسمعه. وأتى بنور أيضًا من مصر في هذا التوقيت بالتحديد، فأمَّ الناس في الصلاة على الرغم من حضور الشيخ، لتسمع بصوته رسائل الله لها وتطمئن. كانت رسائل الله لهما معًا، ولم يعد هناك مجال للشك في أن هاتين الروحين معًا في عالم آخر. مصيرهما مرتبط كلٌّ بالآخر. يمشيان في خطين متوازيين لكن لا يجتمعان في عالم الدنيا. الدنيا هي برزخهما الذي يفصل بينهما، أما عندما يزول الحائل فإنهما معًا. يجب أن تُصدِّق ولا تتساءل أو تشك، كما تقول الآية: «فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ».
«ما الذي يُقلق نور؟ هذه المرَّة لم يأتِ إلى شيخه للعلم أو التبرك! هناك شيء يُقلق نور!».
هكذا فكَّرت وحدَّثت نفسها.

*

مضت روح بخطى بطيئة، شاردة الذهن، إلى أن أفاقها صوت ضيف:
ـ إيه يا روح؟! إنتِ شاردة خالص ولا كأنك هنا!
روح: ضيف! أنا نسيتك خالص!
ضيف: نسيتيني إزاي؟
روح: يعني قصدي لما شُفت سيدي ومفاجأة نور اتلخبطت خالص، ونسيت إنك مستنيني.
ضيف: نور مين؟ دكتور نور صديقك إنتِ وبراء من مصر؟
روح: أيوه.
ضيف: ماله؟
روح: ما هوَّ اللي صلَّى بينا النهارده. هوَّ الإمام!
ضيف: فعلًا؟ ما أعرفش طبعًا. وإيه اللي جابه عند الشيخ؟
روح: ما هو سيدي يبقى شيخنا إحنا الاتنين. نور من الخلفاء.
ضيف: خلفاء إيه؟

روح: بجد مش قادرة أتكلم يا ضيف. معلش. أنا عايزة بس أروح الفندق بأسرع ما يمكن. أنا بجد تعبانة!
ضيف: طبعًا ما أكلتيش حاجة من الصبح! لازم تتعبي! قلتلك! تعالي نتغدى الأول وبعدين أروحك ترتاحي.
روح: لا يا ضيف، مش هينفع، نور جاي على الفندق بعد شوية، وأنا فعلًا لازم أرتاح. هاكل أي حاجة في الفندق. مش مهم.
داعبها ضيف قائلًا:
- زي ما تحب مولاتي.
روح: أرجوك يا ضيف! أنا بجد مش مستحملة!
ضيف: أنا ضايقتك في إيه؟
روح: حقك عليَّ! أنا اللي مش مظبوطة! سامحني!
ضيف: العفو يا روح. مالك؟ أنا أول مرَّة أشوفك كده! تعالي نروح الفندق وترتاحي. إنتِ فعلًا محتاجة تاكلي وترتاحي.
لم تكن في حالة تسمح لها بالكلام. تزاحمت الأفكار والمشاعر بداخلها. كانت شاردة تمامًا وهي جالسة في السيارة بجوار ضيف الذي كان يحدثها وهي لا تسمع شيئًا من حديثه، كما لو كانت الدنيا كلها أصابتها غمامة غطت على الأصوات والأشخاص والأحداث! كل شيء بدا ضبابيًّا، ولا شيء يظهر بوضوح، إلا شخص واحد: نور. نور وصوته الذي لا يزال يطمئنها ويردد في قلبها: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ».

13

وقع المفاجأة على نور كان أكبر من وقعها على روح، فسماع روح لتلاوة الآيات بصوت نور في صلاة الجمعة مهَّد نوعًا ما لوجوده، أما هو فلم يكن هناك أي نوع من التمهيد. تمالك نفسه أمام الشيخ، واستطاع أن يسيطر على ملامح وجهه ورد فعله، ولم يظهر عليه التوتر الذي ظهر عليها، أو هكذا ظن.

كان الشيخ الجيلاني يدرك جيدًا وقع هذا اللقاء عليهما، ويرى حاليهما. الشيخ المربي بمنزلة أب لمريديه، وجميع المريدين أولاده، ويجب أن يربي الجميع ويرشدهم ويُقوِّمهم. وكما لكل شيخ طريقة، فلكل مريد تربية، وما يصلح لروح لا يصلح لحياة. أما نور، فله نصيب أكبر وحظ أوفر من التقويم والتربية، فالولد الذي سيخلف أباه يجب أن يتعلم أشياء لا يتعلمها البقية من الولدان، ونور هو الخليفة، والخليفة يجب أن يسيطر على نفسه ويستعملها ولا يتركها تستعمله. هكذا كانت تقول نظرة الشيخ لنور قبل أن يغادر ذاهبًا إلى روح. كانت رسالة تنبيه وتحذير وتذكير، لا لشيء حدث، ولكن لشيء ربما سيحدث.

كثرت الأسئلة في عقل نور عن وجود روح في مراكش، واستنبط من حديث الشيخ معها أن اليوم لم يكن أول لقاء. «ولكن متى أتت؟ ولمَ أتت؟».

*

في الفندق جلست روح مع ضيف على إحدى طاولات المطعم البعيدة المطلة على حديقة الفندق، وقد طلبت منه أن تجلس بعيدًا عن كل الناس، وأن تقترب من الحديقة. كانت تشعر بتوتر، وقربها من نوافذ المطعم، والهواء البارد، جعلاها تشعر ببعض الراحة، وهدَّآ من الاختناق الذي كانت تشعر به. كانت تفكر أيضًا في نور، وفي سبب وجوده، وبالتأكيد فكرت في حياة، كل شيء في المغرب كان يُذكِّرها بحياة.

ضيف: الحريرة هتبرد يا روح! سرحانة في إيه؟

روح: حاضر.

أخذت روح ملعقة من الحريرة وشربتها، ثم ابتسمت لضيف وقالت:

ـ إنت عارف يا ضيف؟

ابتسم ضيف، وهز رأسه نافيًا، وقال:

ـ لا مش عارف!

روح: أنا لما بافكر فيكم، وإزاي ربنا بعتكم ليَّ، وإزاي كل حاجة حلوة بتحصلي من أول ما وصلت قونيا بتحصل عن طريقكم، باقول عائلة بندر دول ملائكتي اللي ربنا بعتهملي في قونيا! الناس كلها عندها ملاك واحد حارس، وأنا عندي عيلة بحالها! ربنا يسعدكم، ويقدرني أرد جمايلكم عليَّ!

ضيف: العفو يا روح. جمايل إيه! من فضلك ما تقوليش كده! دا إنتِ معزتك عند جدي زي ما تكوني من دمنا وأكتر. وإنتِ طبعًا عارفة إنتِ عندي إيه، ولَّا يمكن لسه مش عارفة!

أمسكت روح بيد ضيف، وابتسمت ابتسامة رقيقة، واقتربت قليلًا منه، وقالت بصوت منخفض:

ـ أنا قلتلك، وهافضل أقولك، إنت تستاهل ست الستات، ومعزتك عندي من معزة أغلى الأحباب، وعلشان إنت غالي عندي ما ينفعش أغشك! إنت ينفع تغشني؟
ربت على يدها بحنان، وقال:
ـ مفهوم، أكيد، لا ينفع تغشيني ولا أنا ممكن أغشك في يوم، ولا هاسمح لحد يغشك! خليكِ متأكدة إن أنا موجود علشانك! إنتِ عزيزة على قلبي حتى لو كان قلبك مش ليَّ.
قدرت روح كلمات ضيف التي ظنت منها أنه استسلم أخيرًا وقبِل رفضها الزواج منه، وأنها ستستريح ولا مزيد من الضغوط التي كان يمارسها عليها طوال الفترة الماضية. اعتقدت أن الصراع قد انتهى، سواء الذي بينها وبين ضيف، أو الصراع الأشرس الذي بين عقلها وقلبها.
وقف نور عند باب المطعم مصدومًا من رؤية هذا المشهد. لم يكن الموقف يحتاج إلى شرح أو يحتمل أسئلة.
«لقد استسلمت لضيف. لم تستطع تحمُّل مزيد من الألم، ولم تستطع أن تبذل مجهودًا أكبر وتقاوم حبيبًا تكلَّم وعبَّر وبذل ما في وسعه لاستمالة قلب حبيبته إلى أن نجح. أما أنا، فلا زِلتُ سجين عجزي! لا أعرف ماذا أفعل! أُسلِّم وأطيع أمر الله وأخوض أقسى تدريبات التخلِّي، أم أُسلِّم بفشلي عن التخلِّي عنها وأعترف لربي بعدم كفاءتي وإخفاقي في درسي؟ تخلَّيتُ عن كل شيء: المال لم يعد مُهمًّا، والمناصب كذلك، حتى الأبناء لم يعودوا مهمين! ظننت خطأً أنني نجحتُ في اختباري، وتخلَّيتُ عن زينة الحياة الدنيا وأصبحت في يدي لا في قلبي، إلى أن جاء أهم اختبار: التخلِّي عنكِ يا روحي. لم أستطع. ربما لهذا السبب لم أستطع، لأنكِ روحي فكيف أحيا من دونك؟! سامحي عجزي وقلة حيلتي! سامحيني أن استعملني الله لتحترقي بحبي! هأنتِ نجحتِ فيما لم أنجح فيه وحُرمتُ منكِ!».
هكذا حدَّث نور نفسه، أو ربما حدَّث روح.. روحه.
شعرت روح بأن هناك شيئًا يناديها في اتجاه الباب، فالتفتت فوجدت نور. سحبت يدها على الفور من يد ضيف، وكأنها تخشى على نور من مجرد الظن أنها أسلمت قلبها لضيف. ما كانت تتحمل أن يتعذب لحظة، ولو كان الأمر بيدها لأخذت عذاباتهما وتحمَّلتها وحدها، ولم تدع شيئًا منها يقترب من نور.. نورها.
نهض ضيف لاستقبال نور، وظلت روح جالسة تنظر في عيني نور وهو يقترب، وكلما اقترب امتلأت. هكذا كانت تشعر. كانت تشعر بدونه أنها مجرد وعاء، وعاء فارغ، مهما امتلأت تشعر بالخواء. وكلما اقترب منها شعر بالاحتواء، فهو بدونها فيضان قوي جارف مشتت في كل اتجاه، ولكن عندما يجمعهما نفس المكان والزمان فإن الفيضان يسكن بها ويملأ الوعاء، ويشعر الاثنان بالامتلاء، بالاكتفاء، بالتوحد، والاكتمال... الكمال هو وجودهما معًا في نفس الزمان والمكان.
مد نور يده وقلبه مصافحًا روح، وأعينهما تتعانق. كان يجب أن ينظر إلى عينيها، ويغوص فيهما، ليعلم حقيقة مشاعرها في هذه اللحظة، ويرى قلبها في مرآته. كان يحدث نفسه دائمًا: «عيناها؟ وما أدراك ما عيناها؟ إنهما ليستا مرآة لقلبها فحسب، إنهما نافذتان على قلبها وروحها». فيرى منهما حالها وجمالها، ويطمئن منهما على أنه لا يزال متربعًا على عرش قلبها، ولا يزال يسكنها، فيهدأ ويسعد، ولا يعبأ بأي شيء آخر، لا يعبأ بموعد الاجتماع، فهو موقن بأن اجتماعهما مقدر منذ الأزل، بل هما مجتمعان بالفعل، ولكن في عالم آخر بقوانين أخرى، أما اجتماعهما على الأرض فالله وحده يعلم متى وأين.

تركته يغوص في عينيها ويطمئن. تركته يرتوي بالنظر إلى عينيها، وترتوي هي الأخرى بالنظر إلى عينيه. تركته لأنها تعلم أنه يحب أن تتعانق أعينهما، وهي لم تستطع دائمًا أن تمنحه هذا العناق وتطيل النظر في عينيه. لم تكن مجرد نظرة، ولم يكن عناقًا عاديًّا، بل كان اتحادًا، عناق الأصل لفرعه الغائب، وسكونه إليه. كانت تشعر دائمًا بأن النظر إلى عينيه جهاد بالفعل، جهاد نفس، ففور أن تتلاقى أعينهما تسكر وتذهب إلى حيث يذهب شارب الخمر. في كل مرَّة نجح في صيد عينيها وحظي بهذا العناق والسُّكر، هربت سريعًا، واتخذت القرار بنهاية النظرة، وسحبت عينيها عنوة من عناق عينيه. كانت تُنهي النظرة أو ربما السُّكر، وهي تقول له بقلبها: «عفوًا سيدي، إن الله حرَّم كل مُسكرٍ، والنظر إلى عينيك له مفعول الخمر!».
بسلام اليدين تلاقت كل ذرات جسديهما واتحدت، تمامًا كما كتبت في كازابلانكا أنها تحمل في سفينتها من كل زوجين اثنين، مؤنثه بها ومذكره به، فعندما يتلاقيان يجتمع كل مؤنث بمذكره، ويخمد حنين الاشتياق باللقاء، إلى أن يعود فيشتعل من جديد عند الفراق.
نور: إزيك يا روح!
روح: الحمد لله يا نور! وإنت؟ طمني عليك!
نور: الحمد لله على كل حال!
تأكدت روح من إحساسها بأنه ليس على ما يرام، وقالت:
ـ تستاهل الحمد.
ثم سحبت يدها من يده مضطرة كما تفعل دائمًا.
التفت إلى ضيف وصافحه قائلًا:
ـ أهلًا ضيف! إزي أحوالك؟ وإزي سيدي بهاء والعيلة الكريمة؟
ضيف: بخير والله يا دكتور، مبسوطين برؤيتكم، إيه الصدفة دي؟
ابتسم نور ونظر إلى روح وقال:
ـ مفيش صدف في ملكوت الله!

ضيف: اتفضل يا دكتور.
جلس نور والأفكار تتزاحم في رأسه. ازدادت رغبته في معرفة سبب وجود روح بمراكش بعد رؤيته لضيف. شكه الأكبر، وخوفه كله، كانا من احتمال أن روح أتت بضيف ليقابل الشيخ الجيلاني لتحصل على مباركته لإتمام الزواج، فهذا هو المفسِّر الوحيد للمشهد الذي رآهما عليه عندما وصل إلى المطعم. لكن عينيها لا تزالان تناديانه «يا أنا». ما الأمر إذن؟!
لم يستطع نور أن ينتظر حتى تتكلم، فسألها:
ـ أي ريح طيبة أتت بكِ إلى أرض الحبايب يا روح؟
روح: والله صدقت يا نور، ريح طيبة حملتني من قونيا إلى كازابلانكا، ومن كازابلانكا إلى مراكش... كريم!
نور: كازابلانكا؟! لا، احكيلي!
قطع ضيف حديثهما:
ـ نتغدى وإحنا بنتكلم، هاطلب لحضرتك المينيو.
نور: لا ملوش لازمة يا ضيف، أشكرك. أنا تقريبًا مش باتغدى.

ضيف: لا، ما يصحش والله، طب حتى حريرة زي روح؟
نظر إلى روح، وابتسم وقال:
ـ خلاص، ممكن آخد حريرة زي روح!
ابتسمت روح لنور، وقالت:
ـ هتعجبك! هيَّ طبعًا مش زي حريرة حياة، بس فعلًا حلوة!
ضيف: ما تآخذناش يا نور، المفاجأة نستنا نسأل على الست حياة. كيف أحوالها؟ إن شاء الله تكون بخير. معاكم هنا طبعًا.
نور: لا والله، أنا هنا لوحدي!
تفاجأت روح: «كيف يكون نور في مراكش من دون حياة؟!». زاد هذا من إحساسها بأن هناك شيئًا ليس على ما يرام في نور، فليس من عادته أن يأتي إلى المغرب من دون حياة!
روح: خير يا نور؟ حياة فين أُمَّال؟
نور: خير. هيَّ بس كان عندها رحلة للواحات «ريتريت» مع راجل هندي كان نفسها تسافرله الهند، وطبعًا كانت فرصة ما تتفوتش، والحقيقة أنا كمان جاي زيارة سريعة، أربع أيام بس، وصلت إمبارح وماشي إن شاء الله على برشلونة يوم الأحد علشان عندي حاجة مهمة، وحبيت أمر على سيدي أتبارك الأول.
شعرت روح بقلق حقيقي، فسألت نور:
ـ عندك إيه في برشلونة يا نور؟ إنت كويس؟
نور: أيوه الحمد لله كويس أوي. أنا عندي مناظرة مهمة عن التصوف، والحقيقة إن الحدث ده مهم جدًّا، وكان ضروري أناقش حاجات كتيرة مع سيدي، علم ونور يعني، ربنا ينفعنا بيه.
روح: اللهم آمين.
نور: ها، ما قلتليش إنتِ، إيه موضوع كازابلانكا؟ وإيه اللي جابك هنا؟
روح: إنت عارف سيدي بهاء وجماله، طلب مني أروح كازابلانكا علشان أعملهم الديكورات الجديدة لمعرضهم هناك، وطبعًا ما كنتش أقدر آجي المغرب وما أشوفش سيدي. أنا كمان هنا زيارة سريعة، إحنا برضو راجعين قونيا يوم الاتنين بإذن الله.
فهم نور واطمأن وتنفَّس الصعداء. أحس من كلام روح أن الشيخ بهاء أراد أن يُدخل السرور على قلب الضئيلة التي يحبها، وهو يعلم عزة نفسها، وأنها قد ترفض أي محاولة منه لتدليلها، فغلَّفها بشكل تقبله ذات الغمازة الواحدة.
نور: جميل! وأخبار الشغل إيه بعد كل السنين دي؟
ضحكت روح وقالت:
ـ ما أقولكش. عكيت عك. احكيله يا ضيف.
ابتسم ضيف وقال:
ـ والله ولا أجمل من كده! دا أنا بافكر إن التصميمات اللي عملتها روح نكررها في الفروع الكبيرة بتاعتنا في أوروبا! منتهى الجمال والرُّقي! لو شُفتها هتعجبك جدًّا يا نور.
نور: أنا متأكد، روح دايمًا بتعمل كل حاجة مختلفة.. شبهها!
ارتاح نور عندما تأكد أن روح لا تزال على العهد. رأى ذلك فور أن غاص في عينيها. لكنه بشر، ويحتاج إلى أن يسمع بأذنيه. وها هو قد سمع وهدأ قلبه واطمأن. لكنْ هناك شيء لا يعلم ما هو!

شيء جديد رآه عندما نظر إليها، شيء زاد عليها، ولم يستطع أن يفطن إلى هذا الشيء على الرغم من وجودها أمامه وإحساسه بها، كانت ذبذبات مختلفة هذه المرَّة لم يتلقها من قبل!
استأذنت روح لتصعد إلى غرفتها وتستعد للذهاب إلى الزيارات مع نور كما أخبرها شيخها، وتركت ضيف ونور في انتظار عودتها، يتحدثان عن براء وعالية وأخبارهما في مصر.

*

بعد رحيل روح بدت كازابلانكا مختلفة في عينَي ضيا. المدينة البيضاء أصبحت بلا لون! وأصبحت حياة ضيا فيها، بعد أن غادرتها روح وأخذت معها كل الألوان، بلا شكل ولا لون.
كان عصبيًّا جدًّا، وعلى غير طبيعته، ويُستثار من أي شيء في العمل. وقد لاحظ نفسه وأدرك أن الأمور التي تثير عصبيته لا تستدعي كل هذا الغضب. أدرك أنه يفتقد روح بشدة، ويفتقد نفسه، لكنه يهرب من هذه الحقيقة، ويتعمَّد أن يشغل نفسه عن مجرد التفكير في روح أو تذكُّرها.
«لقد أتت لمهمة معينة، وأنهتها، وانصرفت إلى حياتها. أنا أيضًا سأمضي في حياتي التي رسمتها لنفسي، بالطريقة التي تُريحني وتُبعد عني أي خطر قد يهدد استقراري وسعادتي!».
كانت تلك أفكاره التي يرددها لنفسه كلما أخذه الحنين إلى الغرفة الزجاجية، أو أوقات العمل معها، أو حتى لحظات الصمت بينهما.
حدَّث ضيا نفسه وهو في طريقه إلى منزله، وقال: «مريم.. إنها مريم.. لقد انشغلت عنها الفترة الماضية، وكانت أحاديثنا قصيرة، ولقاءاتنا لا تشبعني. نعم، أنا أفتقد مريم! سأتصل بها لأصطحبها فتمضي الليلة معي، نتكلم ونضحك، وتحكي لي حكاياتها ومغامراتها التي لا تكف عن مفاجأتي بها. سأطهو لها الإسباجيتي بصلصة «البولونيز» التي تحبها. سنأكل كثيرًا من الإسباجيتي معًا، ونضحك معًا، ولن أفكر في أي شيء آخر! وربما جلسنا بعد العشاء نشاهد إحدى مباريات كرة القدم التي نستمتع بمشاهدتها معًا. كيف لم أنتبه؟! إن مباريات الدوري الإسباني تجري هذه الأيام، وبالتأكيد سنجد إحدى المباريات الممتعة فنشاهدها معًا كعادتنا، وتتعالى أصواتنا وصرخاتنا من شدة المتعة! سأتصل بها».
مريم: كنت فعلًا هازعل منك لو ما اتصلتش النهارده!
ضيا: وأنا أقدر؟ كله إلا زعل مريم هانم. مين ده اللي يتجرأ ويقدر يعملها؟!
مريم: كنت باقول لو ما كلمتنيش علشان نشوف ماتش النهارده هاخاصمك!
تدارك ضيا الموقف سريعًا، وفهم أن هناك مباراة مهمة اليوم، لكنه لا يعلم من الفريقان! ماذا سيفعل؟ سيُفتضح أمره.
ضيا: إزاي يعني يخطر على بالك ده؟ أنا محضَّر كل حاجة، هاعدِّي على السوبر ماركت أجيب شوية حاجات لزوم السهرة وأعدِّي عليكِ.
مريم: بس لو اتغلبتوا ما تعملش زي كل مرَّة. إنت اللي هتشيل السفرة وتغسل الأطباق. ما تعملش غضبان وتخلِّيني أنا أعمل كل حاجة. هنكسبكوا النهارده، وإنت اللي هتغسل الأطباق وتشيلها.. متفقين؟
فهم ضيا من دعابة مريم أن «ريال مدريد»، الفريق الذي يشجعه، سيلاعب «برشلونة»، الفريق الذي تشجعه مريم.
«كانت مُحقة في تهديدها بأن تغضب مني وتخاصمني إذا لم أتصل لنشاهد المباراة معًا».
- متفقين.

هكذا رد عليها، وأنهى المكالمة مع الأنثى التي كانت تملأ كل الأماكن في قلبه وروحه، ولا يشعر في وجودها

بحاجة إلى أي أنثى أخرى. لكن، لماذا أصبحت الآن لا تملأه، وبات يشعر بهذه الحاجة؟!
ذهب ضيا إلى السوبر ماركت، واشترى كل ما تحبه مريم من أطعمة ومشروبات وتسالٍ. جهَّز كل شيء ليسعد مريم في هذه الليلة، ويستمتعا بوقتهما، كما كان يحدث من قبل، ثم مر عليها ليصطحبها.

*

نزلت روح من غرفتها مستعدةً للزيارات. وقد بدت في حال أفضل بعد أن شربت الحريرة واطمأنت على نور ورأته أخيرًا.
وقفت أمامه، وابتسمت في رقة وهدوء، وقالت:
ـ أنا جاهزة.
نظر إليها، فوجد حالها هي نفسها التي كانت تبدو عليها في القاهرة، عندما كانا يذهبان معًا في زيارات مقامات آل البيت وأولياء الله الصالحين.. عادت القديسة المحرمة إلى القديس العاشق!
نور: تحبي تقعدي شوية، ولَّا نمشي على طول؟
روح: لو حابب تشرب شاي أو قهوة ممكن نستنى.
نور: لا، أنا شربت كل حاجة خلاص. ضيف، تحب تيجي معانا؟
ضيف: لا، اتفضلوا إنتم، أنا مليش في موضوع زيارة المقامات والأولياء، روح عارفة!
نور: ليه بس؟ دي زيارات الأكابر كلها بركة!
ضيف: أكيد. الفاتحة أمانة، والدعاء.
روح: يوصل إن شاء الله.
استأذنا بالانصراف، ومضيا وحدهما للمرَّة الأولى منذ وقت طويل. لا أحد معهما، لا براء ولا حياة ولا أحد. هما فقط، هو وهي والله معهما.
خيَّم الصمت على المشهد، وكان وجودهما معًا أبلغ من أي كلمات، بل ربما لم تُخلق له الكلمات بعدُ. شعر نور أن هناك الكثير الذي يجب أن يُقال، لكنه أيضًا يجب ألَّا يُقال. شعر أن هناك أمطار جمال تملأ كونهما، ليس من السماء فحسب، بل من كل مكان. وجودها بجانبه، حتى إن لم تتحدث، كان جمالًا لا يستطيع وصفه. تذكَّر عندما كانا يجلسان ذات مرَّة، وقرأت له أشعار نزار قباني. تذكَّر عندما كانت غاضبة كالأطفال من نزار، وتشكوه إليه، لأنه ملجأها الذي تصب فيه كل شيء: أسئلة، وأفكار، ومناقشات، ودعابات، ومحبات.
قطع نور الصمت قائلًا:
ـ فاكرة يا روح لما كنتِ زعلانة من نزار قباني؟
ابتسمت روح، وقالت:
ـ ولسه زعلانة منه! ما تدافعش عنه!
ضحك نور، وقال:
ـ هوَّ أنا اللي هادافع عن نزار برضو؟ ده العالم كله ممكن يدافع عن نزار قباني!
روح: لا، بس ما تنكرش إنه غلطان!

ضحك نور بشدة وهو يسمعها، وقال:
ـ غلطان في إيه بس يا روح؟! ده أجمل مَن كتب في الحب! نزار غلطان؟! بالذمة ده يرضي مين الكلام ده؟!
روح: ما هو علشان هوَّ نزار ما ينفعش يقول كده. بتفكرني ليه بس يا نور؟ أنا كل ما بافتكر بازعل منه!
نور في محاولة لاستدراجها لقراءة الأبيات:
ـ فكَّريني كده كان بيقول إيه، وإحنا نشوف ينفع الكلام ده ولَّا ما ينفعش!
كان نور يعلم جيدًا ما قاله نزار، وما يُغضب روح منه، لكنه يريد أن يسمعها، ويريد أن يسمع شعر نزار بصوتها.
نجح في محاولته، واستدرجها بالفعل لقراءة الأبيات.
روح: بيقولَّها يا سيدي...
فَإذا وَقفتُ أمامَ حُسنِكِ صامتًا
فالصَّمتُ في حَرَمِ الجَمالِ جَمالُ
كَلماتُنا في الحُبِّ تَقتلُ حُبَّنا
إنَّ الحُروفَ تَموتُ حِينَ تُقالُ
حَسبِي وحَسبُكِ أن تَظلِّي دائمًا
سِرًّا يُمزِّقُني ولَيسَ يُقالُ
ثم علَّقت روح:
ـ فيه حد بذمتك يكون بيحب بجد ويقول لحبيبته كده؟!
استمر في استدراجه لها، أو ربما بشريته هي التي كانت تستدرجها، ليستمع إلى كلمات الحب منها، حتى إن لم تكن موجَّهة إليه مباشرةً:
ـ اشرحيلي بس إيه اللي مزعلك في الشعر!
روح: طبعًا يا نور لازم أزعل! يعني إيه «كلماتُنا في الحبِّ تقتلُ حبَّنا.. إن الحُروفَ تموتُ حين تُقالُ»؟! فيه حد يحب حد ويحب يعذبه؟!
نور: أكيد لأ.
روح: شُفت بقى إنه غلطان!
نور: مش يمكن ما ينفعش يقول يا روح!
فهمت روح رد نور، فأدارت وجهها ناحية نافذة السيارة، وأخرجت زفيرًا حارًّا، وقالت:
ـ ده موضوع تاني. لو ما ينفعش يبقى خلاص.
نور: يعني إنتِ لو مكان حبيبة نزار، كنتِ هتردي تقولي إيه؟
نظرت إليه، وتمنَّت لو أنها تستطيع بالفعل أن تقول فيه كل الأشعار التي خُلقت والتي لم تُخلق بعدُ. تمنَّت لو منحها الله إمكانية الإفصاح عن عشقها ولو لساعة واحدة. «لا، ساعة لن تكفي لأخبره كم أحبه». ربما يوم؟ «لا، ولا حتى يوم يكفي». أسبوع؟ شهر؟ تمنَّت أن تقضي ما تبقَّى من عمرها تنظم فيه الشعر، وتقرأه عليه، فهو يستحق كل كلمات الحب، بكل اللغات، في كل الأزمنة والأمكنة.
اعتدلت في جلستها، وقالت بثبات وهي تنظر إلى نور:

فَإذا وَقفتَ أمامَ حُسنِي صامتًا
فالصَّمتُ في حَرَمِ الجَمالِ حَرامُ
كَلماتُنا في الحُبِّ تُخلِّدُ حُبَّنا
إن الحُروفَ لا تُولَدُ إلا حِينَ تُقالُ
حَسبُكَ أن تُمزِّقَ قَلبي وقَلبَكَ بِصَمتِكَ
فيَظلُّ حُبُّنا سِرًّا يُمزِّقُنا عِندما لَيسَ يُقالُ

قالت الأبيات وصمتت لحظات، ثم أدارت رأسها مرَّة أخرى في اتجاه النافذة، وخيَّم الصمت عليهما من جديد، إلى أن أخذ نور نفسًا عميقًا وقال:

ـ أنا هاقولك على سر، بس توعديني يفضل بيني وبينك!

نظرت روح إلى نور على الفور، وقالت:

ـ طبعًا يا نور، أكيد!

قال بصوت منخفض، وبمنتهى الثبات والجدية:

ـ الشعر بتاعِك أجمل من شعر نزار قباني!

ابتسمت من هذه الدعابة الرقيقة، وارتبكت، وأخذت طرف شالها الأخضر ولفته حول إصبعها السبَّابة، وشغلت نفسها عن عينيه ولم ترد.

استطرد نور:

ـ إحنا اتفقنا. سر، ها؟

استعادت روح نفسها، ونظرت إليه، وقالت برقة:

ـ عيب. كلام رجالة!

عاد الصمت يُخيِّم على الموقف، وكأن نزار يرد عليها من العالم الآخر، ويثبت لها قوله بأن «الصمتُ في حرمِ الجمالِ جمالُ»!

تحدَّت نزار مرَّة أخرى، وقطعت الصمت، لتثبت له أنه عندما يصل الجمال إلى منتهاه، كما تشعر هي مع نور، فـ«الصمتُ في حرمِ الجمالِ حرامُ»، بل يجب أن ترتشف من هذا الجمال قدر استطاعتها، وتُشبع قلبها وروحها منه، فهذا عطاء ربها، وربها أعطاها الاختيار: «فامنن، أو أمسك بغير حساب». وهي اختارت ألَّا تمنن. وإذا كانت القوانين الآن تمنع أن تُطلق العنان لما في قلبها، فإن القوانين لا تمنع أن تُشبع قلبها وعقلها من كلماته وعلمه وحضوره.

سألته:

ـ كنت عايزة أسألك عن الرجال السبعة يا نور. كلِّمني عنهم شوية. أنا ما أعرفش حد منهم أوي غير سيدي الجزولي.

نور: رضي الله عنه. همَّ يا ستنا سبعة من الفقهاء والمتصوفة، بينهم قواسم مشتركة، هي: زهدهم في الدنيا، وجنوحهم إلى التصوف، وسعيهم لأعمال الخير، وحفظهم للقرآن، ونشرهم للعلم، وانكبابهم على التأليف في الحديث والفقه والسيرة واللغة. الإمام الجزولي طبعًا من مؤسسي التصوف في المغرب، ومؤلف كتاب «دلائل الخيرات» المشهور. عارفة، مش كده؟

روح: أيوه، دي عارفاها.

نور: سيدي عبد العزيز هو أبرز مريدي الشيخ الجزولي طبعًا، وكان له فضل كبير في نشر فضائل الصوفية في وقته. القاضي عياض هو أشهر فقهاء المالكية في المغرب، وكان ورع جدًّا، ويحب الرسول عليه الصلاة والسلام حب كبير، وألِّف كتاب من أهم كتب السيرة اسمه «الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى». يا ريت تقريه يا روح! كتاب مهم، وأنا شخصيًّا باحبه جدًّا، وقرأته أكتر من مرَّة، ما باشبعش منه ولا من سيرة صاحبه أبدًا!
روح: عليه الصلاة والسلام. حاضر، هاجيبه وأقراه. كده يبقى فاضل أربعة.
نور: تمام. صاحب القصور، أو زي ما بيسموه هنا «مول القصور»، سيدي عبد الله الغزواني، وهو المجدد للبناء الصوفي اللي أسسه الإمام الجزولي. كمان الإمام السهلي، واشتهر بغزارة علمه، وسمو أخلاقه، وأشعاره الصوفية، وتفتحه في زمن اشتدت فيه الرقابة والعصبية المذهبية. كده يبقى فاضل اتنين. سيدي أبو العباس، وكان مشهور بالعطاء، والعطف على الضعفاء خصوصًا العميان. وأخيرًا، سيدي أبو يعقوب يوسف بن علي الصنهاجي المبتلى، وسُمي بـ«المبتلى» لأن الطاعون أصابه، وكان مثال حي للقناعة واليقين. كلهم أئمة كبار، أثروا التصوف، وتَركولنا ميراث غزير من العلم، وتلاميذهم في أرض الله بينقلوا عنهم إلى اليوم. ربنا ينفعنا بيهم وبعلمهم في الدارين!
روح: آمين.
نور: عايزك تستحضري الكلام ده وإنتِ بتزوري على أد ما تقدري، وادعي ربنا باللي ييجي على قلبك، وإن شاء الله الملايكة الحاضرة تأمِّن على دعائك، وإن شاء الله ربنا يستجيب لكل اللي نفسك فيه. دول أوليا كبار ومحدش يزورهم إلا ويكرموه بإذن الله.. أكابر.
روح: أنا ما باطلبش من ربنا حاجة يا نور، هوَّ يديني اللي هوَّ عايزه. أنا كمان هاطلب؟! هوَّ فيه أكتر من كرمه وحبه لي عطاء؟! والله ده أنا باتكسف منه! إنت مش شايف كرمه معايا إزاي؟ مغرقني في كرمه.. فعلًا كريم!
ابتسم نور لكلمات روح الرقيقة، وفطرتها النقية التي تُخرج الكلمات على لسانها بكل بساطة وعفوية، وقال:
- ربنا يعطيكِ حتى يرضيكِ يا روح!
روح: ويعطيك إنت كمان حتى يرضيك يا نور، ويحرسك ويحفظك ويحميك!
وقف نور في خشوع يقرأ الفاتحة ويتمتم بالدعاء. ووقفت روح أيضًا في خشوع تدعو ربها بما في قلبها. استغرقت في الدعاء، واستغرقت في حال حضرة الأكابر أصحاب الأرض، فوجدت نفسها تُغمض عينيها وتُحدِّثهم بقلبها، والكلمات تنساب:
بالدَّمع أسألُكمُ، وأنتمُ أهلٌ للسُّؤال
بالدَّمع أرجُوكمُ، وأنتمُ أهلٌ للرَّجاء
بالدَّمع أقفُ بين أيديكمُ، وأنتمُ في القَلبِ أَصحابُ المَقام
أسألُكمُ العَطاءَ، واللهُ هو المُعطي، وأنتمُ للعَطاءِ أداة
أوصلُونا كما وُصِلتُم، ولا تتركونا مَقطوعين مُنتظرين على الأبواب
أفيضوا علينا مما أفاضَ عَليكمُ المُعطي صاحبُ المَددِ والعَطاء
اقبلونا واجبُرونا، كما قَبِلَكمُ العَزيزُ الجَبار
في القَلبِ حاجةٌ أنتمُ لها أهلٌ ولديكمُ الجواب

أعطونا حاجَتَنا، فأنتمُ أكابر، ونحن نَطمعُ فِيكمُ طَمعَ الأحبابِ في الأحباب
لا تمنَعوا عنا المَددَ وتَتركُونا حَيارى لا نَعرفُ الجَواب
إذا كُنا لا نَستحقُّ المِنَّةَ، فأنتمُ أهلُ كَرمٍ، ونَحنُ عابِرو سَبيلٍ نَطرقُ الأبواب
لا تَردُّونا فارِغي الفُؤاد
لا تَردُّونا فارِغي الفُؤاد
لا تَردُّونا فارِغي الفُؤاد
اسقونا مِن عِلمِكمُ سُقيا المُتَّقين الأخيار
فنحنُ عَطشى، وأنتمُ أُعطِيتمُ الأبيار
سألزمُ بابَكمُ حتى تأذَنوا لي بالدُّخولِ في حَضرةِ المُصطفين الأبرار
أنا هُنا أَنتظرُ على بابِكمُ، وقَلبي لكمُ مُستقرٌّ ومُقام

*

علت صيحات الهدف الأخير في شِباك «ريال مدريد»، وأدرك ضيا أنه سيغسل الأطباق، وسيتلقى دعابات مريم الساخرة عن لعب فريقه. ما المشكلة أن يخسر فريقه؟ ما المشكلة أن تخسر كل الفرق وكل الناس وتبقى مريم سعيدة؟ إن سعادة مريم أهم من كل شيء!

كان المطبخ في الدور العلوي على الطراز الأمريكي، بما يسمح لمُعد الطعام أن يرى الجالسين في غرفة المعيشة والتلفزيون. جلست مريم تُقلِّب في ريموت التلفزيون، وضيا في المطبخ يغسل الأطباق، إلى أن سمع جزءًا من «كارمينا بورانا» أثناء تغيير مريم للقنوات!

ضيا: من فضلك يا حبيبتي، رجعي القناة اللي جايبة «كارمينا بورانا»!

مريم: دي مش كاملة يا بابي، دي حتة بس في الإعلان.

استغرب ضيا، وقال:

ـ إعلان إيه؟!

مريم: إعلان الحفلة.

ضيا: حفلة إيه؟!

مريم: حفلة مراكش. ما تقولّيش إنك مش عارف!

ضيا: حفلة مراكش؟! لا مش عارف. إيه الموضوع؟

مريم: الأوركسترا النمساوي هتعزف «كارمينا بورانا» على المسرح الملكي في مراكش.

ضيا: إمتى يا مريم؟

مريم: أظن ابتدوا النهارده. مش متأكدة.

ترك ضيا الأطباق، وتوجه إلى مريم في غرفة المعيشة سريعًا، وقال:

ـ لا، ادخلي على موقع المسرح على الإنترنت وشوفي كانت النهارده ولَّا لأ!

أمسكت مريم بهاتفها المحمول، ودخلت بالفعل على موقع المسرح:

ـ لا يا سيدي، لسه بكرة، ولمدة تلات ليالي. يعني تلحق تحضر!

ضيا: في مراكش؟

مريم: أيوه. قلتلك في مراكش!

ضيا: عارف يا حبيبتي، عارف. أنا بس مستغرب مش باسأل!

قبَّلت مريم ضيا على خدة قُبلة سريعة، وقالت:
ـ طيب أنا هادخل أنام علشان تعبانة أوي وصاحية من بدري. تصبح على خير.
بقي ضيا شاردًا، يفكر في الصدفة التي أتت بالأوركسترا النمساوي من فيينا إلى مراكش لتعزف مقطوعته الموسيقية المفضَّلة، التي أحبتها روح وتمنَّت أن تسمعها تُعزف حية.
التفت إلى مريم بعد أن ذهبت لتنام، وقال بصوت خافت:
ـ وإنتِ من أهل الخير!
ذهب لينام أيضًا، وقرر أن يفكر غدًا فيما سيفعله، فهو لم يكن يومًا مندفعًا، ولم يُقبل على أي تصرف من دون تفكير كافٍ.
«لا يزال هناك وقت للتفكير، فستبدأ الحفلات يوم السبت، ولا داعي لأي تصرف متسرع الآن».
هكذا حدَّث نفسه قبل أن ينام.

*

في طريق عودة روح ونور إلى الفندق بعد الزيارات، دارت بينهما أحاديث عامة، وكأنهما يريدان أن تمر هذه الدقائق التي يقضيانها معًا بسلام، ومن دون أن يجرفهما اشتياقهما إلى ما لا تُحمد عقباه. فالاثنان يعلمان تمامًا خطورة الموقف وتعقيده.
تحدث نور عن المناظرة، وأخبرها عن مدى أهميتها بالنسبة إليه، وسألها عن أحوالها في قونيا، إلى أن مر الوقت بسلام وأوصلها إلى الفندق.
روح: متشكرة أوي يا نور!
نور: أنا اللي المفروض أشكرك! إنتِ عارفة أنا باحب أزور معاكِ إزاي!
ابتسمت روح وقالت:
ـ مولانا الحسين وحشني أوي!
ابتسم نور وقال:
ـ إن شاء الله تزوريه قريب!
روح: إن شاء الله.
نور: أعدِّي عليكِ بكرة الساعة سبعة كويس؟ علشان نلحق نصلي العشا هناك قبل الإنشاد.
روح: مش عايزة أتعبك. أنا ممكن أخلِّي ضيف يوصلني، أو حتى آخد تاكسي من الفندق.
نور: وده كلام برضو! هاعدي عليكِ الساعة سبعة.
روح: إن شاء الله.

*

صعدت روح إلى غرفتها وهي في حالة من النشوة: كانت الزيارات بعد فترة مضت مليئة بالأشياء المادية، ولدى نور قدرة على أن ينقلها إلى عالم آخر فور ظهوره على مسرح الأحداث. كل شيء عاد كما كانت في مصر. كل شيء اليوم ذكَّرها بأيام القاهرة التي كانت تذهب فيها مع نور لزيارة الحسين.
لكن، لا ريب أن كل الزيارات في كفة، وزيارة سيد شباب الجنة في كفة أخرى، فقد كانت تملأها بالراحة والسعادة والقوة، وأيًّا كانت حالها وهي ذاهبة إلى الحسين فإنها تعود من زيارته كما تعود الأميرات من حفلات التشريفة، أو ربما حفلات تتويج الملكات، فتخرج من مقامه وكلها شعور بالعزة والقوة والجمال. وهل كان الحسين إلا هكذا؟ قوة وعزة وجمالًا؟

جلست فوق سريرها تستعيد هذه الذكريات: الحسين وزيارته، وإحساسها به، ومدده الذي كانت دائمًا تثق فيه وتتلقاه منه، الحسين حبيبها الجميل أشبه الرجال بجده.
نامت، وعلى وجهها ابتسامة، وكأنها ترى الحسين. هل نامت بالفعل، أم أنها ذهبت في إحدى رحلاتها التي تذهب فيها بروحها لتستقبل رسائل من العالم الآخر، رسائل تجعل حياتها أجمل وأصعب، وهي لا تملك إلا أن تقول سمعنا وأطعنا في كل مرَّة؟
رأت نور ورأت نفسها معه مجددًا، نفس العالم الذي يجمعهما بجمال، ونفس الترانيم التي تتغنى بها الملائكة، ونفس الألحان التي لم تسمع في جمالها من قبل. حتى هي ونور يبدوان أجمل وأسعد وأريح مما يبدوان عليه على الأرض. كانت ترتدي نفس الرداء الحريري الأخضر ونفس غطاء الرأس، وتسير وحدها على أرضية تبدو بحرًا. كانت المياه أكبر وأجمل وأعمق، وكانت هي تمشي على السطح بمنتهى الحرص والرفق. كان نور ينتظرها في الضفة الأخرى من البحر، وكان في أبهى صورة، وعيناه تلمعان وينظر إليها بكل حب. كانت تعلم أنها ذاهبة إليه وتمشي على البحر بخطى ثابتة ولا تعبأ بكون الأرض بحرًا. الملائكة كانت ترفرف فوق رأسها كما ترفرف طيور النورس على البحر، وكانت تشم رائحة الجنة، وكانت نسمات الهواء تداعب خصلات شعرها برقة وتحركه كما لو أنها تطير ولا تمشي على البحر. اقترب منها أحد الملائكة المحلقين فوق رأسها، وغاص بعمق في البحر، وعاد من الأعماق بمحارة جميلة لم ترَ مثل جمالها من قبل، وأعطاها المحارة وتبسم، ثم عاد للتحليق فوق مياه البحر. فتحت المحارة فكان نورها قويًّا وأجمل وأقوى من أي نور رأته من قبل، كان مكتوبًا بماء الفضة داخل المحارة: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ».
وتحت الآية ختم بماء الذهب. الختم كان دائرة بها اسمان: حسين.. زينب.
رفعت رأسها ونظرت إلى نور على الضفة الأخرى من البحر وهي تريد أن تطير إليه كما تطير الملائكة فوق البحر، وتريد أن تريه المحارة وتقرئه الآية وتشهده الختم. ولكنه بعيد يقف عند الشط، نظرت حولها كأنها تبحث عن ملاك تعطيه المحارة ليوصلها إلى نور، ولكن الملائكة كانت مأمورة ألَّا تتوقف عن التحليق والغناء والعزف. نظرت إلى نور فوجدته يبتسم ويهز رأسه ويعلمها أنه يعلم ويرى ما كُتب داخل المحارة وما ختم به آل البيت في الختم.
قربت المحارة من شفتيها وقبلت الختم، قبلت الحسين وزينب في الرؤيا، وشمت رائحة ختم الذهب، وأغمضت عينيها وهي تقبل المحارة، ففتحتها في عالم الدنيا وعادت من رؤياها واختفى من تحتها البحر.
عادت روح من حلمها أو من رحلتها إلى عالم الدنيا. عادت سعيدة خفيفة قوية تمامًا كما كانت تشعر بعد زيارة الحسين. فتحت عينيها وهي لا تصدق ما كانت فيه من جمال. إن هذه الرؤيا من أجمل الرؤى، بل أجملها على الإطلاق. ما هذا الجمال؟ إنهما الحسين وزينب. جمال فوق الوصف. لم تفكر ولم يكن هناك أي مجال للسؤال أو الشك. الرؤيا واضحة، سيدنا الحسين وستنا زينب قد ختموا على جمع نور وروح. الختم والآية يقران بجمعهما ببعض. كان منتهى أملها أن تخبر نور بهذه الرؤيا التي تعلم كم ستفرحه وتسعد قلبه، ولكنها كانت تعلم أيضًا أنه ما زال لم يحن وقت الإفصاح عن كل شيء ويجب ألَّا تندفع، وتنتظر حتى يحين الوقت.

*

أخرج روح من حالة السُّكر التي كانت عليها رنين هاتفها. لو كان الأمر بيدها لاختارت ألَّا تنتهي هذه الحالة أبدًا! نظرت في الهاتف، فوجدت رقم ضيا! نهضت وجلست تنظر إلى الهاتف كما لو

كان اتصاله الآن بالتحديد يضعها في اختبار قاسٍ. ما كانت ستفكر فيه بعد هذه الرحلة التي ذهبت فيها ورأت ما رأت واضحًا كوضوح الشمس. كان يجب أن ترد.
روح: ألو!
ضيا: إزيك يا روح؟
روح: الحمد لله يا ضيا، أنا كويسة أوي، إزيك إنت طمني عليك.
ضيا: أنا برضو كويس. إنتِ أخبارك وأخبار مراكش إيه؟ شُفتِ شيخك ولَّا لسه؟
روح: أيوه الحمد لله، كنت عنده الصبح، ورايحة تاني إن شاء الله.
ضيا: طيب كويس. مبسوطة؟
روح: آه أوي. وإنت أخبارك إيه؟
ضيا: أنا عندي مفاجأة ليكِ!
روح: خير؟
ضيا: «كارمينا بورانا».
ضحكت روح، وقالت:

ـ بنقول في مصر «عروستي» لما ما بنفهمش حاجة!
ضيا: إنتِ مش كان نفسك تحضريها لايف؟
روح: أيوه نفسي جدًّا!
ضيا: الظاهر يا ستي إن أبواب السما كانت مفتوحة لما قلتِ كده. أوركسترا النمسا جاية مراكش عندك، وهتعزفها على المسرح الملكي. ها؟ شُفتِ المفاجأة؟
روح: الله! بجد يا ضيا؟ فعلًا عندك حق إن أبواب السما كانت مفتوحة، هيَّ على طول مفتوحة ما بتقفلش أبدًا!
ضيا: طيب بصي يا خانوه، أنا هاشتري تلات تذاكر، أنا وإنتِ وضيف بك، وهاجي عندكم بكرة إن شاء الله. ما أعتقدش هنلحق حفلة بكرة، بس على العموم همَّ هيعملوا تلات حفلات.
خطر ببالها نور على الفور، تريد له أن يستمتع مثلها بالمقطوعة الموسيقية الساحرة، وتريده أن يقابل ضيا، وفي الوقت نفسه لا تريده أن يجتمع بضيا في وقت واحد! ما هذه الحيرة؟ قالت:
ـ طيب ممكن تخلِّيهم أربع تذاكر يا ضيا من فضلك؟
ضيا: طبعًا ممكن. فيه حد عندك هيحضر معانا؟
روح: أيوه.
ضيا: خلاص اتفقنا. لما أوصل مراكش هاتصل بيكِ.
روح: توصل بالسلامة إن شاء الله.
ضيا: الله يسلمك. مش عايزة أي حاجة من هنا؟
روح: تسلم. أعوزك طيب.
ضيا: دي بيردوا عليها ويقولوا «وإنتِ من أهله» زي تصبح على خير؟
ضحكت روح بشدة، وقالت:
ـ بجد بتضحكني جدًّا! لا، هيَّ ملهاش رد، بس تصدَّق تنفع يترد عليها بـ«وإنت من أهله»!
ضيا: طيب الحمد لله، ابتديت أتعلِّم مصري.

روح: ضيا...
ضيا: أفندم.
روح: شكرًا!
ضيا: على إيه يا خانوه؟ مفيش شكر بين الأصحاب. يلَّا خلِّيني أروح أجيب التذاكر. مع السلامة.
روح: مع السلامة!
أنهى ضيا المكالمة وهو سعيد بسماع صوتها مجددًا، وسعيد أكثر لأنها فرحت بما قال، وسعيد أكثر وأكثر لأنه سيراها غدًا. يجب أن ينتهي هذا اليوم ويأتي غدًا سريعًا. «لماذا يجب عليه أن ينتظر أربعًا وعشرين ساعة حتى يراها؟! لماذا يبدو اليوم طويلًا هكذا؟!».
تركها ضيا في حالة جديدة لم تختبرها من قبل، بل ربما تختبر هذه الحالة حبها لنور بعد ظهور ضيا في حياتها. هل ظهور ضيا في هذا التوقيت هو إحدى المرايا التي يجب أن تنظر إليها روح، وتختار إن كانت ستُغير في شكل الرحلة أم ستُكمل كما كانت؟ لم يكن لظهور ضيف التأثير نفسه عليها عندما قابلته في قونيا. ضيف منذ البداية لم يخترق أي منطقة قلبية، وتأثيره ينحصر في منطقة العقل فقط. وعلى الرغم من كل محاولات الغزل، وكل الاحتواء والحماية، وهذا الإصرار، فإن ذلك لم يستمل قلبها قيد أنملة. على عكس ضيا الذي لم يفعل أي شيء، ولم يبذل أي مجهود، ولم يحاول أن يبدو بطبيعة أو شخصية غير طبيعته أو شخصيته، فكان يتصرف بعفوية تامة، مثلها تمامًا. عادت إلى الحيرة مرَّة أخرى، وشعرت بالاختبار. شعرت بالدرجة السادسة ودوَّنتها.

الدرجة السادسة
ليس اليقين أن تتمسك بما تشعر، عندما يكون منفردًا في القلب.
لكنَّ اليقين أن تظل متمسكًا به، مع وجود بدائل، الوصول إليها أيسر.
لكنك تؤثر الصعب الذي تُصدِّقه، وتختاره على السهل الذي قد تناله بطرفة عين.
«أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ».

14

كان نور بالطبع يقيم في مراكش في منزل عائلة حياة، وكانت والدة حياة تتمتع بمكانة خاصة في قلبه، فطبيعتها الحنون تذكِّره بأمه التي فقدها صغيرًا. تمنى لو كانت والدة حياة هي أمه، فيضع رأسه على صدرها، ويغمض عينيه ويخبرها بكل ما يحمل من عبء. تمنى أن يعود طفلًا ويخبئ نفسه في حضن أمه ويشم رائحتها.. رائحة الحب. إنه يتذكَّر أمه منبع السلام النفسي والحب.
كانت السيدة جليلة سيدة حكيمة وذكية جدًّا، فعلى الرغم من أن حياة كتومة ولا تُصرِّح بأي شيء عن علاقتها بنور، فإنها شعرت بأن هناك شيئًا ما طرأ على نور، وأثَّر على علاقته بابنتها. لم تعد العلاقة كسابق عهدها، حتى إن تظاهر الاثنان بأن الأمور على ما يرام. كانت تعلم أن طبيعة الرجال مختلفة، ومن السهل جدًّا أن ينجذب الرجل إلى امرأة أخرى غير زوجته، وقد رأت ذلك كثيرًا، وهي نفسها مرت بتجربة مشابهة مع زوجها.
جلس نور في حديقة المنزل ممسكًا بسبحته يسبح في سكون، فقطعت السيدة جليلة هذا الصمت، ووضعت يديها على كتفيه في حنان وهي تبتسم من خلفه. تنبَّه نور فأدار رأسه وهو يعلم أن هذه اللمسة الحانية ليست سوى لمسة السيدة جليلة.
جلست السيدة بجواره، وقالت:
ـ حضَّرت حالك كويس لشغلك اللي رايحله إسبانيا يا ابني؟
نور: أيوه يا أمي. الحمد لله.
جليلة: وقابلت مولانا، مش كده؟
نور: تمام يا أمي.
جليلة: هيَّ حياة مشغولة أوي في مصر؟ يعني ما كانش ينفع تيجي معاك خالص؟
نور: عندها ارتباط مهم.
جليلة: إنت عارف إن دي أول مرَّة تبقى هنا من غير حياة؟!
ابتسم نور وقال:
ـ فعلًا.
جليلة: تصدَّق يا نور إن دخلتك عليَّ زي دخلة خالد وإبراهيم تمام، ويمكن تزيد، وربنا الشاهد؟
نور: صادقة يا أمي. وربنا العالم بمقامك عندي شكله إيه!
جليلة: إنت عارف يا نور إني ممكن أحكيلك حاجات ما أحكيهاش لخالد وإبراهيم وحتى بناتي؟ عارف ليه؟
نور: دي حاجة تشرفني طبعًا، لكن ليه؟
جليلة: علشان إنت عاقل، وهمَّ ممكن يتصرفوا تصرف مش مسؤول، لكن إنت اسم الله عليك رزين وراسي!
مد نور يده وأمسك يد السيدة جليلة وقبَّلها امتنانًا لرأيها.
استطردت جليلة في الحديث:
ـ يعني من شوية كنت باسمع أم كلثوم.. «فات الميعاد».. روعة! كلام الأغنية دي بالذات بيمسني دايمًا! بالذات لما بتقول: «ياما كنت أتمنى أقابلك بابتسامة أو بنظرة حب أو كلمة ملامة.. بس أنا

نسيت الابتسام.. زي ما نسيت الآلام... ستاير النسيان نزلت بقالها زمان.. وإن كان على الحب القديم وقساه.. أنا نسيته أنا». ياااه يا نور! تحس إن اللي كتب الكلام ده لازم يكون مر بيه في حياته، أُمَّال هيجيب الصدق ده منين؟ بتفكرني بحكاية قديمة بس سابت أثر كبير، الجروح اللي زي دي بتسيب أثر مهما مرت سنين!

شعر نور بأن السيدة جليلة تريد أن تتحدث، فلم يُعلِّق، لكن كانت نظرته كلها إنصات واهتمام.

جليلة: الحكاية دي محدش عرفها إلا أبويا الله يرحمه. في يوم من الأيام، عرفت إن عمك أبو حياة بيعرف واحدة تانية وناوي يتجوزها. إنت ما تعرفش الست بتحس بإيه لما تعرف إن جوزها في حياته ست تانية؟

كان نور منتبه جدًّا لحديثها، وقال باهتمام:

ـ بإيه؟

جليلة: بتحس إنها قليلة، وإنها مش كفاية! إحساس وحش أوي لما الست تحس إنها ما قدرتش تملا عين جوزها، وإن فيه واحدة تانية هيَّ اللي ملت عينه! كأنك بتقولها إنتِ ناقصة وأنا مش شايفك وإنتِ مش عاجباني! ودي أكتر حاجة بتجرح الست مهما كانت جميلة أو ناجحة ولَّا غنية حتى!

نور: عملتِ إيه؟

جليلة: ما بقيتش عارفة أعمل إيه! جريت على أبويا، بكيت وحكيتله. مش مصدقة إني أبقى زوجة تانية وحد يشاركني في أبو أولادي بعد ما كان ليَّ لوحدي!

نور: وبعدين؟ عمل إيه؟

جليلة: أبويا كان عاقل زيك يا نور، سألني سؤال واحد: «عايزاه ولَّا مش عايزاه؟». قلتله عايزاه، مش عايزة أتطلق، ومش عايزاه يتجوز عليَّ! قالي: «جوزك راجل شديد، ولو قلتيله ما تتجوزش هيروح يتجوزها تاني يوم. لو عايزاه اعملي نفسك ما تعرفيش!». قلتله إزاي؟ قالي: «صعب بس مش مستحيل».

نور: وعملتِ إيه؟

جليلة: خرجت من عنده مش عارفة أعمل إيه! رُحت البيت شُفت خالد وإبراهيم ونائلة وحياة بيلعبوا، خُفت.. خُفت فرحتهم دي تتسرق، وخُفت ألاقي نفسي متطلقة ووحيدة ومعايا أربع أولاد، وأبو خالد زي ما أبويا قال عنه راجل شديد، يعني مش ممكن تتوقَّع بعد الطلاق هيتصرف إزاي!

نور: خُفتِ؟

جليلة: جدًّا، لدرجة إن الخوف إداني قوة. مسحت دموعي وعرفت أعمل نفسي مش عارفة!

نور: قدرتِ؟

جليلة: قدرت علشان جبانة، مش علشان قوية! ما هو الخوف زي القوة بالظبط، بيخلِّي الناس تستحمل، بس القوي بيستحمل علشان هوَّ عارف بيعمل إيه، لكن الجبان بيستحمل علشان مش عارف يعمل إيه.

نور: مظبوط. حضرتك حكيمة جدًّا.

جليلة: الأيام علمتني!

نور: تسمحيلي أسألك سؤال؟

جليلة: طبعًا يا ابني.

نور: ندمتِ؟

ابتسمت جليلة بمرارة، وقالت:
ـ على رأي الست: «وتفيد بإيه يا ندم»! ندمت أكيد وأنا كل يوم بامثِّل، وباضحك في وشه، وباكتم على جرحي، وأتوجَّع من غير ما حد يحس! محدش عرف، ولا حكيت لولادي لما كبروا، ولا حتى أمي عرفت. هوَّ كمان ما عرفش إني كنت عارفة. كان كل يوم بيحس إن فيه حاجة بيني وبينه اتكسرت، وإني بابعد، وما حاولش حتى يقولي مالك! وأهو عيشنا، والولاد اتربوا وكبروا، وهوَّ شوية وسابها. لكن بعد إيه؟! اللي انكسر مش بيتصلح!
نور: ربنا هيعوضك إن شاء الله ويجبرك.
جليلة: الله يرحمه ويغفرله.
نور: الله يرحمه ويرحمنا جميعًا.
جليلة: صدقت يا ابني. الناس بيبقوا ماشيين في الدنيا متطمنين، وفجأة يلاقوا اختبار يقلب كيانهم وما يعرفوش يعملوا إيه! ربنا يرحمنا وما يحطناش في اختبار، ولا يولي الخوف والعجز علينا!
ربتت السيدة جليلة على كتف نور، وسألته إذا كان يريد منها أي شيء قبل أن تذهب للنوم، فشكرها وذهبت.
ظنت السيدة الحكيمة أنها أوصلت لزوج ابنتها الرسالة التي تريد أن تقولها له بحكايتها، وتصورت أنها هكذا تساعد ابنتها وتحمي زواجها، لكن نور وصلته رسالة أخرى.
رأى نور في قصة جليلة ما يفعله الخوف والعجز في حياة الناس. لمست كلماتها قلبه جدًّا. لم يكن يعلم حتى هذه اللحظة أن للخوف قوة، كان يظن أن الخوف يُولِّد الضعف، فاكتشف أن الخوف يُولِّد قوة، قوة تجعل البشر يتشبثون بحياة تشبه الموت، مجرد أنفاس، حياة في سجن ألفوا جدرانه وسجَّانه، فضلوها على المغامرة وتجربة المجهول في الحياة خارج السجن وبلا سجان. خاف نور أن يُولِّد عجزه قوة تجعله يمضي في حياة ظالمة له ولروح ولحياة، من دون أن يعلم أن هذه القوة ليست صبرًا أو جلدًا، وإنما خوف من التغيير، وعدم

القدرة على حسم الأمور عندما يأتي الوقت لحسمها.

*

كانت روح في أعلى درجات الشفافية منذ وصلت إلى المدينة الحمراء، واتصالها بنور كان في أوج حالاته، فلم يعد تواصلًا روحيًّا فحسب، لكن الأجساد أيضًا أصبحت في حال اتصال بشكل كبير. كانت تشعر بقلقه وتوتره في ضيق حلقها، وشعرت بخوفه عندما زارتها هذه الفراشات التي تشعر بها في معدتها إذا خافت. تذكَّرت روح أمها، فهذه الفراشات مرتبطة بيوم وفاتها. الآن زارتها فراشات خوف نور وفقده لأمه، وليس فقدها لأمها. تذكَّرت أمها وتذكَّرت رائحتها. رأت عينيها وجمال ابتسامتها، وسمعت صوتها. كانت ابتسامتها تطمئنها، وتسحب كل الفراشات التي شعرت بها، وكل الخوف الذي انتابها، بل الخوف الذي انتابهما. هل كانت أمها أم أمه أم الاثنتين معًا؟ رأت أمها مختلفة، أجمل وأعذب وأرق، رأتها تضحك وترسل إليها ملائكة طمأنينة وحب. شعرت بطمأنينة الأم، وأرسلتها إلى نور. لم تخاطب نور هذه المرَّة، ولكن خاطبت أمها من أجل نور:
ـ أمي.. لن أطلب منكِ هذه المرَّة أن تعانقيني بقوة كما اعتدت أن أطلب منكِ، ولكني سأطلب أن تعانقي شخصًا آخر بالنيابة عني يا أم الحب، ورجاءً عانقيها بجمال، فهي سيدة مثلك كلها جمال

وحب. لي حبيبة في الجنة رحلت مثلكِ عن أحبة لي، لم أرها يومًا ولكنني أحببتها كما أحببت حبيبها كل الحب. أريدك أن تبحثي عنها وتجديها من أجلي ومن أجل حبيبها سيد قلبي وسيد قلبها بالطبع. ابحثي عنها في كل الجنان، فأنا على يقين أنها تسكن في إحدى تلك الجنان العلا إذا لم تكن في أعلاها على ما أظن. أعتقد أنها سوداء العينين، ذات شعر أسود ناعم طويل، هو هكذا عيناه، ومؤكد ورث عنها جمال العينين. ستجدينها سيدة مضيئة نورًا يا أمي، بالتأكيد ستكون، فمن أنجبت النور هي لا محالة نور مشع. ابحثي عن أم النور يا أمي، وعندما تجدينها اقتربي منها وعانقيها بقوة، فتلك السيدة هي أم حبيبي، عندما تقابلينها قولي لها ابنتي تحب ابنكِ، وقولي لها لا تقلقي عليه، فابنتي ستكون له أمًّا تمامًا مثلكِ أنتِ، فأنتِ أنجبتِ من رحمكِ النور، وابنتي أنجبت النور من قلبها بحبه، وكلتاكما حملته بداخلها، وكلتاكما أحبته حتى وصل الحب منتهاه، ولكن ابنتي عرفت معه معنى العشق. قولي لها إن ابنتي تراه رجلًا لا يعادله كل الرجال، ولكنها تشعر به طفلها الصغير وستمنحه كل الحب والحنان اللذين تعطيهما الأم وتعطيهما من حقًّا تحب. قولي لها ابنتي ستضمه إلى صدرها كما تضم الأم الصغار وتطمئنهم بصمت. قولي لأم النور إن ابنتي ستمسك وجه ابنكِ يومًا وتنظر إلى عينيه السوداوين وتهمس له بحب: أنت صغيري يا أكبر الكبار ويا كل العشق.

*

في الصباح تناولت روح الإفطار مع ضيف في مطعم الفندق، وأخبرته عن اتصال ضيا بالأمس، وعن ذهابهم لحضور العرض الموسيقي لـ«كارمينا بورانا» على المسرح الملكي. وكان رد فعل ضيف متواضعًا جدًّا أمام الخبر، فلم يُبدِ أي حماس، وهز رأسه فقط وهو يكمل إفطاره، وببرود قال:

ـ تمام، يبقى بكرة مسرح. تحبي تعملي إيه النهارده؟

استغربت روح من رد فعل ضيف، فقد تخيلت أنه سيهتم أكثر لحدث بجمال وأهمية «كارمينا بورانا»، وسيشعر بالتقدير بعض الشيء لتصرف ضيا. أحست روح بجمود، وكأن ضيف يعتبر الوقت الذي يقضيانه معًا أجندة رجال أعمال! صمتت لوهلة، ثم قالت:

ـ النهارده فيه إنشاد عند سيدي بعد العشاء، هنروح بدري علشان نلحق نصلي العشاء معاه، وبعدين نحضر الإنشاد.

ضيف: لا، اعذريني يا روح، أنا الأجواء دي زي ما إنتِ عارفة مش بتستهويني في كل وقت، أنا هاوصَّلك وأمر آخدك، بس مش هاقدر أحضر معاكِ، عندي شوية شغل متأخرين وفرصة أخلصهم.

اغتاظت روح أكثر، وقالت:

ـ أنا ما كانش قصدي عليك! أنا أقصد نور!

ضيف: طب لطيف جدًّا إن نور هيبقى معاكِ. عمومًا، لو نور مش فاضي أنا ممكن أوديكِ، ما تطلبيش منه يوصلك، أكيد هوَّ كمان مشغول وعنده حاجات لازم يخلصها قبل ما يروح إسبانيا.

شعرت روح بالغضب بسبب غلظة رد ضيف، ولم تستطع أن تمنع نفسها من الرد بحدة أكبر:

ـ ما أطلبش من مين يا ضيف؟! نور؟! هوَّ نور بيستنى إن أنا أطلب منه حاجة أساسًا؟! نور من قبل ما أطلب بيعمل كل حاجة وزيادة! إنت لسه ما تعرفش مين نور سيف الدين!

ضيف: يعني، أنا قلت يمكن مشغول ولَّا حاجة.

احتدت أكثر، وقالت:
ـ حتى لو مشغول! وعلى فكرة، نور دايمًا مشغول، لكن بيعرف يدي لكل حاجة وقتها.
ضيف: طيب تمام. يبقى كده إنتِ النهارده بالليل عند شيخك مع نور. تحبي نعمل إيه بعد الفطار؟
روح: ما أحبش أعمل حاجة يا ضيف! أنا لازم أزور أم حياة، مش معقول آجي مراكش وما أروحش أسلم عليها!
ضيف: طبعًا، أكيد، تحبي أوصلك بعد الفطار على طول، ولَّا عايزة تعملي حاجة الأول؟
روح: لا، شكرًا، خليك براحتك! أنا هاطلع أوضتي أجيبلها الهدايا اللي جايبهالها من قونيا، وهاخليهم في الفندق يجيبولي تاكسي.
ضيف: إزاي يعني أسيبك تاخدي تاكسي لوحدك وأنا موجود؟
كان الغضب من أسلوب ضيف وردوده المستفزة قد تملَّك من روح، خصوصًا عندما تحدث عن نور. لم تشعر بنفسها عندما انفعلت وقالت:
ـ إيه اللي هيجرالي يعني؟! هاتخطف؟ هيكلوني الناس؟ ما أقدرش أسيبك! لازم تاكلي! هابعتلك فطار في الأوضة! كفاية بقى! أنا مش عيلة عندها خمس سنين! أناعايشة لوحدي من زمان ومتحملة مسؤولية نفسي كاملة! ومش محتاجة وصاية منك أو من غيرك! فاهمني؟!
انزعج ضيف من انفعال روح المبالغ فيه من وجهة نظره، وسألها مندهشًا:
ـ إيه اللي حصل يا روح؟! ليه كل ده؟! علشان قلتلك إني خايف عليكِ؟! كل العصبية دي علشان أنا مهتم بيكِ؟!
روح: لا يا ضيف! فيه شعرة رفيعة أوي بين الاهتمام والسيطرة، وأظن إن أنا وضحتلك قبل كده إني ما باقبلش حد يفرض عليَّ أي شيء، حتى لو كانت الحماية، وقتها إنت اعتذرت، وأنا افتكرتك فهمت، بس الظاهر إني ما وضحتش نفسي كويس!
لم يعجبه كلامها ولا أسلوبها الحاد المباشر، فنظر إليها بجمود، ونهض من جلسته وهو ينظر في عينيها، وقال:
ـ لأ، واضح. عن إذنك. أسيبك دلوقتِ علشان تبقي على حريتك.
مضى ضيف وكأنه يعلن بوضوح أنه أيضًا لن يتقبل فرض روح لأسلوب حياتها عليه طوال الوقت، ولن يقبل غضبها أو انفعالها أيًّا كان السبب.
رأته للمرَّة الأولى بعينين لم تره بهما من قبل. رأت الثعلب الذي يظل محتفظًا بثباته حتى يُوقع فريسته. رأته يخرج عن ثباته ويغضب. لم يحاول احتواءها كما كان يفعل، ولم يهتم حتى بتهدئتها قبل أن ينصرف! تصرَّف بمنتهى العجرفة والتكبُّر. أين ذهب ضيف الرجل الصبور القوي المتفهم، والمحب أيضًا؟ أين حنانه واستيعابه؟ أين الأمان الذي رأته فيه، وكانت تُرغم نفسها على التفكير فيه من أجله؟ اختفى، وطغى على المشهد الشخص الحقيقي.. ضيف بندر.. الرجل الذي لا يقبل الرفض!

*

وصل ضيا إلى الفندق، وسأل عن ضيف، فعلم أنه يجلس في الكافتيريا ينهي بعض الأعمال ويتفقد الإيميل الخاص به، فذهب إليه. سأله ضيف عن تطورات العمل في المعرض، فأجابه ضيا، وانتهى الحديث حول العمل، فتطرق ضيف للكلام عن العرض الموسيقي لـ«كارمينا بورانا».
ضيف: روح قالتلي على موضوع الحفلة في المسرح الملكي.

ضيا: أنا ما صدقتش! دي مقطوعتي المفضلة!
ضيف: صحيح. صدفة لطيفة.
ضيا: روح دايمًا بتقول إن مفيش صدف. ياه! أنا انشغلت خالص وما كلمتهاش أعرَّفها إني وصلت! بعد إذنك يا ضيف بك، هاتصل بيها.
أخرج ضيا هاتفه المحمول ليتصل بروح، لكن ضيف قاطعه قائلًا:

ـ أعتقد أفضل تتصل بيها وقت تاني لأنها مشغولة دلوقتِ.
استغرب ضيا من رد ضيف، وسأله:
ـ عند شيخها ولَّا إيه؟
ضيف: لأ.
فهم ضيا الرد، وابتسم ابتسامة مصطنعة، ثم استأذن بالانصراف.

*

وصلت روح إلى بيت السيدة جليلة، ورأت سيارة حياة بالخارج فعرفت أن نور في البيت. ارتبكت قليلًا، لكنها أخذت نفسًا عميقًا وتمالكت نفسها. كانت تريد أن تراه، لكن وجودهما معًا في منزل عائلة حياة يربكها كثيرًا، ويشعرها أنها تمد قلبها إلى ما متع الله غيرها به. لكن ماذا تفعل؟ إن قلبها ليس بيدها، ولا سيطرة لها عليه.. ليته كان!
جلست روح في الصالون الأزرق تتأمل هذا البيت الفخم المرتب جدًّا. كل شيء منتقى من أجمل ما يكون وأثمنه، كل قطعة في مكانها: زوايا الكراسي، والأريكة الكبيرة المميزة، وورق الحائط، والسجاد القديم، والتحف، واللوحات الزيتية المعلَّقة على الجدران، والنجف، والستائر. لكن، لماذا تشعر ببرودة على الرغم من التدفئة المركزية في البيت؟ لماذا تبدو الأشياء باهتة على الرغم من أناقتها؟ لماذا الإضاءة قاتمة على الرغم من أن الستائر مفتوحة؟
لم تكن روح تعلم أن السيدة جليلة دفعت حياتها ثمنًا لكل هذه التحف والأنتيكات. حياة جليلة هي أغلى ما تحويه جدران هذا البيت، وليست هذه الجمادات الثمينة. لم تكن البرودة برودة طقس، ولا القتامة قتامة إضاءة، وإنما هو موت الإحساس والمشاعر في هذا المكان الجميل البارد!
قطع شرودها وصول السيدة جليلة وصوتها الحنون.
جليلة: يا أهلًا بروايح مصر! إزيك يا روح؟ والله وحشتينا وفرحتينا بشوفتك! إيه المفاجأة الحلوة دي؟!
روح: الله يسعدك يا ست جليلة، إنتِ كمان وحشتيني.
جليلة: لوحدك هنا ولَّا مع حد؟
ابتسمت روح لأنها فهمت تلميحها عما إذا كانت قد تزوجت أم لا، وقالت:
ـ لا، مش لوحدي، بس لسه لوحدي!
ضحكت السيدة جليلة وقالت:
ـ والله وحشنا كلامك يا روح!
طلبت السيدة جليلة من الخادمة أن تخبر نور بوصول روح.
كان الحديث شيقًا بين السيدة جليلة وروح، إذ لم تكن تعلم بانتقالها للحياة في قونيا، فاستمعت بإنصات وإعجاب إلى تجربة روح، وقارنت فيها بين موقفها وموقف روح التي لم تخف وأقبلت

وغيَّرت مسار حياتها كليًّا، في حين عجزت هي. أعجبت بقوتها التي تمنت لو كانت عليها يومًا!
دخل نور وقلبه يسبقه، ومد يده مصافحًا روح قائلًا:
ـ يا أهلًا بستنا.
روح: الله يسعدك يا نور. إنت هتعمل زي الناس في قونيا؟
نور: همَّ الناس في قونيا بيعملوا إيه؟
روح: مسميني الدرويشة المصرية، وبيقولوا عليَّ روح الرومي!
نور: مدد.
ابتسمت روح في خجل ولم تُعلِّق.
استطرد نور:
ـ ما قالوش حاجة غلط. ما إنتِ درويشة مصرية فعلًا، هو إنتِ فاكرة إن لو ما كانش مولانا بيحبك كنتِ دخلتِ قونيا ولَّا زرتيه؟ إنتِ مش عارفة إن «مفيش زيارة لولي إلا بإذنه»؟ وإنتِ مش بس زرتيه، لا، ده جابك من بلدك لبلده وسكِّنِك جنبه وكل يوم عنده!
جليلة: صحيح يا نور، سيدنا دايمًا كان يقول كده لما كنت أجيلكم مصر، الحبايب ندهوكِ.
قضت روح النهار مع السيدة جليلة ونور، وتناولوا الغداء معًا، وأعطت روح للسيدة جليلة الهدايا التي أحضرتها لها من قونيا، ثم شعرت أنها يجب أن تذهب. لم تُرد أن تقضي مزيدًا من الوقت في هذا البيت، على الرغم من حبها للسيدة جليلة ورغبتها في البقاء بجانب نور، لكن هذا البيت فيه شيء لا يريحها، كما لو كانت الجدران تنظر إليها وتعلم ما في قلبها، وتخشى أن تفشي السر لحياة. وبالفعل استأذنت وأوصلها نور إلى الباب.
نور: فاكرة طبعًا الإنشاد النهارده. الساعة سبعة إن شاء الله.
روح: إن شاء الله. عمومًا، أنا هاكون جاهزة من الساعة ستة. فيه تراس كبير في الدور السابع، المنظر منه حاجة من ورا العقل، شكل الجبال والتلج يجنن، هاشوف الغروب منه، مش عايز تيجي تشوف الغروب معايا؟
ابتسم نور ابتسامته الهادئة، وقال:
ـ أكيد عايز.
ابتسمت روح، وقالت:
ـ طب إيه؟ هتيجي؟
نور: هاجي!

*

في طريقها إلى الفندق، وعطر نور لا يزال يغمرها، وكلماته لا تزال ترن في أذنيها، ولمعة عينيه تعمي عينيها عن رؤية أي شيء، اتصل ضيا!
مرَّة أخرى! مفترق الطرق نفسه، والاختيار نفسه: ضيا على الأرض، أم نور الذي لا تعلم إن كان في الدنيا أم في الملكوت فحسب؟ وفي الحالتين يجب أن ترد على الهاتف حتى لو أجَّلت الإجابة عن السؤال.
روح: أقول «حمد الله على السلامة»، ولَّا «توصل بالسلامة»؟
ضيا: يعني إيه؟ إيه الفرق؟
ضحكت روح:

ـ يعني لو كنت وصلت هاقول «حمد الله على السلامة»، أما لو كنت لسه في الطريق هاقول «توصل بالسلامة». شُفت الفرق؟
ضيا: طيب، أنا فعلًا عندي مشكلة إني مش باعرف أرد على كلامك!
ضحكت روح، وقالت:
ـ فكرتني برشا، الله يمسيها بالخير، كانت بتقول زيك كده: «مش باعرف أرد على كلامك».
ضيا: طيب إحنا عندنا موضوعين دلوقتِ لازم نخلصهم قبل ما أسألك مين رشا!
روح: إيه هما الموضوعين؟
ضيا: أولًا تقدري تقولي «حمد الله على السلامة» علشان أنا وصلت واستلمت أوضتي كمان.
روح: تمام. يبقى «حمد الله على السلامة» و«مراكش نورت».
ضيا: لا، دي عارف الرد بتاعها: «مراكش منورة بأهلها».
روح: والله صدقت يا ضيا. «مراكش منورة بأهلها».
ضيا: أوقات باعرف أقول حاجات كويسة زيك.
روح: مش أوقات، إنت دايمًا كل كلامك حلو!
صمت لحظات، فهو دائمًا يصيبه من حديثها البسيط تيار جارف يربكه، ويخل توازنه، ثم سألها بصوت حنون:
ـ إنتِ فين دلوقتِ؟ عايز أشوفك.
روح: أنا قريبة مش بعيدة، ربع ساعة وهاكون في الفندق.
ضيا: هاستناكِ في الريسبشن.

*

ضيف وضيا، كان المشهد يشبه كثيرًا قصة قابيل وهابيل.. الكبر.. خطيئة إبليس التي حلت على قابيل ها هي تحل مرَّة أخرى على ضيف، أما ضيا فكان هابيل المسالم.
شعرت روح بحديث كالحديث الذي دار بينها وبين ضيف في عالم الأرواح، وهما في قونيا، عندما اقتحم حياتها وأخبرها أنه مُصر على الحصول على قلبها، وأخبرته أن قلبها ملك لحبيبها أبد الدهر. ها هي تستشعر حديثه مرَّة أخرى، ولا يزال ضيف يأبى أن يذهب بسلام.
قال: أما زلتِ على وهمكِ؟
قالت: بل زال الوهم وما بقي إلا اليقين.
قال: إذن ذهب عنكِ من ظننتِ أنه حبيب!
قالت: بل ذهبت إليه وسكن بي وذهب عنا كل الشك ولم يبقَ إلا التسليم.
قال: هذا ليس حبًّا، هذا مرض، ويومًا ما منه سوف تشفين.
قالت: ألقى عليه الله محبة منه، واصطنعه على عينه، وتقول لي منه يومًا سوف تشفين! والله إن ذهابه عني لهو الداء الذي ليس له دواء، إن حبه هو عين الشفاء والتحصين من كل شيطان رجيم.
قال: لم أرَ مثل ذلك حبًّا من قبل! لا أصدق ما تدعين.
قالت: هذا حق يراد به باطل. صدقت ولست من الكاذبين. ما أمر الله قلوبنا به لم يشهد له الخلق من قبل مثيلًا. كذلك قال الله عن الجنة، فهل رأيت من قبل أنهار اللبن أو الخمر أو ملائكة رب العالمين؟

قال: لا، ولكني آمنت بربي وما أنزل في كتبه، وأصدقه وأنا له من الطائعين.
قالت: كذلك أنا وحبيبي، أنزل الله على قلوبنا الحب، وأمرنا بما لم يأمر الخلق من قبل، فصدقنا وكنا له من الطائعين.

*

كان المشهد يشبه كثيرًا كازابلانكا، فضيا كان يجلس ينتظر روح في بهو الفندق، يرتدي بنطلونًا كحليًّا وبلوفرًا سكريًّا أنيقًا. كان ينظر في هاتفه المحمول عند وصول روح التي وقفت تنظر إليه عن بُعد لحظات قبل أن تقترب. اقتربت وقبل أن تصل رفع عينيه باتجاه الباب كأنه يتفقد ما إذا كانت وصلت أم لا، وكانت الإجابة بتلاقي أعينهم عن بُعد، واتصال النظر بالنظر، حتى أوصلتها خطواتها إليه، ونهض ومد يده للسلام وعيناه ما زالتا متصلتين بعينيها.
روح: اتأخرت عليك؟
ضيا: أبدًا. اتفضلي، ولَّا تحبي نقعد في الكافي شوب؟ متهيألي الجنينة برد دلوقتِ، ولَّا إيه؟
روح: لا، أبدًا، الجو جميل والشمس طالعة.
ضيا: خلاص، يلَّا على الجنينة.
ابتسمت روح ومضت بجانبه صامتة.
أجلسها وقال:
ـ مفيش هنا أوضة إزاز!
ابتسمت روح برقة، وقالت:
ـ كل مكان له جماله، هنا كمان فيه حاجة حلوة، فيه تراس كبير باشوف منه الجبال، المنظر بيبقى روعة! أنا شفت الشروق النهارده.
ضيا: خلاص يبقى نشوف منه الغروب كمان النهارده.
تفاجأت روح برد ضيا، فنور سيأتي ليشاهد معها غروب الشمس اليوم. القدر يدفع بنور وضيا معًا دائمًا!
ابتسمت في صمت ولم تُعلِّق، فيومًا ما وحتمًا سيجتمع الاثنان معها، إن لم يكن اليوم وقت الغروب فسيكون غدًا على أنغام «كارمينا بورانا».
ضيا: تحبي تشربي إيه يا روح، ولَّا أحسن نتغدى؟
روح: تسلم يا ضيا. أنا لسه كنت في زيارة واتغديت ومش قادرة آكل خالص.
ضيا: معقول! ده أنا كنت مستنيكِ! وحشني الأكل معاكِ!
ابتسمت روح لرقة ضيا، وقالت:
ـ أنا كمان وحشني الأكل والكلام معاك، بس فعلًا أنا من أول ما وصلت مراكش وشهيتي للأكل قليلة جدًّا.
ضيا: ليه كده؟ مش عاجبك الأكل هنا؟ على فكرة ممكن نروح أي مطعم، مش ضروري أبدًا ناكل في الفندق.
روح: لا، خالص. أكل الفندق حلو، بس أنا أوقات مش باقدر آكل.
ضيا: سلامتك.
روح: الله يسلمك. أنا كويسة مش تعبانة، بس يمكن علشان البلد هنا مختلفة شوية عن كازابلانكا، روحانيًّا يعني، مقامات مهمة، وكمان مقابلة سيدي، كل الحاجات دي بيبقالها تأثير عليَّ.

ضيا: وده معناه إيه؟
روح: أوقات بنشبع من حاجات تانية غير الأكل.
ضيا: وده ممكن؟
روح: إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني.
ضيا: الأنبياء عندهم خصائص أكبر من البشر العاديين، همَّ بشر طبعًا، لكن فيه حاجات بيقدروا عليها مش بالضرورة إن البشر العاديين يقدروا عليها.
روح: مظبوط. علشان كده أنا كنت باجوع في كازابلانكا وباشبع في مراكش وقونيا.
ضيا: بتحبي المغرب يا روح؟
استغربت روح من سؤال ضيا، وقالت:
ـ آه طبعًا، باحب كل أرض ربنا، فيه بلاد طبعًا لها غلاوة زيادة في قلبي عن بلاد تانية، لكن باحب كل البلاد.
ضيا: يعني لو في يوم من الأيام حاجة خلتك تعيشي في المغرب هتحبي تعيشي؟ هتبقي سعيدة يعني؟ ولَّا تفضلي تعيشي في مصر؟
روح: مصر دي روحي اللي مش بتفارقني، باخدها معايا في أي مكان، هيَّ واللي ساكنينها ساكنين جوايا!
ضيا: يعني مش هتبقي متضايقة؟
روح: الأماكن ما بتضايقش، سكان الأماكن همَّ اللي بيضايقوا أو يفرَّحوا.
ضيا: وسكان المغرب أخبارهم إيه يا ترى؟
روح: المغرب بسكانها فوق الراس مش بس في القلب!
ضيا: كمان مرَّة مش هاعرف أرد!
ابتسمت روح وقالت:
ـ ما تشغلش بالك، أو أقولك حاجة، أي حد يقولك حاجة قوله زيها. يعني أقولك الله يسعدك، قولي الله يسعدِك إنتِ كمان. كل حاجة كده.
ضيا: الكلام مش هوَّ المشكلة يا روح، فيه حاجات كتيرة الواحد بيبقى عايز يقولها ومش بيقدر. القدرة هيَّ المشكلة!
روح: قول يا رب، وسيبها على الله.
قضت روح مع ضيا ما يقرب من الساعتين في حديقة الفندق، وكان الكلام بينهما لا يتوقف، وكأنهما افترقا سنين وليس مجرد أيام معدودة. تحدث ضيا عن مريم، والليلة التي قضياها معًا، ودعاباتها، ومفاجأة عرض «كارمينا بورانا». وتحدثت روح أيضًا عن لقائها بشيخها، وزيارتها لمقامات الرجال السبعة. ولكن، لم تذكر نور! لم تقل عنه شيئًا! لا تعلم لماذا لم تتحدث عنه وهي التي تحب دائمًا أن تتحدث عنه! للمرَّة الأولى يغيب نور عن الأحداث، مع أن حضوره لا يزال طاغيًا عليها.

*

وصل نور إلى التراس قبل الغروب وقبل روح، لكنه لم يصل قبل ضيا. كان الاثنان موجودَين.
وصلت روح، ورأت المشهد يجمع بين نور وضيا للمرَّة الأولى، فتجمدت عند المدخل، وشعرت بقبضة في معدتها، فبلعت ريقها وتنفست ببطء وتقدَّمت نحو نور. بالتأكيد، لم يكن هناك مجال

للتفكير فيما إذا كان عليها أن تذهب إلى نور أولًا أم إلى ضيا.

كانت تعلم أن نور يحب الفستان الذي ارتدته بالتحديد، لم يخبرها صراحةً، لكنَّ عينيه كانتا تقولان كل الكلمات عند رؤيتها ترتديه. تعمدت ارتداءه له، ربما لترى هذه النظرات في عينيه، أو ربما لتسعده برؤيتها كما يُحب. كان الفستان يشبه الملابس الأندلسية إلى حدٍّ كبير. فستان قصير، له فتحتان من الجانبين، وله بنطلون ترتديه تحته، وألوانه مبهجة وجريئة.
مدت يدها للسلام على نور وعيناها تقولان له: «ارتديت لك الزِّي الذي تحبه، لتعلم أن ما تقوله عيناك أفهمه بلا كلام!». هو أيضًا كانت عيناه تلمعان عند رؤيتها وهي ترتدي هذا الفستان، لم يتكلم، لكن كان يعلم أنها تفهم ما يريد قوله.
قطعت روح حديث الأعين، وقالت:
ـ تعالَ يا نور، عايزة أعرفك على حد.
اندهش نور قليلًا، ومضى بجانبها صامتًا، حتى وصلا إلى ضيا الذي تفاجأ عندما وجد روح ليست وحدها!
روح: شُفت يا ضيا المفاجأة دي؟
ابتسم ضيا مستفهمًا ولم يُعلِّق.
روح: صحيح ما جاتش فرصة أكلمك عن نور في كازابلانكا، بس الظاهر ربنا أراد إن إنتو تتعرفوا على طول من غير ما أكلم حد منكم عن التاني! نور.. ضيا. ضيا.. نور.
روح: فاكر يا نور لما قلتلك على الشغل اللي سيدي بهاء طلب مني أصممه في مراكش؟ ضيا هو المهندس اللي نفذ الديكورات اللي عملتها، وساعدني كتير، ولولاه ما كنتش عرفت أعمل حاجة!
نور: أهلًا وسهلًا، تشرفنا يا باشمهندس.
ضيا: الشرف لينا يا بك.
روح: نور بقى يا ضيا أهم شخص في حياتي، نور كاتب وشاعر مهم في مصر، مصر إيه؟ في العالم كله!
ابتسم نور وقال:
ـ ما تصدقهاش يا باشمهندس، أنا باكتب على أدي.
ضيا: المغرب نورت بيكم يا بك، أهلًا وسهلًا.
نور: الله يعزك، أنا باقول نشيل الألقاب، والمقامات محفوظة طبعًا.
ابتسم ضيا وقال:
ـ بالتأكيد محفوظة.
روح: طب تحبوا نقرب شوية علشان الغروب خلاص على وشك؟
نور: طبعًا.
جلست روح تشاهد الغروب وبجانبها ضيا الذي لم يكن يعبأ بالشمس أو غروبها، كل ما يشغله هو هذا الشخص الذي ظهر على الساحة فجأة، والذي بالتأكيد سيشاركه في روح وفي أوقاتهما معًا.
لن يحظى مرَّة أخرى بمثل الوقت الذي كان يقضيه معها في كازابلانكا! لم يكن هناك مجال للشك أو التخمين أو الترقُّب لما سيحدث.

«لقد لخَّصت روح كل شيء في جملة واحدة حين قالت إنه «أهم شخص في حياتي»! أما أنا؟ فأنا المهندس الذي نفَّذ ديكوراتها، وساعدها في كازابلانكا! إنها حتى لم تضف إلى كلماتها أننا أصدقاء! هذا الرجل هو بالتأكيد صاحب التذكرة الرابعة التي طلبتها مني لـ«كارمينا بورانا!»».
في الوقت نفسه الذي شعر فيه ضيا بأن فرصته مع روح تتضاءل، شعر نور بتهديد. لقد أحس بحدسه أن ضيا يُكن مشاعر إعجاب لروح، كما أحس أيضًا أن روح أصابها بعض الارتباك في وجود ضيا ونور في مكان واحد. لم يكن صعبًا على نور بالمرَّة أن يرى مشاعر روح الحائرة تجاه ضيا على الرغم من ثباتها المصطنع، فهو يراها من حيث لا يراها غيره، يراها من الداخل وليس من الخارج.
كان نور يعلم بينه وبين نفسه أن هذا اليوم آتٍ لا محالة، وعلى الرغم من عشقه لروح وتمنيه أن تجد الشخص الذي يسعدها ويحتوي كل هذا الحب الذي بداخلها، فإن طبيعته البشرية كانت تخشى مجيء هذا اليوم بالفعل. كان يتمناه، وقلبه يقول: «اللهم لا تستجب!».
أما روح، فلم تكن تفكر، أرغمت نفسها على البقاء خارج المشهد، واعتبرت أنها اجتازت أول اختبار بنجاح، وجرى تعارف نور وضيا بسلام. عزلت نفسها تمامًا من دون أن تعي ذلك، ومنعت وصول أي ذبذبات من نور إليها، وكأنها تهرب ولا تريد أي تواصل روحي الآن! نظرت إلى الشمس، واتحدت معها، ولم تسمع شيئًا من الحوار الدائر بين الرجلين إلا عندما بدأ نور الشمس يختفي بالتدريج، وناداها نور مرتين لتنتبه.
روح: أيوه يا نور.
نور: كنتِ مش هنا خالص!
روح: آه فعلًا.
نور: طب مش يلَّا علشان ما نتأخرش على سيدي ولَّا إيه؟
روح: آه مظبوط. يلَّا.
نور: محتاجة تطلعي أوضتك قبل ما نمشي ولَّا حاجة؟
روح: لا يا نور، أنا جاهزة، يلَّا بينا.
التفت نور إلى ضيا مصافحًا إياه:
ـ مبسوط إني اتعرفت عليك يا ضيا.
ضيا: أنا كمان اتبسطت بلقائي بيك النهارده.
روح: كنت أحب أقولك اتفضل معانا، بس أنا عارفة إنك ممكن ما تحبش الإنشاد.
ضيا: لا، اتبسطي إنتِ النهارده، وبكرة نحضر سوا «كارمينا بورانا».
نور: «كارمينا بورانا»؟!
روح: شُفت يا نور ربنا بيحبني إزاي؟ ضيا سمعهالي في كازابلانكا، كانت أول مرَّة أسمعها في حياتي، واتجننت عليها! وتخيل يحصل إيه! أوركسترا النمسا تيجي وأنا في مراكش علشان تعزفها وأنا ما كنتش عارفة، ضيا الله يسعده لما عرف قطع التذاكر وجه النهارده مخصوص علشان نحضرها. شُفت بقى؟
ابتسم نور وقال:
ـ شفت يا روح. بيحبك طبعًا. أكيد بيحبك!

روح: وإنت كمان بيحبك. أنا قلت لضيا يجيبلك تذكرة علشان نروح إحنا الأربعة، أنا وإنت وضيا وضيف، بكرة إن شاء الله.
ابتسم نور لروح، ثم وجه حديثه إلى ضيا قائلًا:
ـ أشكرك على اللفتة الجميلة دي، وتعبك إنك تجيب التذاكر وتيجي من كازابلانكا لمراكش علشان تفرَّح روح!
ضيا: مفيش أي تعب على الإطلاق! عرض زي ده ما كانش ممكن أفوته بعد ما شُفت روح حبت المقطوعة أد إيه، ودلوقتِ كمان أنا متأكد إن العرض بكرة هيبقاله مذاق مختلف معاكم!
نور: أشكرك جدًّا، مش دايمًا الواحد بتجيله فرصة مهمة زي دي. نتقابل بكرة إن شاء الله.
روح: أشوفك على خير يا ضيا.
ابتسم ضيا وهو يصافحها، وقال:
ـ ليلة سعيدة عليكم.

*

لم يدر بينهما حديث طويل في السيارة. كانت تعليقات نور قليلة ومقتضبة، وتخبئ بين طياتها استفسارات حول ضيا. وقد انتقى كلماته بحرص، وانتقت هي أيضًا أجوبتها بمنتهى الدقة، وحرصت جدًّا على ألَّا يفهم نور مشاعرها على غير حقيقتها. وفي الواقع لم يكن نور يحتاج إلى فهم أي شيء، فقد رأى بعينيه كل شيء. والاستفسارات ما كانت إلا محاولة ليتعرف على هذا الشخص الذي لم تكن لديه أي تحفظات عليه «باطنيًّا»، ولكن أراد أن يعرف عنه بعض المعلومات لتكتمل الصورة.. مجرد معلومات.
وصلا إلى منزل الشيخ مبكرًا، ولم يكن أيٌّ من المريدين أو الزائرين قد وصلوا. فقط هما الاثنان. أذن الشيخ لروح بالجلوس بالقرب منه، ونظر إلى نور وطلب منه أن يذهب ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام. فهم نور أن الشيخ يريد أن يصرفه، فانصرف في أدب وتركه مع روح. وفهمت روح أيضًا أن الشيخ صرف نور متعمدًا،

وظنت أنه يريد أن يحدثها حديثًا خاصًّا.
ظلت روح صامتة للحظات، تنتظر أن يبدأ الشيخ كلامه، لكنه لم يتكلم. شيء ما بداخلها ذكَّرها بالرؤيا التي رأت نفسها فيها تمشي على البحر، والمحارة التي بداخلها ختم سيد شباب الجنة الحسين والسيدة زينب. في اللحظة نفسها تكلم الشيخ، وكأنه أرسل إليها رسالة عبر الملكوت يُذكِّرها بالرؤيا لترويها إليه. سألها الشيخ قائلًا:
ـ زُرتِ الرجال السبعة يا روح؟
أجابت بلهفة:
ـ نعم يا سيدي. الحمد لله، زرتهم ورجعت الفندق شُفت حاجة حلوة أوي يوميها، مدد والله مدد يا سيدي!
أومأ الشيخ برأسه علامة على الإذن لها بالسرد. حكت روح الرؤيا وهي سعيدة، فحتى مجرد تذكر الرؤيا وسردها يضعها في الحال نفسها التي كانت عليها وهي تراها. أدركت أن الشيخ صرف نور لتخبره عن رؤياها، وربما ليخبرها بالتأويل. كان الشيخ ينصت وينظر بعيدًا بتركيز، وكأنه

يشاهد مشهدًا من فيلم أو يرى بعينيه الرؤيا. لم يؤول الشيخ الرؤيا ولم يتحدث، بل نظر إليها فقط وقال:
ـ الوهم هَمٌّ! بصي كده على الحروف بتاعت الكلمتين وقوليلي شايفة إيه؟
روح: شايفة دواير. دواير مقفولة!
الشيخ: لا، دواير فاضية، مفيش حاجة في الحروف.. فاضية.. هوا.. اللي يعلَّق نفسه بالوهم يبقى معلَّق نفسه بالهوا.. الوهم هَمٌّ!
انقبض قلب روح من تعليق الشيخ على الرؤيا، فهي غاية في الجمال، وما شعرت به أثناءها إحساس يفوق الوصف. تخيلت روح أن الشيخ سيؤكد ما فهمته منها، لكنه اكتفى بهذا التعليق القصير الذي سرق فرحتها، ولم تستطع أن تسأله عن التأويل، فهي تعلم أن الشيوخ المربين يحتفظون بتأويل الرؤى لأنفسهم ولا يفصحون عنه للمريد في كثير من الأحيان، أحيانًا من أجل تربية المريد على آداب معينة، وأحيانًا من أجل ألَّا تقع الرؤيا في حال كانت غير سارة، وأحيانًا ثالثة كي لا يستعجل المريد البشارة المرسلة إليه، أو ربما كي لا يزهو بحاله، أو يصيبه عجب إذا ما كانت الرؤية تخبر بمقام المريد. وهي مريدة، أدَّبها نورها بالحب فأحسن تأديبها.
هزت روح رأسها في أدب علامة على الفهم والطاعة، لكنها لم تستطع أن تتحكم في قلبها الذي حزن من كلام الشيخ، وظنت أنه ينبهها إلى أن تعلُّقها بنور وَهمٌ لا أساس له، فاندفعت الدموع من عينيها بلا سيطرة، وجرى الفيضان ليس من عينيها فحسب، بل من قلبها أيضًا!
تذكرت أنها لم تصلِّ المغرب، فاستأذنت من شيخها أن تذهب إلى مصلى السيدات وتعود بعد صلاة العشاء لحضور الإنشاد.

15

لم تستأذن روح لتصلي المغرب فحسب، لكن أيضًا لتهرب وتطلق دموعها الحبيسة لمن يفهم لغة دموعها ولا تحتاج معه إلى كلمات، فالكلمات لم تعد تصف حيرتها وعذابها. صلاتها لله لم تكن مجرد أداء حركات وتلاوة قرآن، بل كانت وصلًا بالرحمة التي تصبو إليها في هذا العالم المادي الذي أرهقها الوجود فيه، وكلما أوت إلى كهفها أخرجها منه القدر الذي لا فرار منه! حتى أحلامها ورؤاها التي كانت تطمئنها وتجد فيها سعادتها، أصبحت أيضًا مصدرًا جديدًا لحيرتها! تمنت أن تسأل نور سؤالًا مباشرًا عن حقيقة مشاعره، وأن تعرف مدى حقيقة كل هذه الرؤى، وتسمع الإجابة بكلمات واضحة، حتى لو كانت الإجابة «لا». تمنت أن تسمع بكلام البشر ما تعيشه روحها، حتى وهي تدرك أن بحر البشرية والروح بينهما برزخ الحياة الدنيا، ومهما فعلت فلن يلتقيا.

أدرك نور حيرتها، وناداها برحمة من الرحمن.

قال: أتدرين أن هجركِ رزق؟

قالت: إذن، فاقترابنا منع؟!

قال: بل جنة الله على الأرض!

قالت: وكيف يكون الهجر رزقًا، والاقتراب قمة المنح؟

قال: خِفنا الله في الاقتراب، فأطلعني أنه منحنا جنتين، ذواتي أفنان، فيهما عينان تجريان، فيهما من كل فاكهة زوجان، فيهما قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان. ذلك وعد الرحمن لكل من خاف مقام ربه، هكذا قال في القرآن.

قالت: أحقًّا سنكون معًا؟ والله إنها بالفعل جنة الرحمن. لكن اعلم حبيبي أنك لن تحظى بقاصرات الطرف، فلن يكون في جنتك سواي إناث.

قال: ولكن هكذا وصف ربي الجنان!

قالت: طلبتك من ربي، وقايضتك بكل ما يمنح ربنا من مِنح وجمال. قلت له تركته في الدنيا، وحتى النظرة ما نظرت، أفلا أُعوَّض عن حقي الذي من أجلك وحدك يا ربي تركت؟ فاستجاب لي، وجعلني وحدي كل قاصرات الطرف لك.

قال: أتغارين يا صغيرتي؟! لم تغاري في الدنيا، فكيف تغارين عندما نتوحد وتنتهي غربتنا عن بعض؟!

قالت: ليست غيرة حبيبي، لكني أسترد حقي الذي فيه فرطت! أنت حقي الذي وعدني به الحق. أريد استردادك كاملًا في الجنان!

قال: كم أقمت الليالي أناجي ربي، وأتوسل إليه بالدمع، أن أنظر إلى عينيكِ نظرة، وبهذه النظرة عن كل شيء تخليت، وبكِ وحدكِ اكتفيت. أشهدته كم بتلك النظرة عذبت، ولطالما تمنيت أن أظفر بها وما ظفرت. دعوته أن يبدلني قاصرات الطرف بقاصرة طرف واحدة التي مني تفر، فمنحني إياكِ كلكِ وليست النظرة فحسب!

قالت: والله ما حرمتكَ منها إلا خشية لله، وطمعًا في أن يمنحكَ ما لم يمنح غيركَ من قبل!

قال: عيناكِ لي بحران ما زلتُ أبحر فيهما، ولن أبرح حتى أبلغ فيهما مجمع البحرين.

قالت: اصبر، ولا تسأل، فهكذا نُصح موسى من الخضر.
قال: أخبرتكِ يومًا أني أحب الله فيكِ، ومن الشرح فررت. الآن أقولها بقوة العاشق الذي لا يفر، تجلى الله على قلبي عندما ذُقت بك العشق. وصلُك لي هو بالله وصل.
وصل زوار الشيخ ومريدوه إلى مضيفة الشيخ الجيلاني الصغير، وجلس آدم وحواؤه والجميع في أدب، انتظارًا لإذن الشيخ ببدء الإنشاد. صمت الجميع، وبدأ الشيخ بقراءة الفاتحة والصلاة على سيد المرسلين:
ـ اللهم صلِّ على النبي المختار، الذي خصصته وأعطيته من الجمال والجلال. اللهم صلِّ على من جعلت خُلقه القرآن، وجعلت وصفه السراج الوهاج. اللهم أنر قلوبنا بنور محبتك، كما أنرت قلبه بنورك، وزينًا بخُلقه العظيم حتى ترضى عنا، كما رضيت عنه. اللهم ازرع في قلوبنا الرحمة، كما قلت وقولك الحق إنك أرسلته رحمة للعالمين ونحن من العالمين. اللهم صلِّ عليه صلاةً ترضيه وترضيك، وتكون لنا معراجًا لقربك، وصلة لوصلك، ومددًا من مددك يا رحمن يا رحيم يا الله.
أمَّن الحضور، ثم أعلن المنشد القصيدة المختارة لسلطان العاشقين، ابن الفارض، وبدأ المنشدون والعازفون:
أَدِرْ ذِكْرَ مَن أهوَى ولو بِمَلامِ
فَإنَّ أحاديثَ الحَبيبِ مُدامي
لِيَشهَدَ سَمعي مَن أُحبُّ وإنْ نأى
بِطَيفِ مَلامٍ لا بِطَيفِ مَنامِ
فَلِي ذِكرُها يَحلو على كُلِّ صِيغةٍ
وإنْ مَزَجوهُ عُذَّلي بخِصامِ
كَأنَّ عَذُولي بِالوِصالِ مُبَشِّري
وإنْ كُنتُ لَم أَطمَعْ بِرَدِّ سَلامِ
بِرُوحي مَن أَتلَفتُ رُوحي بِحُبِّها
فَحانَ حِمامي قبلَ يومِ حِمامي
ومِن أَجْلِها طابَ افتِضاحي ولَذَّ لي اطِّرا
حِي وذُلِّي بعدَ عِزِّ مَقامي
وفيها حَلا لِي بَعد نُسْكي تَهتُّكي
وخَلْعُ عِذاري وارتِكابُ آثامي
أُصَلِّي فأَشْدُو حين أَتْلو بذِكْرها
وأَطرَبُ في المِحرابِ وَهْيَ إمامي
وبالحَجِّ إنْ أَحرَمتُ لَبَّيْتُ باسمِها
وعنها أرى الإمساكَ فِطْرَ صِيامي
أَروحُ بقَلبٍ بِالصَّبابةِ هائِمٍ
وأَغدُو بطَرْفٍ بِالكآبةِ هامِ
لم يكن الإنشاد في مراكش كما تعودته روح في مصر، بل كان أقرب إلى مجلس علم ذوقي، يتحدث فيه الشيخ عن الأمور الروحية، ورمزية الأشياء أكثر من معانيها الظاهرية، فكان المنشد

ينشد قصيدة واحدة، وبعد الانتهاء منها يبدأ الشيخ في شرحها للحاضرين، والغوص في المعاني الباطنية لكل بيت، وتفسيرها بمرجعية صوفية. لم يسبق لروح حضور مجلس من هذا النوع، فشعرت بالكلمات في قلبها، وشعر نور أيضًا بكلمات القصيدة وبوقعها على روح. كانت الأعين تتلاقى من حين إلى آخر على الرغم من ازدحام المكان ووجود شيخهما، لكن هذا لم يكن عن عمد أو سوء أدب مع الشيخ، فالقدر كان يدفع الأعين للقاء حتى إن لم تكن النظرة أكثر من ثوانٍ معدودة، ولكن في العشق يوجد زمن غير كل الأزمنة، لا يكتفي فيه العاشق من معشوقه مهما طال الوصال، أو كما قال سلطان العاشقين:

وفي وَصْلِها عامٌ لدَيَّ كَلَحظةٍ وساعـةُ هِجرانٍ عَلَيَّ كَعـامِ

استأذنت روح من شيخها للانصراف بعد انتهاء الإنشاد، وخرجت وهي لا تزال تتألم من نصيحته التي كان قلبها يكذبها بكل ما أوتي من يقين. جلست بجوار نور في السيارة صامتة، وشعر نور باختناقها، لكنه احترم صمتها. فكر أن يشغل الموسيقى في السيارة ليخفف من وطأة الصمت، واختار الأغنية التي تتكلم بلسان حاله، وكانت مقطوعته المفضلة «ما حيلتي والعجز غاية قوتي» بصوت ياسين التهامي:

وما حِيلَتي والعَجزُ غَايةُ قُوَّتي
وأَمري جَميعًا تَحتَ حُكمِ المَشيئةِ
فَخلِّصْني مِن أَسرِ الطَّبيعةِ
واهدِني بِنُورِكَ يا اللهُ وأوصِل قَطيعَتي
أَنْعِم بِتَطهيرِ الفُؤادِ مِنَ الهَوَى
وَجُد لي بِتَوفِيقٍ وَمُنَّ بِتَوبَتي
فإن كَانَ جِسْمي عَن جَنابِكَ قاطِعي
فَرُوحي يا نُورٌ مِن جَمالِكَ مُدَّتِ

فَفي القُربِ رُوح الرُّوحِ حَقًّا
وفي اللِّقاءِ حَياةٌ لِنَفْسٍ في الغَرامِ اطمَأنَتِ
في البُعدِ لَوعةٌ وفي القُربِ رَحمةٌ
وفي الوَصْلِ راحةٌ إذا الحُبُّ مُنيَتي

لم يكن اختيار نور لهذه القصيدة مناسبًا بالمرَّة في هذا التوقيت، فقد وصلت روح إلى مرحلة لم تعد تستطيع فيها استيعاب الواقع أو تفهُّمه، بل كانت تحتاج بأي شكل إلى من يحتويها ويطمئنها ويربت عليها بحنان. نظرت إليه للمرَّة الأولى نظرة عتاب وليست نظرة عشق، ولم تتكلم أو تتفوه بشيء، فالكلمات لا مكان لها الليلة!

أمام الفندق فتحت روح باب السيارة، ومضت سريعًا قائلة بصوت مخنوق:

ـ تصبح على خير.

لم تنتظر لتسمع رد نور، وتركته وحيدًا وهو ينظر إليها بحسرة، قائلًا:

ـ وإنتِ من أهل الخير يا حبيبتي!

كان العجز بالفعل غاية قوته، ودموعه هي الشيء الوحيد الذي لا يعجز عنه. لا يستطيع أن يقول لها أُحبُّكِ. لا يستطيع أن يقول لها انتظري أو اصبري. لا يستطيع أن يقول لحياة لم أعد أحتمل

الاستمرار. لا يستطيع أن يسأل الله لماذا أو متى! بدا عاجزًا عن كل شيء إلا البكاء. بكى في هذه الليلة من العجز وليس من العشق!

*

في غرفتها، كانت روح تبكي بغزارة، ليس من العجز بل من الحيرة! لم تُطلق عنان الكلام عن عشقها مع بشر سوى مرَّة واحدة، عندما حدثت رشا. لو كانت تستطيع أن تحدثها مرَّة واحدة! لكن لماذا رشا وبراء موجود؟! لم تتردد، أمسكت بهاتفها المحمول واتصلت ببراء.

روح: ألو.

براء: ست الكل!

روح: إزيك يا براء؟

براء: مالك يا روح؟!

روح: تعبانة! تعبانة أوي!

براء: خير؟! إيه اللي حصل؟! تعبانة من إيه؟!

روح: براء، هوَّ أنا ممكن أكون اتجننت وأنا مش حاسة؟

براء: إيه اللي بتقوليه ده يا روح؟!

روح: جاوبني! أنا اتجننت؟

براء: إنتِ ست العاقلين.

روح: طب أنا ممكن يكون بيتهيألي حاجات وباصدقها؟

براء: بيتهيألك إيه؟ قوليلي!

روح: فاكر الحكاية اللي كلمتك عنها لما كنت عندي في قونيا؟

براء: طبعًا فاكر.

روح: ممكن أكون بيتهيألي، وما يكونش بيحبني، وكل اللي قلتهولك ده وهم؟!

براء: حصل إيه يا روح؟! هوَّ قالك حاجة؟!

روح: يا ريته يقول! ما هوَّ اللي أنا فيه ده علشان ما بيقولش حاجة خالص!

براء: عايزاه يقول إيه يا روح؟!

روح: عايزاه يقول إنه بيحبني!

براء: وبعدين؟

روح: وبعدين إيه؟!

براء: لما يقول إنه بيحبك، وإنتِ تردي عليه تقوليله إن إنتِ كمان بتحبيه، إيه اللي يحصل؟

روح: مش عارفة!

براء: زي ما أنا فاهم إن إنتو ما ينفعش تتجوزوا دلوقتِ، صح؟

روح: صح.

براء: طب لما تتصارحوا والظروف لسه مش سامحة إن إنتو تبقوا مع بعض، إنتِ متخيلة الوضع ممكن يبقى عامل إزاي؟ عذاب أضعاف اللي إنتِ بتتعذبيه دلوقتِ! عايزاه يحس إنه عاجز، وإنتِ تحسي إنك هاينة عليه؟!

روح: طب ما أنا هاينة عليه!

براء: أبدًا، بالعكس، دا إنتِ غالية عنده، علشان كده مش راضي يقرب إلا لما يقدر يحطك في المكان اللي يليق بيكِ. «وإن اكتفى غيري بطيف خياله، فأنا الذي بوصاله لا أكتفي».
روح: وإنت عرفت منين؟
براء: أي راجل بيحب حقيقي مش ممكن يقول كلمة إلا لما يقدر يتحمل مسؤوليتها! أنا لما حبيت عالية ما رضيتش أتقدملها لأني كنت عارف إن أهلها هيرفضوني. واللي تحبيه يا روح أكيد أنا مش أحسن منه! أنا عارفك!
روح: تفتكر؟
براء: ما تخليش الشيطان يلعب بيكِ! وحدي الله واقعدي صلي على الحبيب، وإن شاء الله ربنا هيفرجها!
روح: يعني أنا أعمل إيه دلوقتِ؟
براء: العمل عمل ربنا. أنا برضو اللي هاقولك تعملي إيه يا ستنا؟ ادعي، واطلبي منه يدلِّك ويبعتلك علامة، وهو هيدلِّك بإذنه تعالى.
روح: أنا باحبك أوي!
براء: إنتِ حبيبتي! هاكلمك بكرة أتطمن عليكِ.
روح: تسلملي. سلم على عالية.
براء: يوصل. تصبحي على خير.
هدَّأ كلام براء روح نوعًا ما، لكن لا تزال كلمات الشيخ ترن في أذنيها وتحيرها.
أخذت دشًّا ساخنًا، ثم ارتدت رداء الملائكة الأبيض الذي ترتديه للنوم، وقللت الإضاءة في الغرفة، وجلست جلسة تأمل كي تهدأ وتنام في سلام.
بدأت تصلي على الحبيب كما نصحها براء، وكانت هذه هي الصيغة التي وجدت نفسها تبتهل بها:
اللهم صلِّ صلاة جلال وسلِّم سلام جمال على حضرة حبيبك سيدنا محمد
وأغشه اللهم بنورك كما غشيته سحابة التجلِّيات فنظر إلى وجهك الكريم
وبحقيقة الحقائق كلم مولاه العظيم الذي أعاذه من كل سوء
اللهم فرج كربي كما وعدت «أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ »
وعلى آله وصحبه أجمعين
اللهم آمين
كررتها كثيرًا، واستغرقت فيها حتى غابت، فرأت هذا الشُّعاع الذي يبدأ صغيرًا وضبابيًّا، ثم ينقشع الضباب تدريجيًّا، وترى ما ترى. رأت مقام الرومي، رأت الضريح والعمامة الخضراء الكبيرة والغطاء المشغول بخيوط الذهب. لم تكن تجلس كما تجلس في زيارتها له عادةً خارج الضريح، بل كانت في الداخل على يمين الضريح والرومي يجلس عند الرأس. تفترش فستانها الأحمر القاني، وعلى رأسها شالها الأخضر، وترسم مخطوطة بلون الفستان نفسه، وكانت تتغنى بالعبارة، وتهز رأسها في انسجام، وتسمع الرومي يلقنها قائلًا: «العشق كالوضوء، إن تشككت فيه نُقض». رفعت رأسها، وابتسمت للرومي وقالت: «العشق كالوضوء، إن حضر الماء بطُل فيه التيمم». أخذ الرومي المخطوطة منها، وكتب بيده: «إن حضر». تلاشت الابتسامة من على وجهها وهي تنظر إلى ما خطه الرومي بيده، ثم نظرت إليه في حيرة، فكررها عليها بصوت مسموع: «إن حضر».

مع صدى صوت الرومي، وتأكيده على الدرس والرسالة، رجعت الرؤيا ضبابية شيئًا فشيئًا، واختفى النور، وعادت روح من رحلتها برسالة صريحة: «العشق كالوضوء، إن تشككت فيه نُقض، وإن حضر الماء بطُل فيه

التيمم».
«إن حضر!».
«إن حضر!».
وافق كلام الرومي نصيحة شيخها! وعلى الرغم من أن الرسالة كانت واضحة، فإنها لم تحسم الأمر في قلبها، بل زادته تعقيدًا.

*

جلس آدم في غرفته يخيم عليه الشعور بالظلم، فللمرَّة الأولى يرى حواءه تلومه، حتى لو كان اللوم بنظرة!
أخرج دفتره ليكتب، فهو لا يستطيع أن يحدث براء كما فعلت روح، ولا يستطيع أن يحدث أي إنسان. الورق أمين سره، وصديقه الوحيد الشاهد عليه. حتى اسمها، لا يملك أن يُفصح عنه صراحةً بين الكلمات، فهو يعلم أن يومًا سيأتي فتُحكى قصتهما ويسمع المحبون عن عشق عاش بلا أسماء، عشق النور للروح.
كتب خطابه الأول لحوائه:
أما بعد،
اعلمي أن كل شيء يولد صغيرًا، فيكبر، ثم يموت ويفنى، ثم يُبعث بعد الفناء بأمر خالقه، إلا عشقكِ، وُلِد كبيرًا وينمو، ولا يموت ولا يُبعث، لأنه تجلِّي الحي، وباقٍ ببقائه، ولا يفنى ما دام الحي.
يا مالكة الروح والقلب، نشتكي قلبكم لكم، وأنتم أهل العدل، وما شهدناكم إلا رحماء.
وقع علينا منكم الظن، والله قال إن بعض الظن إثم، فقد أثمتم بحكم الحق، وفي شريعة الأحباب.
الظن في شرع المحبين خطيئة، وما كنا أبدًا ننتهك في هواكم الحرمات.
الرحمة في شرع الأحبة وصال، فصلونا ولا تزيدونا هجرانًا.
اكتفينا بكم عما سواكم، فلا تحرمونا، واقبلونا في حماكم.
نزلنا بساحة قلبكم، فارحموا عجزنا، فما قصرنا في عشقكم، وما رضينا بديلًا عن هواكم.
نحبكم، ونطلب عفوكم، فاعفوا واصفحوا، فما صبرنا على شيء كصبرنا في هواكم.
أمر الله لا يعصيه بشر ولا ملك، وأنتم خير بشر، فارحمونا كما يرحم الإله.
الكرامُ إن ظلموا قبلنا، وإن عفوا قلنا تلك والله شيم الكرام.
وفي العفو والظلم نحبكم. أسرى الهوى ليس لهم أصوات.
يشكون إلى ربهم في جلدٍ، وأنين قلوبهم يُسمع بلا كلام.
تلك مظلمتي أرفعها إلى قلبكم، لتعفوا عنا فما علمناكم إلا رحماء.

*

اشترت روح من سوق مراكش فستانًا أسود، وارتدته للمرَّة الأولى. لم تعتد على ارتداء الأسود، فهو بالنسبة لها لون حداد لا تحبه، ولا تهوى ارتداءه. لكنها شعرت في هذه الليلة بأنها تريد أن

ترتديه. لم يكن لون حداد، بل لون العزة والعزم. كانت تشعر أنها على أعتاب قرار أتى الأمر من العزيز باتخاذه الآن، وهي دائمًا لا تملك رفاهية التجاهل، ولا تستطيع التظاهر بعدم الفهم، وتلتفت عن أخذ القرار. «ملتفت لا يصل». تلك كانت الكلمات التي استيقظت في هذا اليوم، لتجدها على هاتفها المحمول، رسالة من الشيخ بهاء لها:
ملتفت لا يصل. إلا ملتفت إلى حبه عن حب ما سواه. ملتفت إلى تجلياته في الأشياء عن الأشياء. ملتفت إلى حبه في البشر عن البشر. ملتفت إليه في قلبه عن قلبه. هذا الملتفت لم يصل فقط، وإنما هو موصول وصلًا لا ينقطع بإذن الله.
كحلت عينيها بالكحل الأسود، وأضافت لمسات من الماسكرا السوداء إلى رموشها، فبدت عيناها الحزينتان قويتين وجريئتين وثابتتين. شعرت بأنها تريد أن تستمد الجرأة والقوة والقدرة من كل شيء، حتى لو كان لون كحل عينيها، أو لون أحمر الشفاه الأحمر الصريح الذي وضعته آملة أن يمدها بقوته فتستطيع شفتاها أن تقولا ما حبستاه سنوات.
بالفستان الأسود، وأحمر الشفاه الأحمر، توجهت القديسة المحرمة إلى المسرح الملكي مع الرجال الثلاثة الذين ارتدوا أيضًا الأسود: ثلاث بدلات سوداء أنيقة، وثلاثة قمصان بيضاء ناصعة، وربطتي عنق لاثنين منهما، أما ضيا فلا يحب ارتداء ربطات العنق ولا يستعملها.
لم يستطع نور أن يوجِّه إلى روح السؤال الذي قفز إلى رأسه فور أن رآها ترتدي الأسود للمرَّة الأولى. أما قابيل، فتعمد أن يتجاهلها انتقامًا لكبريائه، وألَّا يُلقي أي اهتمام أو يُعلِّق على مظهرها المختلف في هذه الليلة. على عكس ضيا الذي لم يفكر فيما يُقال أو لا يُقال، وكان على فطرته دائمًا معها، وعلَّق على أناقتها بكلمات قليلة وبسيطة تمامًا، كما الأطفال:
ـ شكلك حلو أوي يا روح!
ابتسمت روح برقة، وقالت:
ـ تسلملي! إنت كمان شكلك حلو أوي!
قاد نور سيارة حياة، والجميع من حوله شبه صامتين. كلٌّ منهم لا يمكنه أن يتظاهر بأن كل شيء على ما يرام. لم يستطيعوا تبادل الأحاديث كأشخاص طبيعيين ذاهبين لقضاء سهرة معًا. في السيارة كانت الدقيقة تمر كالساعات، والمسرح يبتعد ولا يقترب. القلوب الأربعة تنبض بقوة، وكأن آلات القرع بموسيقى «أورف» بدأت بالفعل قبل أن تبدأ «كارمينا بورانا» على المسرح.
جلسوا في منتصف المسرح في مواجهة العازفين والمغنين. جلس نور أولًا، وروح بجانبه، وبجانبها ضيا، وجلس ضيف في الكرسي الأخير.
أُطفِئت الإضاءة وبدأ العرض!
استهلت «كارمينا بورانا» الليلة بصيحة «الفورتونا» الساحرة، في تنبيه واضح وقوي تأخذ الحاضرين إلى مكان آخر حتى إن كانوا لا يزالون فوق الكراسي التي يجلسون عليها. انتابت روح قشعريرة في بدنها، عرفت منها أن تأثير هذه المقطوعة عليها ليس بالشيء الهين، فسحبت طرحتها الدانتيل البيضاء ووضعتها على رأسها. سحر الموسيقى يضرب الحاضرين بقوة، وجمال الأداء والنص الثري يصوران الحياة بمختلف تضاداتها، يصوران القدر كعجلة دائرة متحكمة في مصير الإنسان، وسيدة الحظ جالسة في وسط العجلة، وفي محيطها الأمير الذي يتقلب مصيره بين الفقر الشديد والغنى:
أيها القَدَر

مِثل القَمَر
أنتَ مُتغيّر
دَومًا في تَناقُصٍ وتَزايُدٍ
حياةٌ بَغيضةٌ
تَقهَرُ أولًا ثم تُخفِّفُ الألَم
كما تَهوَى
الفَقرُ والقُوةُ تُذيبُهما مِثل الثَّلج
الجمع بين الأسلوب الوحشي لموسيقى القرع، والمقطوعات الكلاسيكية، كان بالضبط كالجمع بين جمال وقوة ورقة العشق بين نور وروح، وبين شدة الإيمان والتسليم لله. عنفوان الحب، وعنفوان الإيمان. هدير الكورس يبدأ ويتدرج إلى أن يصل إلى ترتيلة صامتة تقريبًا حول مآسي القدر، ثم لا يلبث أن يتعالى صوته بالتدريج لينتهي بهدير يصم الآذان.
هذا الجزء من النص الذي تتغنى فيه الفتيات عن أحبائهن الذين ابتعدوا، والرجال يحاولون التغلب على الهموم باقتناص المسرَّات، كان يمس نور، كما لو أنه يسمعه بالعربية وليس باللاتينية. النص يصف صعوبة الحفاظ على وقار القلب وطهارته، بينما الملذات سهلة المنال وأحب إلى القلوب. كم هو صعب أن تحيط النيران بالإنسان ولا يحترق!
صدقت روح عندما قالت إن هذا العمل له سر خاص. لم تكن مجرد كلمات. ولم تكن الموسيقى وعزف الألحان بكلاسيكية ووحشية بهذا الانسجام، شيئًا عاديًّا، وتأثيرها عليها أبعد مما تؤثر أي مقطوعة موسيقية على المستمعين العاديين مهما كانت حساسية تذوقهم للفن وللجمال. نظرت روح إلى نور نظرة تشبه موسيقى «أورف»: نظرة تجمع بين قوة القرع ونعومة العزف وعنفوان الأداء. نظرت إليه واستدعته للمكان نفسه الذي

دفعتها المقطوعة إليه، فأدركت أنه أيضًا هناك، فكانت النظرة استكمالًا لنظرة العتاب السريعة التي ألقتها عليه بالأمس، وتوقف الزمن. نظر نور إليها وفي عينيه لمعة حزن ودمعات حبيسة وإحساس قاتل بالعجز. أدرك ما تقبل عليه روح، وعلم أنه وقت اتخاذ القرار الذي لم يستطع أن يتخذه هو! فهم آدم أن مصيره الهبوط من الجنة، والابتعاد عن حوائه الآن! الآن حان وقت الفراق!
هو: سامحيني أن أحببتكِ بقوة.
هي: أشكرك أن أحببتني بهذا الجمال.
هو: سامحيني أن اقتربت.
هي: أشكرك أن اقتربت ومنحتني شرف الحب.
هو: سامحيني أن تسببت في ألمكِ وأنا ليس لي يد.
هي: أشكرك أن حررت روحي بخروجها مني وسكونها إليك.
هو: سامحيني أن ودعتكِ قبل اللقاء.
هي: أشكرك أن طهرتني بدموع الفراق.
هو: سامحيني أن رأيتكِ وأنا يجب أن أغض البصر ولا أنظر إليكِ.
هي: أشكرك أن رأيتني فلم أرَ نفسي إلا بعينيك.
هو: سامحيني أن لم يكن في الإمكان أكثر مما كان.

هي: أشكرك أن تحملت الصمت.
هو: سامحيني كي أسامح نفسي.
هي: بل سامحني أنت أن لم أستطع أن أوصل لك أمانة الرب.
هو: أشكركِ أن تحملتِ عبء حملها ولم توصليها إليَّ.
هي: تلك الكلمات السجينة في قلبي هي ملكك أنت. بعثها الله إليك، ولكنني لم أقوَ على قولها لك. سأردها لربي وأسأله الغفران لأنه كلفني برسالة لم أوصلها لصاحبها بعد. أنا أضعف الرسل المكلفين في الأرض.. عدة النساء ثلاثة وعدتي منك ما تبقى من العمر.
هو: يحق للرجال الجمع بأربع وأنا جمعت بكِ كل نساء الأرض.
هي: أحببتك حبًّا ليس من الأرض.
هو: أحببتكِ حبًّا ليس من الأرض.
انتهى العرض، ورجعت الأضواء إلى المسرح، وعادت الأرواح من ملكوت الله إلى أرض الله.
نظر ضيف إلى روح، ورأى نظراتها إلى نور، ورأى أيضًا تلك الحسرة المتوارية والدمعات الحبيسة في نظرات نور، فشعر بالغضب أكثر من ذي قبل، وعلم مَن يسكن قلب روح، ومَن فضَّلته عليه. لم يتمالك نفسه، ولم يستطع أن يسيطر على غضبه ويهدئ كبرياءه، ونظر شزرًا إلى نور ومضى.
اندهش ضيا الذي كان مستغرقًا في العرض تمامًا ولم يشعر بأي شيء سوى جمال المقطوعة، من تصرف ضيف، ونظر إلى روح التي لم تكن في حالة تسمح لها بالتفكير في ضيف أو تصرفاته، ولم تكن حتى تراه أو تشعر بوجوده. ما دار بينها وبين نور، وموسيقى «أورف» كانا كفيلين بتحصينها بهالة نورانية تصد أي اختراق لأي مشاعر دنيوية تقترب منها. ليس غير نور، ووداعه المحتوم! هذا ما كانت تدور في فلكه في هذا الوقت. أما نور فقد فهم أن ضيف عرف أنه الحبيب المجهول.

*

في صباح اليوم التالي، وفي منزل عائلة حياة، استعد نور ليغادر إلى برشلونة. كان عليه أن يذهب لوداع روح أولًا قبل الذهاب للسلام على شيخه. شعر أن هذا اللقاء هو الأصعب على الإطلاق. شعر أنه لن يستطيع أن ينظر في عينيها كما كان ينظر بقوة إلى أن تهرب هي بعينيها منه. هذه المرَّة شعر أنه يريد النظر بعيدًا، والهروب من مرآة عينيها التي ستعكس له حقيقة الأيام المقبلة. لا يعرف كيف سيودعها! لا يعرف ماذا سيقول لها! لكنه بالطبع لا يستطيع أن يمضي هكذا، من دون أن يودعها وداع الدنيا. أغمض عينيه، وجلس في وضع التشهد، ورأسه محني في تسليم لله، وناجى ربه:
يا حَي يا قَيوم، أنفِذ قَضاءَك المَحتوم
يا عَلي يا مُتعالٍ، الطُف بنا في كُل حال
يا قوي يا جبار، اجبُر قلوبنا جَبرًا يُذهبُ كُل الجُروح، وامحُ بقُدرتكَ كُل الآثار
يا فَعالٌ لما تُريد، افعل بنا، وأرضِنا بما تُريد
يا قَهار يا حفيظ، احفظنا مِن أنفُسنا، ومِن كُل شَيطان رَجيم
يا وَلي يا عظيم، تَولَّنا في حِزبك، وعَظِّم قَدرَنا بِقُربك، ولا تَفتِنَّا عَنكَ، يا مَن لا هو إلا هو يا هو

في بهو الفندق جلس نور ينتظر روح، بينما مر ضيف، فرآه وتوجَّه إليه ووقف أمامه في تحدٍّ دون أن يتكلم. رفع نور عينيه لضيف وقال:
ـ اتفضل. واقف ليه؟
ضيف: ما يشرفنيش أقعد مع واحد زيك.
صمت نور لحظة، ثم قال:
ـ الله يكرم أصلك.
ضيف: أنا مش عارف إنت إزاي بتبص لنفسك في المراية يا أخي؟ إزاي بتحترم نفسك وإنت غشاش ومنافق؟ حلوة لعبة الراجل الصوفي وبتدخل على ناس كتير مش كده؟
قاطعه نور بحزم:
ـ اسمع، مش هاسمحلك بأي تجاوز.
ضيف: إنت مين علشان تسمح ولَّا ما تسمح؟ ولَّا فاكر كل الناس طيبين زي الغلبانة اللي ضحكت عليها وضيعت عمرها!
قاطعه نور بغضب، وقال:
ـ أنا قلتلك مش هاسمح بأي تجاوز، لكن لو مصمم إن الحديث يستمر بالشكل ده أنا مضطر أنسحب.
ضيف: أيوه أيوه! هوَّ ده اللي إنت شاطر فيه، تهرب وتدارى. لو كنت راجل بجد كنت وقفت ودافعت عن نفسك بدل ما تجري. الرجالة بتواجه ما بتهربش، ده اللي اتربينا عليه وده اللي نعرفه.
نور: الرجولة مواقف، وده اللي ربونا عليه أهلنا ومشايخنا.
ضيف: والرجولة بقى هيَّ راجل متجوز بيغش مراته، ولَّا شيخ بيدل الناس على ربنا وهوَّ بيكذب ويعشم بنات الناس؟ عرفني الرجولة، سمعني.
نور: أنا مش مضطر خالص أدافع عن نفسي، لكن صدقني الأمور بتبان حاجة وحقيقتها حاجة، وربنا العالم.
ضيف: كفاية طريقتك في الكلام دي اللي لا بترسى على حق ولا باطل، تنكر إنك كذبت على روح وقلتلها إنك بتحبها وعلقتها بيك، ولا سيبتها تعيش حياتها ولا اتجوزتها؟ ده اسمه إيه؟ حسبي الله فيك يا شيخ، وربنا يلطف بالمسكينة اللي فوق دي ويفوقها ويردلها عقلها.
نور: اللي هاقولهولك ده ما أعرفش هتفهمه ولَّا لأ، لكن ما دام جبت سيرة روح ما أقدرش ما أقولكش إني حبيتها، مش علشان أدافع عن نفسي ولا الكلام الفارغ اللي قلته، لا، احترامًا لروح بس وحقها عليَّ قصاد ربنا. اللي بيني وبين روح ما أعتقدش فيه حد غيرنا ممكن يفهمه، وحتى أنا ممكن ما أقدرش أوفيه حقه وأعرف أشرحه، بس اللي أقدر أقولهولك إني عمري ما قلت لروح أنا باحبِّك برغم كل الحب اللي في قلبي ليها، ولا اتمنيت إنها تعيش وحيدة، بالعكس أنا بادعيلها كل يوم إن ربنا يبعتلها الشخص اللي يعوضها عن كل اللي عانته. مش عارف لو إنت ممكن تفهم يعني إيه راجل بيحب ست ويدعيلها إنها تبقى مع حد تاني، شيء صعب لأني عارف إني مش هاقدر أكون جنبها. روح أجمل وأصعب حاجة في حياتي، أمانة أمنِّي عليها جمال أخوها، وورث ورثته منه، وسؤال إجباري من ربي ما أقدرش ما أجاوبش عليه. أنا مش ممكن أخون الأمانة. لو كان قلبي في إيدي ما كنتش أتمنى إنه يحس بحد بعد حياة، بس روح كانت بالنسبة لي الجنة اللي

دخلتها وأنا لسه على الأرض، مهما شفت حلاوة في الدنيا ما ينفعش أختار أرجع تاني للحياة بعد ما دخلت الجنة، مفيش حد بيدخل الجنة ويسيبها. تصدقني أو لا دي حاجة ترجعلك، بس أنا لو كنت حسيت إن روح عندها ولو سنة ميل لك كنت شجعتها، وممكن كمان كنت ضغطت عليها، لأني كتير باحس إني مش حبيبها وبس، أنا أخوها أو

حتى أبوها. إنت راجل محترم وابن أصول وما أتمناش لروح زوج أحسن منك، لكن القلوب لها أحوال. غضبك النهارده زاد من احترامي لك، وصدقني أنا كان ممكن أزفهالك عن طيب خاطر لو ده كان اختيارها، بس هيَّ اختارت خلاص.
شيء ما بداخل ضيف ارتاح عندما أفرغ غضبه الحبيس أخيرًا على غريمه المجهول. وعلى الرغم من استشعاره لصدق نور فإنه لم يعلق على كلامه، كان يريد أن يظل في الموقف الأقوى، والأقوى من وجهة نظره يجب أن يجعل الضعيف يشعر بضعفه أكثر. لمح روح تخرج من الأسانسير فانصرف سريعًا. بعض الرجال لا يتقبلون الرفض أو الفشل. كل قابيل لا يقبلون الرفض من حوائهم. أما حواء فلم تكن يومًا تنظر إلا إلى آدمها. تقدمت إليه بخطى بطيئة حزينة يبدو عليها الإعياء الشديد، كانت ذابلة تمامًا ومنهكة وكأنها وصلت من مكان بعيد مشيًا على الأقدام. وقفت أمام نور الذي كانت حاله لا تختلف كثيرًا. أعياهما وأرهقهما الفراق.
مدت روح يدها مصافحة نور، وقالت:
ـ إزيك يا نور!
أمسك نور يدها بقوة، وقال:
ـ الحمد لله على كل حال. اتفضلي.
روح: خلاص مسافر؟
نور: أيوه. هاعدي على سيدي أسلم عليه وأطلع على المطار إن شاء الله.
روح: توصل بالسلامة!
نور: مش عايزة حاجة؟
روح: عايزة. بس مش كل حاجة الواحد بيعوزها بياخدها!
نور: مظبوط. يا ريت كان بإيدي أجيبلك كل اللي نفسك فيه! إن شاء الله ربنا يبعتلك أحسن من اللي بتتمنيه!
كانت الدموع أسيرة في عينيها وهي تنظر إلى عينيه قائلة:
ـ مفيش أحسن من اللي باتمناه!
لم يستطع أن يحبس دموعه، وللمرَّة الأولى بكى، فبكت معه، وقال:
ـ لا فيه! هوَّ عنده كتير! خزاينه مليانة لكل الناس، فما بالك بحبايبه! وإنتِ حبيبته! إن شاء الله هيعطيكِ حتى يُرضيكِ! هوَّ قال كده!
روح: أكيد. أنا متأكدة.
نور: أنا لازم أمشي!
روح: إستنى شوية يا نور!!
نور: ما ينفعش يا روح! لازم أمشي! خلاص!
روح: طب مش عايز تقولي حاجة قبل ما تمشي؟

نور: نفسي. بس مش كل اللي نفسنا فيه بنقدر نعمله!
كانت عيناها تتوسلان إليه، وتستعطفانه ليقول أي شيء. قالت:
ـ علشان خاطري يا نور!!
نور: عايزة إيه يا روح؟ عايزة إيه يا بنت الناس؟
روح: عايزة أسألك سؤال.
نور: مش محتاجة.
روح: لا محتاجة. هيَّ كلمة.. كلمة واحدة قولها وامشي!
نور: إزاي ببساطة كده بتطلبي مني أقولها وأمشي؟! عبد الرحمن الشرقاوي بيقول...
مُفتاح الجَنَّة في كلمة
دُخول النَّار على كلمة
وقَضاء الله هو كلمة
الكلمة نُور
وبعضُ الكلمات قُبور
الكلمة فُرقان بين نَبي وبَغي
بالكلمة تنكشف الغُمة
عيسى ما كان سِوى كلمة
الكلمة مسؤولية
إن الرَّجل هو كلمة
عايزاني أسجنك بكلمة؟!
روح: أنا راضية!
نور: ارحمي نفسك يا روح! ما شبعتيش سجن؟! لو مش هترحمي روحك، فعلى الأقل سيبيني أرحمك!
روح: نور!
نور: ما أقدرش أقول كلمة أنا مش أدها. مقامك عندي أكبر من إني أقول كلمة وما أعرفش أعمل إيه بعدها! أنا مش أناني يا روح!
روح: وغلاوة جمال ارحمني!
نور: لو جمال موجود كان سهل عليَّ كتير. كنت قلتله الكلمة دي من أول يوم. جمال سابني زي ما سابك، وآديني أهوه مش عارف أقولها لمين! مش قادر أكتمها ومش قادر أقولها!
روح: إنت عارف؟
هز نور رأسه نافيًا، ودموعه تسيل.
أكملت روح:
ـ أنا عارفة لما ربنا يسألني عايزة إيه في الجنة يا روح، هاطلب منه إيه؟
نور: أنا كمان عارف هاطلب منه إيه. أنا طلبت خلاص.
روح: هيدينا اللي إحنا عايزينه، صح؟
نور: هيدينا ويزيد.
روح: أنا متأكدة.

نور: أنا عندي يقين. أنا شايف جنتي زي ما أنا شايفك كده.
ابتسمت روح والدموع تجري من عينيها، وقالت:
ـ حلوة جنتك؟
ابتسم نور وهو يبكي، وقال:
ـ أحلى من كل الجنان.
لم يكن يريد أن يمضي، لكن كان يجب أن يتركها كما اختارت، أو كما اختار لها الله فأطاعت.
وقف ومد يديه، وأمسك يديها الاثنتين، وقال:
ـ أنا موجود في أي وقت. اوعديني لو محتاجة أي حاجة تكلميني!
روح: أوعدك!
نور: وفيه وعد كمان عايزك توعديهولي.
روح: اللي تطلبه يا نور.
نور: عايزك توعديني تخلِّي بالك على نفسك. لازم تخلِّي بالك على نفسك. أرجوكِ!
روح: حاضر يا نور، هاخلِّي بالي على نفسي، وإنت كمان خلِّي بالك على روحك!
نور: الله كريم. أشوف وشك بخير.
مضى نور والدموع تنهمر من عينيه وقلبه. لم يسمع ردها وهي تهمس لنفسها: «وأنت كل الخير يا حبيبي!».
تركها، ولم يعطها شيئًا هذه المرَّة: لا قصاصة تل، ولا ديوان شعر، ولا حبة رمان. لم يكن لديه شيء ليعطيه لها سوى دموع ووعد باللقاء في الجنة! لكن أين الجنة؟
ترك آدم حواء وهبط إلى الأرض، وهبطت هي أيضًا إلى الأرض. لم يكونا معًا، على الرغم من أن الأمر

بالهبوط كان لهما معًا. افترقا ليتجمعا. هذا مصير كل آدم وحواء من قديم الأزل، إلى أن يعودا إلى موطنهما الأصلي في الجنة. رحلة في سبعة أطوار: يزلان.. يستغفران.. يتفرقان.. يجتمعان.. حياة.. موت.. خلود. لو لم يزلا ما بدأت الرحلة وما وصلا إلى الخلود. تلك سبعة كاملة!

16

صعدت روح إلى غرفتها حزينة متعبة. للمرَّة الثالثة تودِّع نور: وداع القاهرة بداية الوداع، ووداع قونيا تأكيد له، ووداع مراكش تمامه. لم يكن هذا الوداع كأي وداع بين شخصين أو حبيبين، كان انتزاع روح عن روح، ونهاية لقصة طالما كانت الأصعب والأجمل في حياة الاثنين. وعلى الرغم من إدراكها أن لكل شيء نهاية، وأن كل نهاية هي بداية جديدة، فإنها كانت منهكة إلى أبعد حدٍّ، جسدها كله يؤلمها، وعضلاتها ضعيفة، حتى السبحة كانت ثقيلة في يدها. لم تعد تشعر برغبة في شيء حتى الحياة. تمنت لو كانت لديها حرية اتخاذ القرار بإنهاء رحلتها على الأرض، والذهاب حيث السلام والطمأنينة والنهاية لكل الآلام. لكن، لم يكن الموت يومًا حلًّا تلجأ إليه أو تفكر فيه للخلاص. انطفأت بداخلها كل الأنوار للمرَّة الأولى، وتحجرت الدموع في عينيها، وشعرت بقلبها ينزف كالذبيحة مع كل نبض. كانت ذبيحة بالفعل. نور أيضًا، مع أنه الذابح، فإنه كان مذبوحًا مثلها، بيده نفسها، وبالسكين نفسها، لكنه مطيع لقدر الله فيهما على الأرض، وقد ضحى بأغلى ما سكن قلبه من أجل صاحب القلب.

مسحت روح دموعها التي بدأت تنزل شحيحة حارة على وجهها. وأبت أن تعترض على إرادة الخالق. نظرت إلى المرآة، كأنها تنهر نفسها المتألمة الرافضة وتُقوِّمها، وقالت: «إيه يعني شوية وجع زيادة؟ الظاهر كانت لسه فيه حتة ما اتوجعتش ومستخبية! ربك قاله اوجع. يقول لأ؟ ولو قاله اذبح. كنت هاقوله «افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». أنا بس اللي صعبان عليَّ إنه دبح قلبي ولا كبَّر ولا سمَّى، وربي قال الرحمة في الذبح بالأمر، يبقى إزاي هوَّ بالذات اللي ما يسميش عليَّ؟!».

لم تُهذِّب هذه الكلمات نفس روح، لكنها كانت كعاصفة عصفت بالسد الذي منع الدموع الحبيسة لسنوات وكتم كل الأوجاع. لم تكن الدموع دموعًا على فراق نور فحسب، وإنما كانت دموعًا تحمل قدَرًا ثقيلًا اختارها ولم تختره، ولطالما مشت إليه مطيعة مستسلمة.

كان جفناها ثقيلين، وجسدها متعبًا، وتشعر برغبة كبيرة في النوم أو ربما الهروب من التفكير في حياتها بدون نور، ولكن جدران الغرفة كانت تزيد من إحساسها بالاختناق. فكرت أن تخرج إلى الشرفة وتنام فيها بدون جدران تحوطها، وربما استيقظت في عالم آخر واستجاب الله لها وأنهى رحلتها على الأرض وتجد نفسها تفتح عينيها في مكان ليس به المزيد من الاختبارات.

دفأت نفسها جيدًا، ونامت بالفعل في الشرفة في هواء الشتاء البارد، وبمجرد أن أغمضت عينيها لم تعد تشعر ببرودة الجو ولا بأي أحزان. انتقلت فجأة من الشتاء إلى الربيع، وشعرت بنسمات الهواء تداعب خصلات شعرها الحرة. رأت نفسها في الغرفة الزجاجية في كازابلانكا وكل أبواب الغرفة مفتوحة ومياه المحيط تأتي وتذهب أمواجًا متلاحقة، تأتي بلآلئ ترميها على الشاطئ وتأخذ الحجارة الصغيرة ترميها بعيدًا في أعماق المحيط. أمواج وأمواج إلى أن لم تعد تتبقى أي حجارة على الشاطئ، وافترشت الرملة كلها بسجادة من اللؤلؤ اللامع النظيف الأبيض. كانت الغرفة مزينة بزينة جميلة وإضاءات خافتة رقيقة كالنجوم. لم تكن المدفأة موقدة، بل كانت بها أزهار زنبق أبيض ممشوق القوام وأنيق. تحولت المدفأة بالكامل إلى زهرية كبيرة ممتلئة بالزنبق الرقيق. حتى الجلسات الأرضية لم تكن هناك، واستُبدل بها جميعًا كراسي جميلة، كرسي فضة وكرسي ذهب.

كانت ترى ملائكة تطير في أرجاء الغرفة كجيوش مرسلة ترفرف بأجنحتها بقوة وترسل لها أنوارًا شديدة من قلوبها، كانت الأنوار المرسلة خضراء وموجهة جميعًا إلى قلب روح، بدت الملائكة كما لو أنها في مهمة وتوصل أمانة وتعمل بإخلاص على إرسال كل الطاقات الخضراء المؤتمنة عليها لصاحبتها. كانت تشعر بالأشعة تدخل قلبها ثم تضخ بالكامل وتنتشر في كل جسدها بالتدريج كما لو كانت إكسيرًا يحيي الجسد ويملأه بالحياة، إلى أن تشبع وامتلأ جسدها تمامًا بكل هذه الأنوار الخضراء الجميلة. ثم بدأ قلبها يشع أنوارًا وينشرها حولها حتى أحاطتها بالكامل هالة خضراء كبيرة ومنيرة. عندئذ ظهر حافظ بابتسامته الهادئة يرحب بها وينحني ويشير لها في اتجاه الباب. نظرت فوجدت ضيا يقف عند الباب وينظر إلى الملائكة والأشعة المرسلة والهالة الخضراء، ويتمنى أن يقترب من روح، لكنه يخشى أن يتقدم أو يقترب. اقتربت منه روح بهالتها الخضراء وابتسمت له بنعومة ووضعت يدها على قلبه، فانتقلت الأنوار الخضراء إلى قلبه واخضر تمامًا مثلها. توحد نبض القلبين معًا وأخذا يخفقان بنفس الإيقاع كما لو كانا قلبًا واحدًا. التفت الملائكة في حلقات دائرية حولهما، وأجنحتها ترفرف بنسيم هواء بارد حملها وعاد بها إلى شتاء مراكش وأيقظها من الرؤيا.

فتحت روح عينيها برقة وأشعة الشمس تداعب وجهها، فوجدت حالها تبدَّلت، واختفى إحساسها بالتعب والحزن اللذين كانت عليهما قبل نومها. حتى آلام جسدها المرهق اختفت، وكأن عملية جراحية أجريت لها واستأصلت الألم وطببت الجروح. لم يكن هناك تفسير لما حدث. الشعور المسيطر عليها هو الإحساس الذي ينتاب المحموم مع نهاية الحمى. شعرت أنها تتعافى مما أصابها. كانت متعرِّقة على الرغم من نومها في الشرفة، وتشعر بضعف على الرغم من ذهاب الآلام والأحزان. فكرت في أن هذه الحالة ربما تكون بسبب ضعف شهيتها وقلة تناولها للطعام منذ وصلت إلى مراكش. كان في الغرفة عسل، فتناولت ملعقة، وأعدت فنجانًا من أعشاب الزنجبيل المجفف مع الليمون، وجلست تشربه.

*

رن هاتفها المحمول بمكالمة من ضيا.

روح: أهلًا ضيا.

ضيا: إنتِ فين يا روح؟ اتصلت بيكِ كذا مرَّة مش بتردي!

روح: آسفة! بس فعلًا ما سمعتش التلفون.

ضيا: إنتِ كويسة؟ صوتك متغير!

روح: مش عارفة! يمكن يكون هيجيلي برد، حاسة إني تعبانة شوية.

ضيا: طب تحبي أجيبلك دكتور؟

روح: لأ خالص، أنا هابقى كويسة، يمكن بس محتاجة أرتاح شوية.

شعرت أنها لا تريد البقاء في هذه الغرفة حتى لا تختنق وتتذكَّر ما حدث مع نور، فتراجعت وقالت:

ـ ولَّا أقولك، أنا عايزة أخرج، إنت فين؟

ضيا: أنا لسه داخل أوضتي حالًا.

روح: تحب نتمشى شوية؟

ضيا: أكيد أحب، بس إنتِ كنتِ لسه بتقولي إنك تعبانة، مش أحسن ترتاحي؟

روح: أنا مخنوقة يا ضيا، ومش عايزة أقعد في الأوضة! من فضلك خدني أتمشى في أي مكان واسع!
ضيا: مالك يا روح؟!
روح: لما نتقابل نتكلم. نتقابل في البهو بعد ربع ساعة.
شعر ضيا بأن روح ليست على ما يرام، فهو لم يرها منطفئة هكذا منذ عرفها. ظن لوهلة أن انصراف ضيف بعد الأمسية الموسيقية بتلك الطريقة، ربما أنتج أحداثًا تسببت في تغيُّر حالتها المزاجية بهذا الشكل. لم يفكر كثيرًا في الأسباب، وأصبح شغله الشاغل أن يراها ويُفرِّج عنها إحساسها بالاختناق والضيق.
لم يستطع أن يجلس في انتظارها، فظل واقفًا، يروح ذهابًا وإيابًا في بهو الفندق، إلى أن رآها تخرج من الأسانسير، فتوجَّه إليها قلِقًا، ووقف أمامها مندهشًا. كانت مختلفة عن كل مرَّة رآها فيها، بدت شاحبة وصامتة. ابتسمت ابتسامة هادئة وهي تسلِّم عليه، فقال:
ـ تحبي تروحي مكان معين؟
روح: أي مكان مفتوح يا ضيا، عايزة أتمشى.
اصطحبها ضيا إلى الحديقة السرية، وهي إحدى حدائق مراكش الشهيرة. كانت أشعة الشمس تضفي لونًا ورديًّا على وجنتيها، وهي تمشي في هدوء متأملةً الأشجار والنباتات والمعمار المغربي في الجزء المُسمى بـ«الحديقة الاستوائية» ضمن الحديقة الكبيرة. أما ضيا فحاول أن يروح عنها بأحاديثه الشيقة، وردت هي بكلمات قليلة، إلى أن وصلا إلى الجزء المعروف بـ«الحديقة الإسلامية»، وعنده استوقفها ضيا قائلًا:
ـ إنتِ عارفة إنتِ واقفة فين دلوقتِ؟
نظرت إليه وقالت:
ـ فين؟

ضيا: في الجنة.
ابتسمت وقالت:
ـ معقول! بمنتهى البساطة كده؟
ابتسم ضيا، وقال:
ـ شفتِ إزاي كل حاجة ممكن تحصل بمنتهى البساطة وإحنا مش واخدين بالنا، حتى دخول الجنة؟!
روح: تفتكر؟
ضيا: ما كنتش أفتكر، بس لما عرفتك عرفت إن ممكن جدًّا.
روح: الدنيا صعبة أوي يا ضيا، الأمانة طلعت تقيلة، والحكاية ما طلعتش سهلة زي ما كنت فاكرة!
شعر ضيا بأن روح تتألم من شيء كبير، فنظر إليها بعطف وقال:
ـ إيه الحكاية بقى؟ مالك النهارده؟ أنا أول مرَّة أشوفك كده! صلي على النبي واحكيلي يلَّا.
ضحكت روح وقالت:
ـ الله! تصدق عندك حق، اللهم صلِّ على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها.
ضيا: وإيه طب قلبك؟

روح: الرحمة. ما هو ربنا بعته رحمة للعالمين.
ضيا: إنتِ عمرك ما قلتيلي كانت إيه مشاكلك مع جوزك! أقصد لما كنتِ متجوزة. يعني سيبتيه ليه؟
ابتسمت روح بمرارة، وقالت:
ـ علشان معندوش قلب!
ضيا: مش فاهم!
روح: مش باحب أتكلم عنه يا ضيا!
ضيا: مش عايز أضايقك، بس باحاول أساعدك، ممكن لما تتكلمي وتطلعي اللي جواكِ ترتاحي، زي ما أنا ارتحت لما اتكلمت معاكِ في كازابلانكا.
روح: صدقني، ده موضوع خلص من زمان.
ضيا: طب ليه ما اتجوزتيش تاني؟ يعني، إنتِ ست لطيفة، وطبعًا جميلة، وأكيد رجالة كتير تتمنى ترتبط بست زيك.
ابتسمت روح، وقالت:
ـ مش يمكن زهقت؟
استغرب ضيا من ردها، وسأل:
ـ ليه؟ هوَّ إنتِ اتجوزتِ كذا مرَّة؟!
ضحكت روح بشدة، ثم صمتت برهة، وقالت بمرارة:
ـ زهقت من الوجع، مش من الجواز يا ضيا!
شعر ضيا بأن قلب روح به جرحٌ كبير من زواجها ربما لم يُشفَ تمامًا بعد. نظر إليها بعطف، وقال:
ـ طيب، أنا قريت مرَّة إن الواحد لما يبقى تعبان من حاجة يكتبها، ويفضل يكتب لغاية لما يطلَّع كل اللي جواه على الورق، أو يتكلم مع حد. أنا كنت دايمًا باكتب أول بأول، وباخلص من أي حاجة بتضايقني كده، بس لما اتكلمت معاكِ عن إحساسي بالذنب ناحية مريم ارتحت جدًّا. تعالي نجرب. اعتبريني أنا هوَّ، وقوليلي كل اللي إنتِ نفسك تقوليه، علشان تخرجي اللي جواكِ وترتاحي.
أشاحت بوجهها، ونظرت بعيدًا، وقالت:
ـ ملوش لازمة.
أوقفها ضيا عن المشي، وأمسك يديها، ونظر في عينيها بحنان، وقال:
ـ حاولي، مش هنخسر حاجة، جربي.
دمعت عينا روح، وقالت بمرارة:
ـ إنت عارف يا ضيا؟ كل ما بافتكره باحس إني عايزة أقوله حاجة واحدة بس، تصدَّق؟ نفس الحاجة وعمرها ما بتتغير.
ضيا: قوليها.
روح: دايمًا بابقى عايزة أقوله ما كانش ضروري أبدًا توجعني أوي كده، خليتني مش مستحملة، وخليت كل حاجة بتقرب بتوجع، واللي ما بيوجعش باقول لنفسي يا ترى هيوجع إمتى!
شعر ضيا بكم الألم الذي تحمله روح في قلبها ولا يبدو عليها. تحكم في رد فعله وكلماته قدر المستطاع، فقد شعر بأنه يريد أن يضمها إلى صدره، ويهمس في أذنها بكل كلمات الطمأنينة التي

تُنزل السكينة عليها وتضمد جراحها. تمالك نفسه، وربت على كتفها بقوة، ثم رفع ذقنها لينظر إلى عينيها اللامعتين بالدموع، وقال:
ـ مفيش ألم بيفضل على طول، كل الجروح بتطيب، وبتبطل توجع بالتدريج، حتى لو سابت أثر مكانها، كل الجروح بتخف، صدَّقيني.
روح: مصدَّقاك.
غيَّر ضيا مسار الحديث قائلًا:
ـ ما سألتنيش ليه باقولك إننا في الجنة!
روح: ليه؟
ضيا: الجنينة اللي دخلناها من شوية لو خدتِ بالك، مختلفة عن الجزء الأولاني اللي كنا فيه، دي الحديقة الإسلامية، لما صمموها استوحوا التصميم من وصف الجنة في القرآن، يعني إحنا لما دخلناها من شوية كأننا عملنا بروفة ودخلنا الجنة.
ابتسمت روح، وقالت:
ـ إزاي بتعرف تخلي لكل حاجة طعم أجمل كده؟! أكيد لو كنت جيت الجنينة دي مع أي حد تاني كانت هتبقى مجرد جنينة عادية! باحب طريقتك في الكلام أوي!
نظر ضيا في عينيها، وقال:
ـ بس؟
ارتبكت روح من سؤاله، وأشاحت بوجهها، وتظاهرت بأنها لم تسمع ما قاله. فنظر إلى عينيها بجدية وثبات، وقال:
ـ ما ردتيش عليَّ! كلامي بس اللي بتحبيه؟
حاولت أن تتمالك نفسها فلا يبدو عليها الارتباك، وقالت:
ـ طبعًا كل حاجة معاك يا ضيا جميلة، إنت راجل محترم، وربنا عالم معزتك في قلبي شكلها إيه!
ضيا: شكلها إيه؟
دق قلبها بقوة، وزاد ارتباكها، مع إصراره على الأسئلة ونظرات عينيه المباشرة. لم تستطع تجاهل إحساسها بمشاعره تجاهها، ولم تستطع أن تكون أكثر ثباتًا وتقاوم ما شعرت به في هذه اللحظات. وعلى الرغم من رقته الشديدة وحنانه الغامر، فإنها أجبرت نفسها على تجاهل ما شعرت به والهروب فورًا، وقالت:
ـ يلَّا نرجع الفندق.
فهم ضيا أنها تهرب منه، فقال:
ـ زي ما تحبي، بس قبل ما نرجع الفندق كنت عايز أقولك حاجة مهمة. أوقات الخوف بيخلينا ما نقربش من حاجات كتيرة، ممكن نكون خايفين حتى من التجربة، مع إننا مش هنخسر حاجة لو قربنا وجربنا. معظم الناس اللي قدرت تتغلب على خوفها عاشت حياة أجمل. الحرية أجمل إحساس في الدنيا. فيه شعوب بتدخل حروب طويلة علشان الحرية، وفيه ناس بتعيش تدور على الحرية في كل مبدأ أو عقيدة، مع إن الحرية جوانا، وإحنا بس اللي بنسمح أو نمنع نفسنا نعيشها. الخوف سجن، والسجن اختيار. أما الحياة فحرية، والحرية قرار.
كانت كلماته كافية ووافية ومعبرة عن حالها بدقة، كما لو أنه يعلم قصتها ويشعر بكل ما يدور في قلبها وعقلها. لم تُعلِّق بأي كلمات، ابتسمت فقط في صمت، وسارت معه إلى خارج الحديقة.

في السيارة، وفي الطريق إلى الفندق، حاولت روح أن تتظاهر بأن شيئًا لم يتغير في علاقتها بضيا، وأنه لم يُلمح إلى شيء، وأنها لم تفهم شيئًا، فعلاقتهما الجميلة والمريحة هي آخر شيء تريد أن تضعه على المحك أو

تعرضه للمغامرة أو الخسران.
أوصلها إلى الفندق، وقال:
ـ أنا حابب أتمشى شوية بالعربية. محتاجة أي حاجة أشتريهالك وأنا راجع؟ لسه حاسة بدور البرد أجيبلك دواء؟
روح: لا لا خالص، أنا بقيت كويسة جدًّا، والتمشية في الشمس خلتني أحسن كتير.
ثم فتحت باب السيارة، وهمَّت بالنزول وهي تبتسم له وتقول:
ـ متشكرة أوي على كل حاجة يا ضيا!
استوقفها، وأمسك يدها، وقال:
ـ نسيت أقولك حاجة، أنا باحب كل حاجة معاكِ يا روح، مش بس الكلام!
تجمدت في كرسيها، ويبدو أن الدماء تجمدت أيضًا في عروقها. سحبت يدها من يده سريعًا، وغادرت السيارة إلى الفندق ثم إلى غرفتها، وهي تتعجب من هذه البرودة التي شعرت بها في أطرافها وجسدها. هل هي برودة الجو، أم برودة قلبها الذي هبت عليه نسائم الحب بعد سنين عجاف حُبس فيها المطر عنها في سحب بعيدة تراها ولا تنال منها قطرة مياه واحدة؟

*

على الرغم من المخاوف التي انتابت ضيا عندما قابل نور، بشأن نوع العلاقة التي تربط بينه وبين روح، فإن تصرفات روح معه كانت كافية لتطمئنه وتزيل أي شكوك أو مخاوف، فهي لا تزال تقضي معه الأوقات، وتعطيه القدر نفسه من الاهتمام الذي طالما حظي به في كازابلانكا على الرغم من وجود ضيف ونور، وذلك كان كافيًا بالنسبة إليه ليؤكد على خصوصية العلاقة بينهما. لم يكن ضيا يعلم أن نور غادر مراكش، فالأمر لا يهمه. ولم يهتم أيضًا بمعرفة سبب انصراف ضيف بهذه الطريقة الغريبة في نهاية السهرة. كل تلك التفاصيل كانت بالنسبة إلى شخصية ضيا أشياء لا تعنيه، وما لا يعنيه يجب ألَّا يشغل مساحة من تفكيره أو وقته. ما يعنيه هو روح ومشاعرها.
تجوَّل ضيا بالسيارة، وفكر كيف يمكنه أن يتصرف مع روح ليطمئنها، ويجعلها تطلق العنان لمشاعرها، وتعترف لنفسها بحبه، وتقتنع بأن كل تجارب الحب ليست سواء.
«ليتها تدرك أن الحب الناضج يشبه المحيط الذي شهد بناء مشاعرنا من دون أن نشعر في الغرفة الزجاجية في كازابلانكا! المحيطات أكبر وأعمق من البحور مهما بدت كبيرة وجميلة. التجارب والوعي والسن أيضًا، تضفي سحرًا خاصًّا على ذلك الحب الذي يأتي بعد تشويش المجتمعات، والوعي الناقص، والتجارب الفاشلة التي يخرج منها الأشخاص يفهمون أنفسهم بطريقة أفضل، ويدركون ما يريدون أكثر فأكثر. ليت المجتمعات التي زرعت فينا ضرورة الزواج بعد التعليم، وضرورة الإنجاب بعد الزواج، تزرع فينا أن الحب الحقيقي لا يأتي أبدًا إلا عندما تنتهي مراهقة المشاعر والتجارب وليست مراهقة السن! ليتها زرعت شيئًا واحدًا يخفف عن هذه البشرية التعيسة

تعاستها، ويعطيها أملًا واحدًا في غدٍ أقل إرهاقًا بوجود الرفيق الملائم في هذه الرحلة الصعبة! ليت المجتمعات القاسية خففت من قسوتها قليلًا، وأخبرتنا بأن الحياة لا تنتهي بتجربة حب مشوهة!».
هكذا حدَّث نفسه، وتمنى لو كان باستطاعته أن يحدثها بهذه الأفكار ويطمئنها، لكن ليس كل ما يُعرف يُقال!

*

شعرت روح بالخوف، فلم تكن تدرك أن الأمر سيكون بهذه الصعوبة. لقد تخيلت أن أصعب جزء هو أن تستحضر القوة والشجاعة والقدرة على انتزاع روحها من روح نور! لكن أن تسمح لضيا بأن يقترب، وأن تسمح لنفسها أيضًا بأن تعيش الحب على الأرض، فشيء ثقيل على روحها، ولم تتخيل أنه سيكون بهذا الثقل وتلك الصعوبة، فهي لا تزال تشعر بأن اقتراب أي رجل منها خيانة لنور، وهي لا يمكنها أن تخونه، حتى لو كانا قد افترقا إلى الأبد.
تذكَّرت الشيخ بهاء فجأة. ذلك الشيخ العاشق الذي باح لها بسر عشقه القديم، وتذكَّر معها تلك المشاعر التي ذاقها كما ذاقتها، ولم يُقدَّر لهما أن يغترفا مما ذاقا. كلاهما حال القدر بينهما وبين من عشقا. تناولت الهاتف واتصلت به على الفور:
ـ إزيك يا سيدي؟
الشيخ بهاء: يااااه! وحشتيني يا نور! إزيك يا ست البنات؟
روح: الحمد لله على كل حال يا سيدي. إنت كويس؟
الشيخ بهاء: فضل ونعمة يا بنتي. إيه اللي فكرك بيَّ يا نور؟
روح: وحشتني!
الشيخ بهاء: وإيه كمان؟
روح: سؤال.
الشيخ بهاء: خير إن شاء الله؟
روح: خير يا سيدي خير. هوَّ إنت لما اتجوزت الست شاهيناز الله يرحمها حسيت بإيه؟
الشيخ بهاء: حسيت بإيه يعني إيه؟ حسيت زي كل شاب بيتجوز وبيبتدي حياة جديدة. كنت فرحان طبعًا!
روح: ما أنا عارفة. أنا قصدي يعني علشان الموضوع التاني!
الشيخ بهاء: موضوع إيه؟ آه، قصدك الحكاية اللي حكيتلك عنها؟ البنت اللي حبيتها في مصر؟
روح: بالظبط.
الشيخ بهاء: وإيه دخل ده بجوازي؟!
روح: إزاي يا سيدي؟! دا إنت كنت بتحبها أوي، إنت قلتلي كده، إزاي قدرت تتجوز واحدة تانية؟!
الشيخ بهاء: اسمعي يا روح، لما بيبقى عندك ذكرى حلوة، وعندك حياة لازم تتعاش من غير الذكرى دي، بيبقى قصادك حل من اتنين: إما إنك توقفي حياتك وتعيشي مع الذكريات، وإما إنك تعيشي حياتك وإنتِ بتحترمي الذكريات. لو وقَّفتِ حياتك وعشتِ مع الذكريات أو عليها هييجي عليكِ وقت تحسي إنها بقت ماسخة، وما بقتش بتحلِّي أيامك زي الأول، وساعتها ممكن تحسي إنك ضيعتِ عمرك على الفاضي، وممكن جدًّا ييجي عليكِ يوم تكرهي الذكرى دي، لأنها وصلتك للتعاسة، وحرمتك من حاجات كتيرة فات وقتها، واللي بيفوت ما بيرجعش يا بنتي! لكن لو حطيتِ الذكرى دي في مكانها المظبوط، واحترمتِ جمالها، وعشتِ حياتك، وكل شوية تفتكريها تبتسمي،

وتحسي إن حتة جواكِ لسه بتحس زي ما كانت بتحس مع الذكرى دي، هتفضل حلوة، ويمكن تحلو زيادة في عينيكِ، زي حتة السجادة القديمة كل ما تقدم وتتعتق تزيد غلاوتها. حُطي الذكرى الحلوة في علبة قطيفة، وبصي عليها كل ما تفتكريها، بس ما تعلقيهاش في رقبتك وتخليها تخنقك!
كان لكلام الشيخ العاشق تأثير السحر على روح دائمًا، فهو يعلم لغة العشاق، وقد اختبر الحياة أيضًا، وتحمل تحديات كثيرة. شعرت روح بطمأنينة كبيرة من كلامه، وارتاح ذلك الجزء الذي كان يؤنبها ويمنعها من السماح لضيا بالاقتراب. الشيخ بهاء، الحنون المحنك، الذي وضعه الله في طريقها ليحل محل الأب الخبير، والجد المدلل، والصديق المحتوي، سد كل الفراغات في حياتها، ولعب الأدوار كلها ببراعة.
صمتت برهة تنفست فيها بعمق، ثم قالت:
ـ إنت عارف إني باحبَّك أوي، صح؟
داعبها الشيخ وقال:
ـ أهو ده اللي باخده منك، بكش في بكش!
ضحكت روح وداعبته قائلة:
ـ مش لو كنت صغير شوية كنت إتجوزتك وخلصنا!
ضحك الشيخ وقال:
ـ بس أنا باغير، وما كنتش هاسيبك أبدًا تروحي وتيجي على كيفك كده!
ضحكت روح بشدة، ثم سألت الشيخ بصوت حنون:
ـ بتفتكرها؟
الشيخ بهاء: بادعيلها في كل صلاة فجر ربنا يسعدها زي ما أسعدتني وزيادة.
أنهت مكالمتها مع الشيخ بهاء، وشعرت في هذه اللحظة بأنها تريد أن تدعو لنور طوال العمر، بسبب تلك المشاعر الجميلة التي كان سببًا فيها، وكل الرؤى الرائعة التي عاشتها معه في عالم آخر بقوانين أخرى. كلمات

الشكر كانت تنهال عليها ولا تعرف من أين، ربما من العالم نفسه الذي جمعهما دومًا واحتضن قصة عشقهما.
كتبت لنور:
هو أنت...
والله لو أقسم قلبي على أنه هو أنت لصدقت.
وقسمي ورؤيتي لك فيه وحبي وسجن روحي بك وجنة عشقي التي ما عددتها جنة إلا بك، ولولا أنه هو أنت ما سمحت لعيني أن تنظر له ولا لقلبي أن يشعر به.
هو أنت، بل هو منك، بل هو نقطة في أبجدية هواك وأنت كل الحروف وأنت الخط.
رسمتني وخططت حروفي بيديك رقعة ونسخًا.
رآني وقرأني وهل قارئ العبارة مثل مؤلفها وكاتبها وناظم حروفها حرفًا حرفًا؟
قرأني عبارة وأنت قرأتني كتبًا وأبيات شعر.
استقمت في هواك واستقمت في هوايا فحق علينا الأسبقية لبعض كما حقت للألف قبل كل حرف.
أنت همزتي وتاجي وأنا بدونك مجرد خط.

وقفت لأعليك فوق رأسي وأعترف بصنعتك وأخبر الكل أنه ليس أنا إنني أنت.
وبصناعتك لي على عينك قرأني هو وهو لا يعلم أنه يقرأك أنت.
أنت كل الحروف والكلمات والجمل وأنت كل الشعر.
أنت العشق وأنت الأصل وهو ولمسه الحب مجرد لمس.
موعدنا عندما أستطيع تحمل عشقك والنظر لنور وجهك ولا يكون هناك مزيد من نحن.
عندها أصبح أنا أنت وتصبح أنت أنا وهو أنت.
لم أغادرك لحظة ولم أنفصل عنك لغيرك وكيف وهو أنت؟
شهدت يومًا أنك رب قلبي ومن شهد بالوحدانية لا يكفر ولا يشرك ولا يرى غيرك ربًّا.
كل الأنبياء والرسل منك وتبقى أنت الرب.
هو رسولك ورسالته بعض حبك أما أنت فكل الحب.
عشقته هو عندما رأيتك أنت ولم أدرك أنني من البداية أعشقه هو ولست أنت.
لك العشق حتى ترضى ولك العشق بعد الرضا ولك العشق حتى المنتهى وإن إليك أنت المنتهى وهو أنت.
شعرت براحة كبيرة بعد مكالمة الشيخ بهاء، وبراحة أكبر بعد أن كتبت ما كتبت لنور. للمرَّة الأولى منذ زمن بعيد تشعر بتلك الراحة، فلا إحساس بالذنب، ولا إحساس بالخطيئة تحاول إخماده، ولا بقايا خجل من النفس أو تأنيب ضمير، كما لو كانت هذه الكلمات غسلت بداخلها الأحاسيس السلبية التي لازمتها طوال عشقها لنور. بقي أن تكون أكثر شجاعة وتجدد وضوء قلبها بماء الحب.
نامت نومًا هادئًا في هذه الليلة، عازمةً على أن تتصل بضيا في الصباح، وتتناول معه الإفطار، وتترك الأمور تسير كما يريدها الله أن تسير.

*

في مطعم الفندق، وعلى مائدة الإفطار، كان ضيا قليل الكلام على غير طبيعته. لا يريد أن يمارس عليها أي ضغط، ويرفق بها بعد أن رآها تتألم بالأمس. هي أيضًا كانت قليلة الكلام، ولا تعلم كيف تتصرف، لكنها وجدت نفسها تسأله:
ـ هيَّ الجنينة اللي رحناها إمبارح هيَّ اللي فيها نباتات من كل القارات؟
ضيا: لا، اللي رحناها إمبارح الحديقة السرية، لكن اللي تقصديها اسمها حديقة «ماجوريل».
روح: افتكرت علشان موضوع الجنة اللي قلتلي عليه يبقى فيها نباتات من كل الدنيا!
ابتسم ضيا لبراءتها، وقال:
ـ لأ، موضوع الجنة علشان التصميم بس. عايزة تروحي حديقة «ماجوريل»؟
روح: ممكن؟
ضيا: أكيد ممكن.
روح: طيب هوَّ أنا ممكن أطلب طلب كمان ولَّا ما ينفعش؟
نظر ضيا في عينيها برقة، وقال:
ـ أي حاجة عايزاها يا روح تنفع!
ابتسمت لحنانه، وقالت:

ـ تسلم. كنت قريت إن فيه عربيات حنطور في مراكش، وأنا باحب الحناطير أوي، ينفع نركب حنطور النهارده؟ بتسموه هنا حنطور ولَّا إنت مش فاهمني؟
ضحك ضيا، وقال:
ـ فاهمك، فاهمك. اللي إنتِ عايزاه كله هنعمله. عايزة إيه تاني غير الحنطور و«ماجوريل»؟
أعادت خصلات شعرها خلف أذنيها في خجل، وقالت:
ـ مش عارفة، لسه مش عارفة عايزة إيه.
كانت حديقة «ماجوريل» مميزة جدًّا وبديعة المنظر، وتجمع كثيرًا من الأزهار والنباتات الموجودة في القارات الخمس، وكأن سفراء العالم كله اجتمعوا في هذه الحديقة. اختارت روح شجرة الجهنمية الحمراء الكبيرة، ووقفت تتأملها بإعجاب، فنظر إليها ضيا وقال:
ـ بتحبي الجهنمية؟
روح: أوي. إنت عارف إن جنينة بيتي في قونيا السور بتاعها كله مزروع جهنمية حمرا؟
ضيا: أكيد بيتك حلو أوي!
روح: هو بالنسبة ليَّ أحلى بيت، صغير، والفرش قليل على أدي أنا وحبايبي اللي بيزوروني بس، مفيش كركبة وحاجات ملهاش لازمة. إن شاء الله تيجي تزورني وتشوفه.
ضيا: إن شاء الله. بس غريبة إنك بتحبي الجهنمية! كنت متخيل إنك ممكن تحبي شجرة فُل مثلًا، أو أي شجرة ليها ريحة!
روح: علشان كده باحبها، علشان ملهاش ريحة، فمحدش هيفكر يقطف منها، بتفضل حلوة على طول علشان محدش بيقربلها، واللي يقرب لازم ياخد باله كويس ويعاملها بحرص لأن فيها شوك صغير كتير، هوَّ صحيح صغير، بس ممكن يعور اللي يعاملها بعنف! باحبها علشان بتعرف تحمي نفسها!
ضيا: عمري ما فكرت فيها كده، باشوفها شجرة حلوة وبس! أقولك حاجة؟ أنا كمان جنينة بيتي في كازابلانكا سورها مزروع جهنمية حمرا!
شعرت بنفسها أكثر جرأة مما كانت عليه في الجنة بالأمس، لم تكن الجنة مكانها مع ضيا، لكن هذه الحديقة التي جُمعت نباتاتها من مناطق كثيرة من الأرض هي مكانهما.
نظرت في عيني ضيا، وقالت:
ـ فاكر لما سألتني لو فيه حاجة خلتني أعيش في المغرب هاتبسط ولَّا هاختار أعيش في القاهرة؟
دق قلب ضيا دقات متسارعة، وشعر من نظرات روح بأن السؤال يحمل أكثر من معناه! أومأ برأسه مجيبًا، فاستطردت:
ـ ممكن نغير شوية في السؤال ونخليه: لو خُيرتِ ما بين قونيا والمغرب والقاهرة، تختاري تعيشي فين؟
ضيا: فين يا روح؟
روح: أختار كازابلانكا!!
تجمَّد ضيا ولم يرد. فهم ردها، لكنه لا يزال يخشى الاقتراب، فالجهنميات تمتلئ بالأشواك الصغيرة المختبئة، ويجب أن يتعامل معها بحرص!
روح: طب فاكر آخر ليلة في كازابلانكا لما كنا بنسمع «إلفيس» «can &apos ;t help falling in love »؟ فاكر؟

ضيا: فاكر!
روح: وقتها سألتني لو فيه حد ممكن يحب من غير ما ياخد باله، صح؟
أومأ برأسه، وقال:
ـ صح!

أمسكت بيديه الاثنتين، ونظرت إلى عينيه بجرأة، وقالت:
ـ فيه... فيه ناس ممكن تحب من غير ما تحس!!
لم يكن هناك مجال للشك، إنها اللحظة التي لا تأتي كثيرًا، بل ربما تأتي مرَّة واحدة وتذهب فلا تعود.
أمسك يدها، وقبَّل كفها الصغيرة، ثم نظر إلى عينيها وقال:
ـ أنا باحبِّك!!
دبَّت الحياة في أوصالها، وشعرت أن كل شيء بداخلها حي وينبض. لم تتردد ولم تفكر. ابتسمت له وقالت:
ـ وأنا كمان باحبَّك!!
كانت السعادة كلمة قليلة لما شعر به، كان يشعر أن كل المشاعر التي وصفها بالسعادة لم تكن بالفعل سعادة، كل شيء أمام ما يشعر به في هذه اللحظة يتراجع في صمت وينحني في احترام للسعادة الفعلية التي غمرته كله. هذه هي السعادة التي لم يذقها من قبل، الآن ذاق طعمًا مختلفًا للسعادة، طعمًا يشبه روح ولا يشبه أي شيء آخر ذاقه من قبل. هي أيضًا لأول مرَّة تطلق العنان لمشاعرها دون أي قيد، كانت تشعر في هذه اللحظة بحرية لم تشعر بها من قبل.. حرية الحب.
أمسك رأسها وطبع قُبلة أعلاه بنعومة ورقة، كأنه يشكرها لأنها منحته هذا الإحساس.
ضيا: طب، أنا عندي سؤال تاني.
ابتسمت روح، وقالت:
ـ خير؟
ضيا: أكيد خير. هوَّ مش لما حد بيحب حد بيتجوزوا؟
فاجأها ضيا، فاحمرت وجنتاها خجلًا كما لو أنها لم يُعرض عليها الزواج من قبل! ارتبكت بشدة وقالت:
ـ صحيح، أوقات بتحصل الحكاية دي!
رفع ضيا رأسها ليرى عينيها، وقال:
ـ طب ممكن نعدل تاني في السؤال القديم ونخليه: لو اتقدملك راجل مغربي بيحبك، ويتمنى يقضِّي عمره معاكِ، في بيت صغير في كازابلانكا سور جنينته مزروع جهنمية حمرا، تقبلي تتجوزيه؟
ابتسمت وهزت رأسها خجلةً.
ضيا: على فكرة، مبدأ السكوت علامة الرضا ده بيلخبط، الكلام دايمًا بيبقى أجمل بكتير.
ابتسمت روح، وأخذت نفسًا عميقًا وأخرجته ببطء، ثم نظرت إليه وقالت:
ـ عندك حق، السكوت بيلخبط، موافقة أعيش معاك في أي مكان يا ضيا، وعلى فكرة كمان من غير جهنمية!

انهمرت الأمطار من سماء مراكش على روح وضيائها، وكأن الله أراد أن تحتفل معهما الأشجار والأزهار والعصافير. كل شيء في مراكش بدا أنظف وأطهر وأجمل. كل شيء تزين بطهارة وجمال المطر والحب. استجاب الله إلى مناجاتها، ووهب لها الرحمة التي أحيت قلبها بحب ضيا، وأحيت قلبه، تمامًا كما رأت في الرؤيا. لم يعد للألم مكان، وزُرعت أزهار الزنبق الرقيقة في قلبها كما الرؤيا، وكانت هذه اللحظات تأويل رؤياها التي جعلها ربها حقًّا.

لم يعودا إلى الفندق قبل منتصف الليل. اصطحبها ضيا في جولة بعربة الحنطور كما طلبت، ثم اختار أحد المطاعم الشهيرة ليتناولا فيه عشاءهما الأول كحبيبين. كان الطبخ من هوايات ضيا، وكان يستمتع بإعداد أشهى المأكولات لضيوفه في منزله. ومنذ توطدت علاقته بروح في كازابلانكا، ورغبة عارمة في أن يطهو لها بيديه تراوده، لكنه لم يتجرأ على الإعلان عن هذه الرغبة وتوجيه الدعوة إليها لتتناول العشاء في منزله، فهذه الدعوات غير مألوفة في الثقافات الشرقية.

يقع مطعم «رياض كنيزة» في وسط مدينة مراكش الشاهدة على اعترافهما بالحب، ويعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر. اختار ضيا هذا المطعم بالتحديد، ليس لتاريخه أو شهرته في تقديم أطيب الأطباق والطواجن المغربية الشهية فحسب، وإنما ليلبي هذه الرغبة الملحة بداخله، فيطهو لروح بيديه كما تمنى، فرئيس الطهاة في هذا المطعم يمنح الضيوف فرصة المشاركة في الطبخ، واكتشاف أسرار المطبخ المغربي معه. لا يزال ضيا يهتم بكل التفاصيل، ويبحث بين السطور عن أي فرصة لإسعادها!

دخلا معًا إلى المطبخ، واشتركا مع الطباخين في إعداد الأصناف المختلفة. كانت أجواء المطبخ تعج بالبهجة والحب. ظلت روح تنظر إليه وتداعبه بحرية، وكان يستمتع بضحكاتها ومداعباتها، ويخبر الجميع بأن هذه المرأة الجميلة ستصبح زوجته.

*

لم يكن هذا الإحساس بالطمأنينة والأمان ينقصه سوى شيء واحد: الإعلان عنه ومشاركة فرحتها مع مَن تحب.

طلبت من ضيا في منتصف اليوم أن يصطحبها لزيارة شيخها. لم ترد فقط مشاركة فرحتها مع شيخها ومباركته لاختيارها، وإنما أرادت أن ينال ضيا من الشيخ ما يناله مَن يجالس أولياء الله الصالحين من دعاء وبركة. رحب ضيا جدًّا بالفكرة، واتصلت روح بالشيخ الجيلاني الصغير، واستأذنت في الزيارة مع ضيا.

كانت الجلسة جلسة ود وألفة، وكأن الشيخ يعرف ضيا من قبل. حتى ضيا شعر بأريحية شديدة، على عكس ما توقَّع، فقد خشي أن تكون المقابلة كشف هيئة أو اختبارًا له من قِبل الشيخ، يخرج منه بموافقته، أو يُستبعد من حياة روح إذا لم ينل رضاه.

رأى الشيخ ضيا كما رأته روح، بل أوضح. رأى قلبه، ولم ينظر إلى هيئته أو حاله الدنيوية، فهكذا يرى أهل الله عباد الله. استأذن ضيا من الشيخ بأن ينتظر روح في السيارة، تاركًا لها بعض الخصوصية مع شيخها، مما جعل الشيخ يُعجب به أكثر. ابتسم الشيخ لروح ابتسامة رضا وإعجاب. صمتا للحظات، ثم تحدث هو وقال:

ـ المرَّة اللي فاتت زعلتِ من كلامي ومشيتِ زعلانة!

روح: العفو يا سيدي! أنا عمري ما أزعل من حضرتك!

الشيخ: ما فهمتيش كلامي، علشان كده زعلتِ، عارفة ليه الوهم هَم يا روح؟
هزت رأسها نافية.
الشيخ: الحقيقة الوحيدة هي «ربنا»، كل ما عداه خيال ووَهم، واللي يعلق نفسه بحد غير ربنا يبقى معلَّق نفسه بوهم مش حقيقة! فكري نفسك طول الوقت إن أي حد هو مجرد ظل، خلِّي قلبك معاه لوحده، وأي حد تاني اعرفي إنه ظل لا أكتر ولا أقل، علشان ما تتعبيش يا بنتي! فهمتِ دلوقتِ الوهم هَم ليه؟
ابتسمت روح:
ـ فهمت يا سيدي.
الشيخ: يعني خلاص مش زعلانة؟
ابتسمت روح، وقالت:
ـ أكيد مش زعلانة. ممكن أسأل حضرتك سؤال؟
الشيخ مداعبًا:
ـ إنتِ ما بتبطليش أسئلة؟!
ضحكت روح وقالت:
ـ ربنا يديمك ليَّ في القلب وفوق الراس، وأفضل أسأل وتجاوبني.
الشيخ: ويبارك فيكِ يا بنتي. مبارك إن شاء الله.
لم تُصدِّق روح نفسها! فقد أجابها الشيخ على سؤالها قبل أن تسأل! ابتسمت وقالت:
ـ طب فيه حاجة كمان.
الشيخ: قولي.
روح: ممكن حضرتك تكتب كتابنا لما أرجع من قونيا إن شاء الله؟
الشيخ: إنتِ بنتي.. عايزة حد تاني اللي يكتب كتابك وأنا موجود؟!
دمعت عينا روح من الفرحة، وابتسمت في حبٍّ لشيخها، وقالت:
ـ ربنا يجبر قلبك زي ما بتجبر قلبي! إنت سيدي وتاج راسي!
داعبها الشيخ وقال:
ـ يلَّا قومي امشي، كده هتتأخري على العريس، الرجالة المغاربة صعبين، بس الواد ده طيب، ربنا يرضى عليكم

ويراضيكم!
ابتسمت روح وقالت:
ـ آمين.. يا سيدي.

*

في الفندق دارت أمور كثيرة في رأسها، ولم تعرف ماذا تفعل أولًا وماذا تؤجل. تفاصيل كثيرة تحتاج إلى ترتيب. تريد أن تعود إلى قونيا فتلملم أشياءها، وتسلِّم على الشيخ بهاء وعائلة بندر، وتسلِّم البيت إلى صاحبه، ثم تغادر إلى بيتها الجديد في كازابلانكا، وبالطبع تريد أن تذهب إلى الرومي وشمس. اجتاحها حنين شديد للصلاة في مسجد شمس وتنظيفه للزوَّار مرَّة أخيرة. أرادت أن تعطر المسجد للمصلين بأجمل وأغلى العطور، ليشموا رائحة الحب منها، ويتنفسوا عبيره،

وتمتلئ قلوبهم به كما امتلأ قلبها. حتى بنيامين الحارس، تذكَّرته، وأحست أنها يجب أن تودعه قبل أن تنتقل للحياة في المغرب.
كان يجب أن تتحدث مع ضيف، وتبحث معه ترتيبات السفر.
روح: ألو.
ضيف: أهلًا روح، إزيك؟
روح: الحمد لله. إنت إزيك؟
ضيف: تمام.
روح: ضيف، هوَّ أنا أقدر أغيَّر تذكرة رجوعي لقونيا؟
ضيف: فيه حاجة ولَّا إيه؟!
روح: عندي كام حاجة ما أعتقدش هالحق أخلصهم في يومين، كنت عايزة أرجع آخر الأسبوع.
ضيف: عمومًا، أنا كنت باحاول أغيَّر تذكرتي من إمبارح علشان أرجع بدري وما نفعش، كل الرحلات كاملة العدد من إمبارح علشان العاصفة الثلجية المتوقعة آخر الأسبوع، فلو هتغيريها هتضطري تستني أسبوع كمان.
شعرت روح بخيبة الأمل، فهي تريد أن تقضي مزيدًا من الوقت مع ضيا قبل عودتها إلى قونيا، وتأجيل السفر لآخر الأسبوع كان سيمنحها هذه الفرصة، لكن الأمور دائمًا لا تسير كما تتمنى.
روح: خلاص، يبقى كده هاسافر في ميعادي بعد بكرة. شكرًا يا ضيف.
لم يحاول ضيف أن يفتح أي حديث أو يتطرق إلى أي موضوع، كانت المكالمة قصيرة ومقتضبة، رد فيها على أسئلتها فقط، وهي تكلمت بما يفي بالغرض من الاتصال. جلست تفكر قليلًا ثم اتصلت بضيا.
روح: بتعمل إيه؟
ضيا: بافكر فيكِ.
روح: فعلًا؟
ضيا: جدًّا.
روح: ضيا، إنت واخد بالك إن طيارتي بعد بكرة؟
ضيا: لأ طبعًا هنغير التذكرة.
روح: أنا لسه مكلمة ضيف وقالي مش هينفع!
ضيا: بس إحنا عندنا حاجات كتيرة لسه ما اتفقناش عليها!
روح: عارفة والله، بس أعمل إيه؟ فيه حاجات مهمة في قونيا لازم أرجعلها!
ضيا: خلاص يبقى نروح سوا كازابلانكا ونتمم كل حاجة، ولما وقتنا يسمح نبقى نسافر سوا نخلص الحاجات اللي وراكِ هناك.
روح: مش هينفع يا ضيا! خلِّيني أسافر، ولما أرجع نتمم كل حاجة على مهلنا!
ضيا: خلاص، يبقى نكتب الكتاب بكرة.
ضحكت روح بشدة، وقالت:
ـ بكرة إزاي يعني؟!
ضيا: هوَّ كده، بكرة نكتب الكتاب، وتسافري تخلصي اللي وراكِ في يومين، وترجعي على كازابلانكا.

روح: إنت مجنون!
ضيا: لا، أنا باحبّك.
لم تعتد سماع كلمات الحب، أو تصرفات المحبين. كانت لا تزال عذراء المشاعر، وتخجل من أي كلمة حب حتى لو كانت من الرجل الذي ستصبح زوجته بعد أيام. فطرة الأنثى بداخلها هي التي ترد بردود تشبهها. خليط من أنوثة راقية، مغلفة بغلاف رقيق من الدلال. تنفست بعمق، ثم قالت برقة:
ـ غالبًا أنا كمان باحبَّك أوي! نكتب الكتاب بكرة، وأسافر بعد بكرة لقونيا، وأرجع بعد أسبوعين على كازابلانكا.
ضيا: هوَّ أسبوع واحد، تخلصي فيه كل حاجة وترجعي على طول، هاحجز تذكرة الرجوع بعد أسبوع!
روح: احجز.
مضت الأحداث سريعة، والسعادة تغمرها، كما لو أن السماء فتحت بالفعل بماءٍ منهمر، يحمل لها من أنواع الجمال ما يصعب عليها تصديقه أو تحمُّله. لم تُفكِّر أو تُحلِّل أي شيء، استشعرت فقط هذه الرحمات، وشكرت الله على تغمده لها برحمته بكل هذا القدر.
في عصر اليوم التالي ارتدت فستانًا رقيقًا من الحرير، لونه أزرق ملكي، بدت فيه كالأميرات في حفلات التتويج. عيناها تلمعان لمعة مختلفة، لمعة الرضا والراحة والطمأنينة. وضعت أحمر الشفاه الصريح الذي وضعته عندما ذهبت لحضور «كارمينا بورانا»، وكحلت عينيها بكحل شديد السواد، فأبرز جمال عينيها أكثر، وأعطتها لمسات الماسكرا الرقيقة جرأة وجمالًا، وتعطرت بعطرها المفضل، رائحة جوز الهند. جلست في مضيفة الشيخ عروسًا تنبض بالحياة، وترغب فيها، وتسير إليها، كما نصحها الشيخ العاشق بهاء الدين.
جلست روح أمام الشيخ الجيلاني، وضيا بجانبها ينظر إليها في سعادة وحب.
بدأ الشيخ الطقوس المتعارف عليها في هذه الحالات، وتلا من القرآن الكريم ما تيسر له، وأوصى كلًّا منهما بالآخر، ثم بدأ يلقنهما ديباجة كتب الكتاب.
قالت له برقة وعذوبة:
ـ زوجتُك نفسي.
قال لها بكل حب:
ـ قبلتُ زواجكِ.
بارك الشهود لهما، واحتفل بهما الشيخ احتفالًا رقيقًا دعا إليه عددًا من أولاده في الطريق، وتناول الجميع الحلوى والشربات، ودق الشباب الدفوف إعلانًا واحتفالًا بزواج روح وضيا.
اطمأن الشيخ على روح، ودعا لها ولضيا، وشكره ضيا بشدة على إتمام مراسم الزواج، والاحتفال الجميل المختلف. لم تكن الكلمات تكفي لتعبر روح عن امتنانها وشكرها لشيخها، الذي شعرت بالفعل في هذا اليوم بأنها ابنته وهو والدها، بل ربما أكثر. كانت النظرات أعمق من كل الكلمات، واكتفت بقول كلمات قليلة:
ـ أشكرك يا سيدي.
أومأ الشيخ برأسه مبتسمًا لها، واستأذنت بالانصراف. لم يكن الإذن لتغادر المضيفة فحسب، بل كان أيضًا للسفر من مراكش والعودة إلى قونيا بجوار شيخيها الباطنيين، الرومي وشمس

التبريزي.

*

عادت الروح نفسها إلى أرض الرومي، لكن في حال مختلفة. عادت سعيدة مجبورة. كانت أقوى وأجمل وأكثر ثقة بنفسها من أي وقت مضى.
أخبرت صاحب البيت بأنها ستغادر قونيا، وبدأت تجمع أشياءها القليلة التي أحضرتها معها من القاهرة. دائمًا أشياؤها قليلة! بعض الفساتين والشيلان الملونة، وبعض الكتب، وحقيبة واحدة تتسع لكل أشيائها. هكذا شكَّلها الله بهيئتها الجديدة. القليل يكفيها ويُسعدها. وهكذا يجب أن تظل! مَن كُتبت عليه الهجرة من نفسه إلى ربه، يجب أن يكون متخففًا متحررًا من أي متعلقات تعوق انتقاله إذا صدر الأمر بالانتقال! الآن صدر الأمر مرَّة أخرى، فبعد القاهرة إلى قونيا، سترحل من قونيا إلى كازابلانكا.
ذهبت إلى الشيخ بهاء لتودعه. لم يكن وداعًا عاديًّا، فالشيخ العجوز يحبها حبًّا جمًّا، وهي أيضًا تحبه كثيرًا. دخلت إلى غرفة المكتب، وكان يجلس على الأرض، واضعًا نظارة القراءة. أزاح النظارة، ونظر إليها نظرة

متفحصة، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وقال:
ـ حمد الله على السلامة يا روح!
روح: الله يسلمك من كل شر! إنت أول مرَّة تقولي «روح»!
ابتسم الشيخ وداعبها قائلًا:
ـ هوَّ إنتِ مش اسمك «روح»؟! إنتِ غيَّرتِ اسمك في المغرب ولَّا إيه؟
داعبته أيضًا قائلة:
ـ طب تصدَّق عندك حق، أنا غيَّرته فعلًا، زي ما تقول كده زودت عليه حتة.
الشيخ: إزاي بقى؟
كانت مسرورة جدًّا وهي تخبره قائلة:
ـ أنا اتجوزت!
الشيخ: اتجوزتِ إزاي؟! إنتِ حصل لعقلك حاجة ولَّا اتجذبتِ؟
ضحكت روح بشدة وقالت:
ـ والله العظيم اتجوزت!
الشيخ: إزاي يعني؟
روح: سبحانه!
أمسكت روح يد الشيخ وقبَّلتها بامتنان، وقالت:
ـ أنا جاية النهارده أشكرك، أنا كنت جاية قونيا مكسورة وحزينة وشايلة حمل تقيل، إنت كنت رحمة من ربي، وبحُبك هوّنت عليَّ اللي كنت شايلاه في قلبي! مش عارفة من غيرك كنت هاعمل إيه؟!
دمعت عينا الشيخ وهو يستمع إلى كلماتها، ولم يعلق. فاستطردت روح والدموع في عينيها:
ـ إنت اللي بعتني المغرب وخلِّتني أقابل ضيا، لولاك كان زماني لسه موجوعة، أنا باحبَّك أوي!
بكى الشيخ وقال:

ـ أستغفر الله يا بنتي، أنا عبد المأمور، وكله بأمره. ربنا يسعد قلبك، وأشوفك دايمًا مبسوطة. خلاص مفيش تاني دموع، امسحي دموعك، وانسي كل الحمول، هوَّ شال عنك خلاص، وطيبك يا طيبة!
روح: يطيب أيامك ويبارك في عمرك!
داعبها الشيخ بهاء قائلًا:
ـ وإزاي ما تعزمنيش على الفرح؟!
روح: مفيش فرح يا سيدي، إحنا يا دوب كتبنا الكتاب عند شيخي، واتفقنا آجي أسلِّم عليكم وألم حاجتي، وأسلِّم البيت، وأرجع على كازابلانكا آخر الأسبوع بإذن الله.
الشيخ: وده يصح برضو؟!
روح: أنا مرتاحة كده يا سيدي.
الشيخ: ربنا يريح قلبك ويرضيكِ. هدية جوازك هتوصلك في بيتك، علشان جوزك يعرف إن أهلك بتفهم في الأصول.
روح: لا يا سيدي، أرجوك! أنا مش عايزة هدايا، كفاية اللي عملتوه معايا!
قاطعها الشيخ بحزم:
ـ لسه هتعرفيني النهارده؟ كلامي نافذ، والأصول لازم تتعمل! إنتِ بندر! حتى لو ما كنتيش بالدم فإنتِ منا بالروح! عايزاني أعاملك غير بنات بندر إزاي؟!
بكت روح، وألقت بنفسها في حضن الشيخ العجوز. لم تقل شيئًا. كل الكلام لن يفي بالرد على هذا الشيخ الطيب الكريم.
كان وداع قونيا على عكس طبيعة الوداع المتعارف عليها، فدائمًا ما يأتي الوداع بآلام جديدة يحملها المودِّع في قلبه ويسير بلا اختيار له في حملها أو تركها. لكن هذا الوداع لا. كان وداعًا لآلام كثيرة طالما حملتها روح في صمت، وكان المسكن الوحيد والمتنفس لها هو رحلاتها مع نور في عالمهما الخاص الذي من فرط جماله استطاعت أن تتحمل سنوات وسنوات من الآلام من دون أن تشعر بمرارتها وثقل حملها. ودعت قونيا ببازاراتها الصغيرة، وبائعيها الطيبين، ومحلات السميط التركي، ومحلات السجاد العتيق، وحديقة الفندق الصغير التي كانت تستمع فيها إلى الأغاني والموسيقى المختلفة، ومطاعم قونيا، وأكلاتها الشهية. ودعت كل التفاصيل التي أصبحت جزءًا منها، وارتبطت بها سنة واحدة، لكنها حفرت في وجدانها ذكرى جميلة، ومهدت لحياة جديدة في أرض جديدة.
الآن جاء أوان الوداع الأكبر لأصحاب الأرض الذين رحبوا بها وأكرموها. ذهبت إلى شمس التبريزي، الدرويش الذي عصف بقلبها حبه، وجلال الدين الرومي، مولى الحب رقيق القلب مثلها.
كان الوداع مباشرةً قبل الذهاب إلى المطار، تمامًا كطواف الوداع لمكة، يكون آخر عهد الحاج بها ويغادر كعبة الله لسكنه، هي أيضًا طافت طواف الوداع بكعبة العشاق وغادرت لسكنها في الأرض.
أحضرت معها باقة ورد، وجلست أمام الرومي في أدب، تمامًا كاليوم الأول الذي زارته فيه. جلست وحدها أمام المقام المشغول بالذهب، لم يكن بجوارها زوار، حتى الحرس تواروا عن

الأنظار في هذه اللحظة الخاصة. هي والرومي فقط، وموسيقى الناي الحزين المسموعة دائمًا في المتحف. سلَّمت على معلمها الرقيق، وحدثته بقلبها وهي مغمضة العينين:
ـ لما جه أمر الله إني آجي عندك كان كل جرح وجرح في قلبي بيسابق التاني مين يوجع أكتر! مديت إيدك ومسحت على الجروح، وعلمتني إزاي أقدر أعيش بجروحي وما أفضلش مستنياها تطيب! علمتني إن الجروح بتشكِّلنا، وإنها مسارات النور، ولازم تفضل مفتوحة علشان النور يدخل منها ويطلع لغيرنا! علمتني إن اللي بيروح بيرجع، بس في شكل تاني! علمتني إن الفراق للي بيحب بالعين، لكن اللي بيحب بالروح ما بيبعدش أبدًا عن حبيبه، وأنا حبيتك بروحي! صحيح أنا هابعد بجسمي عن أرضك، بس روحي وروحك مع بعض في مكان أجمل، مكان فيه شمسك وشمسي، ومفيهوش أي جروح، لأن النور حرق كل التراب وفضل هوَّ بس! هاجيلك، أنا عارفة إن ده مش آخر لقاء في قونيا، أنا عارفة إن لينا لقاءات تانية. إمتى؟ الله أعلم. ولغاية ما ربنا يجمعنا في ملكوته، هاقولك باحبَّك وأشوف روحك في النور.
قبَّلت يدها التي ابتلت بدموعها قُبلة رقيقة، وأرسلتها إلى الرومي، والتفتت فوجدت خلفها فتاة لطيفة لم تشعر بوجودها، كانت تقف في صمت خلفها أمام المقام، وربما كانت تحدث الرومي بقلبها مثلها. كانت ملامحها تشبهها قليلًا، أو هكذا تصورت، حتى إنها تغطي رأسها بشال أخضر أيضًا. تعجبت روح من هذه المفارقة، وابتسمت للفتاة، وفكرت في أن تهديها باقة الورد التي أحضرتها للرومي. ربتت على كتفها برقة، ففتحت الفتاة عينيها، فأعطتها روح الورد، وسألتها عن اسمها، فقالت:
ـ حواء.
ابتسمت روح لحواء التي أحبت خصلات شعرها الأحمر المتدلية من جانبي الشال الأخضر، ثم التفتت في اتجاه الباب، وغادرت متحف الرومي ومضت إلى شمس.
في مسجد شمس كان الوداع أثقل. جلست أمامه ولم تقل شيئًا. انسابت دموعها بحرارة بينما حُبست الكلمات. جاء بنيامين، وربت على كتفها، وابتسم ابتسامة كلها طمأنينة، وأحضر لها قطعة قماش نظيفة، وأشار إليها أن تدخل لتمسح بها مقام شمس التبريزي الذي طالما منعها من الاقتراب منه والالتزام بتنظيف المسجد للزائرين فقط. امتزجت الدموع مع الفرح، وهرعت لدخول المقام. كان قلبها يرقص فرحًا، وأحست أن شمس أذن لها بما لم يأذن به لها من قبل، أذن بالاقتراب أكثر. مسحت المقام برقة، وابتسمت له كأنها تراه بالفعل، إلى أن وصلت إلى الرأس، الغطاء البني الكبير المميز لشمس وحده بخلاف أيٍّ من مقامات أولياء الله الصالحين، تمامًا كصاحبه الصاعقة الذي يصعق من يقترب في عشقه وعلمه اللدني وحضوره النوراني. لكن الصاعقة أذنت لها بالاقتراب، تمامًا كما أذنت للرومي وحده بالاقتراب. جلست خلف غطاء الرأس الكبير المكتوب عليه من جهة: «لا إله إلا الله»، ومن جهة أخرى: «محمد رسول الله». جلست جلسة التشهد، أو جلسة طالب العلم أمام معلمه، واستحضرته في قلبها، وأغمضت عينيها، وبدأت الكلمات تنساب إليها، فحدثته بدموعها، وقالت:
ـ لو كنت أستطيع أن أسأل ربي سؤالًا عنك في يوم، لسألته أن يطلعني على قلبك. أنا متأكدة إنك اتعذبت في بُعدك عن الرومي أضعاف ما هو اتعذب في بعده عنك، لكن إنت كتمت نار الفراق في قلبك، وما وصفتش لحد عذاباتك، ولا شكيت ألمك. عملت كده إزاي؟ مين اللي عوضك عن حبيبك وهوّن عليك بُعدك عنه؟ عملت إيه يا

سيدي عرفني؟ علمني؟ أنا عارفة إنك بتعلمني من غير ما أحس، بس أنا طمعانة في مددك، زي مولانا ما شرب منك شربني.. شربني.. شربني!
غابت قليلًا، أو ربما كثيرًا، وهي تتمايل وتضم قطعة القماش إلى قلبها، وتردد: «شربني». إلى أن سمعت تكبيرات الأذان تجيبها: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر»، وكأن شمس يجيب سؤالها: كان الله أكبر في قلبه من كل شيء، من الرومي ومن أي شيء، فهانت كل الأغيار والأشكال، ولم يبقَ إلا الحق. إنها رسالة شيخها نفسها: «الوهم هَمٌّ».
مسحت بيدها على مقام شمس بقُبلة الوداع، وغادرت لتصلي. وقعت عيناها على كلمة تراها للمرَّة الأولى على الرغم من زياراتها المتعددة من قبل، كانت الكلمة مكتوبة على غطاء المقام بالفارسية، فحاولت قراءتها، لكنها لم تفهمها! «هتچ». تُرى ماذا تعني «هتچ»؟
ودعت بنيامين بعد الصلاة، وأخبرته أنها ستغادر قونيا إلى المغرب، فخلع بنيامين خاتمه الفضي وأهداه إليها، فابتسمت وحاولت قراءة الكلمة المنقوشة على الخاتم، فوجدتها الكلمة نفسها المكتوبة على مقام شمس التبريزي: «هتچ». تكررت الكلمة مرَّة أخرى في أقل من عشر دقائق، في المكان نفسه! سألت بنيامين عن معناها، فأخرج هاتفه المحمول وبحث لها عن الترجمة العربية للكلمة التي كانت رسالة واضحة لم تتخيل أن تتلقاها سريعًا هكذا من شمس. «هتچ» تعني: «الفناء».
«الفناء في المحبوب الأعظم». إنها وصية شمس لها قبل أن تغادر مسجده، ورده على سؤالها كيف استطاع أن يكتم نيران عذاباته. الفناء في الله هو الحصن من كل ألم. وضعت الخاتم في إصبعها بعد أن ظلت سنوات لا تضع أي قيود. الآن في إصبعها خاتم الفناء، وفي أذنيها قرط العشق الياقوتي. عزمت على ألَّا تخلع الخاتم أبدًا، تمامًا كخاتم الزواج، الرباط المقدس بالله والرباط المقدس بالبشر. اجتمع شمس والرومي فيها بالقرط والخاتم.

*

في كازابلانكا انتظرها ضيا في المطار، والفرحة تغمره لاستقبال عروسه أخيرًا. هي أيضًا كانت عيناها تبحثان عنه فور أن خرجت من باب صالة الوصول. وجدته، ووجدت الحب معه، وارتاحت في حضنه من عناء السفر، واطمأنت في صدره.
وصلا إلى الفندق الذي نزلت به في زيارتها الماضية إلى المدينة البيضاء. اندهشت روح، وقالت:
ـ إحنا جايين الفندق ليه؟!
ضيا: مش عايزة نتعشى في الأوضة الإزاز وبعدين نروَّح؟
ابتسمت وقالت:
ـ هوَّ إنت إزاي بتعمل كل حاجة حلوة كده؟!
أخذ ضيا يدها وقبَّلها برقة، ولم يُعلِّق.
في الغرفة وجدت روح صندوقًا لؤلؤيًّا مسطحًا كبيرًا فوق السرير. استغربت جدًّا، ووقفت أمام الصندوق في دهشة، وقالت:
ـ إيه ده؟
ضيا: افتحي وإنتِ تعرفي.
فتحت الصندوق فوجدت فستانًا رقيقًا من الساتان السكري الناعم، يحمل اسم مصمم أزياء فرنسي شهير، ومعه طرحة رقيقة من التُّل الفيروزي الهادئ كلون مياه البحر الفيروزية الساحرة. كانت

سعيدة جدًّا بما وجدت، ونظرت إلى ضيا مستفسرة لتتأكد أن ما فهمته صحيح!
أجابها المحب الرقيق:
ـ نفسي أشوفك زي أول مرَّة جيتلك الفندق وقعدنا في الأوضة الإزاز سوا! أنا عارف إن مواضيع فساتين الأفراح والحاجات دي مش من اهتماماتك، وأنا كمان، بس أنا حبيت نشوف بعض عريس وعروسة، حتى لو ما كناش هنعمل فرح ومعازيم ما نبقاش عارفينهم. اخترت فستان رقيق تخيلت إنه ممكن يعجبك، وطلبت منهم طرحة تل فيروزية بلون الشال بتاعك، فاكراه؟
روح برقة:
ـ طبعًا فاكراه.
ضيا: وأنا كمان جبت بدلة زي العرسان، بس مش هالبس ببيونة.. مش باحبها.
ضحكت روح واحتضنته بحرية وحب، احتضنته امتنانًا لحبه الرقيق، وحنانه المتدفق، واهتمامه بأدق التفاصيل. كانت تحتضن رحمة الله التي سألته إياها فوهبها إليها في صورة رجل.
نزل العروسان، ووصلا إلى باب الغرفة الزجاجية، ودق ضيا الباب ففتح حافظ، وبدأت موسيقى «كارمينا بورانا» تعلن عن وصول العروسين. تفاجأت روح ونظرت إلى ضيا ولم تصدق ما رأت. كانت الغرفة مختلفة، كانت مزينة بالورود في كل أرجائها، الستائر كلها كانت مرفوعة، ومياه المحيط في الخلفية بدت كلوحة فنية بديعة. شعرت أن الملائكة تملأ الغرفة وهي التي تعزف الـ«كارمينا بورانا» احتفالًا بحياتها الجديدة، تشهد وتبارك وتصحبها في أولى خطواتها إليها. كل شيء كان أجمل من ذي قبل، حتى الورود شعرت أنها تبتسم لها وتبث عبيرها بقوة في اتجاهها لتشم رائحتها عن بعد، حتى النخيل المزروع على شاطئ المحيط كان يبدو من خلف الزجاج يتمايل مع الهواء وكأنه يتراقص من الفرحة ويحتفل بالزفاف، رمال الشاطئ كانت كسجادة من الذهب متراصة بمهارة بجانب بعضها البعض، السماء كانت صافية ولم تكن هناك أي سحب. كل السحب ذابت والسماء بدت أجمل وأنقى وقوس قزح فيها كان يعلن عن احتفال السماوات معها في هذا اليوم. القمر كان بدرًا، لم يكن الليل قد حل بعد ولكن القمر كان ظاهرًا في السماء بوضوح ورقة، حتى إنها تخيلت أنه يبتسم لها من بعيد. كان القمر مباركًا زفافها لضيا، والشمس كانت تشع أشعتها الدافئة فقط وتتوارى عن الأنظار، انسحبت في طاعة من المشهد فلا حرارة ولا قرص متوهج، فقط دفئها والضياء. حتى الكراسي كانت كما رأت في رؤياها كرسي فضة وكرسي ذهب، لم ترَ الملائكة المحلقة كما تشعر، ولكنها كانت على ثقة من حضورهم جميعًا، رأت ملائكة أخرى، حضر كل ملائكتها الحارسة من الأرض، وصل براء وعالية من القاهرة، ونور وحياة أيضًا جاءوا، الشيخ بهاء جاء خصيصًا من قونيا وكان في كامل أناقته وبهائه. رأت فتاة رقيقة ترتدي جلبابًا مغربيًّا أنيقًا كانت تقف بعيدًا وتبتسم لهما، خمنت أنها مريم ابنة ضيا. عدد قليل من الوجوه السمحة ذات الملامح المغربية، ربما كانوا إخوة ضيا وأصدقاءه المقربين. لم يكن المشهد ليبدو أجمل مما بدا، نظرت إلى ضيا بكل حب وقالت:
ـ دي أجمل حاجة شفتها في حياتي، أنا باحبَّك أوي.
تقدم حافظ بعلبة خاتم الزفاف، ووضع ضيا الخاتم المنقوش عليه اسمه في إصبعها، وأعطاها دبلته المنقوش عليها اسمها لتضعها في إصبعه. تبادلا الخواتم وتبادلا القبلات والنظرات التي تعد بحياة سعيدة مليئة بالحب والسعادة. صفق الحاضرون وأطلقت حياة زغروطة مغربية ملأت الغرفة بهجة وحياة.

جلس الجميع يتناولون الطعام معًا على طاولة واحدة في جو من الألفة والفرحة. أنشد براء بسعادة أجمل أشعار الحب للعروسين وقلبه يرقص من السعادة برؤيته روح سعيدة هكذا.
قدم الحضور الهدايا المغلفة بالدعوات الصادقة، وجاء دور نور...
اقترب نور ووقف أمامها ونظر إليها نظرة مختلفة، شعرت أن جمال هو الذي ينظر إليها وليس نور، كان في هذا اليوم جمال أخاها، تمامًا كما أخبر ضيف أنه بحبه المختلف لها يستطيع أن يزفها لمن تختاره هي بكل رضا. وبالفعل زفها بقلبه وكبت حبه وفني في حب الله بحبها. استطاع أن يعبر اختباره ويجيب على سؤاله الإجباري ويتخلى عن روح بحب الله. وصل العارف بالله إلى مقام الفناء بحب القديسة المحرمة. ابتسم لها بفخر أن استطاعت هي أيضًا أن تعبر امتحانها، ثم وجه كلامه إلى ضيا وقال:
ـ روح أمانة عندك.
قال ضيا:
ـ الأمانة محفوظة بإذن الله.
أعطاها هدية الزفاف علبة مغلفة بغلاف أخضر جميل، ابتسمت هي أيضًا لجمال أخيها ولم تبتسم لنور، ثم أخذت العلبة وفتحتها فوجدت مرآة. نظرت في المرآة ورأت وجهها وهي عروس، عيناها تلمعان من الفرحة كما لو كانتا حبتي كريستال، ووجهها منير بضياء الحب. رأت نفسها كما لم ترها من قبل، أراها نور بمرآته جمالًا فيها لم تره في أي مرآة أخرى. تذكرت مقولة الرومي أو ربما سمعت أحد الملائكة يهمس بها في أذنها ويقول:

«أنا لم آتِ لأعطيك شيئًا جديدًا، لقد أتيت لأخرج جمالًا لم تكن تعرف أنه موجود فيك».
أخرجت الورقة المكتوب عليها الإهداء وقرأتها:

عندما نقف عند مفترق طرق يجب علينا الاختيار.
وباختيارنا نمضي في أحد الطرق دون الآخر، ظانين أننا اتخذنا القرار.
ولكنه في الأصل مجرد خطوة على الطريق.
الأقدار مكتوبة، ونحن ننفذ فقط الأدوار، لم ولن نختار.
هو وحده المقرر وصاحب القرار.
«وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ».
أعطاها شيخها الدرجة السابعة، وتأكد من إتمام المريدة العاشقة درجاتها السبع بنجاح، أوصلها لميلاد جديد بعد أن أصبحت حاجة عاشقة. حجت بعشقه، وولدت من جديد، لتبدأ حياة جديدة بالضياء الذي أرسله الله إليها إلى أن تستطيع أن تقترب من النور ولا تحترق.